الإتجاه التداولي و الوسيط

في الدرس اللغوي



الاتجاه التداولي والوظيفي

في الدرس اللغوي

أ.د. نادية رمضان النجار

أستاذ العلوم اللغوية

كلية الآداب- جامعة حلوان

الطبعة الأولى

٢٠١٣م _١٤٣٤هـ



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تعالى، ونستعينه، ونستهديه، ونصلي ونسلم ونبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد...

فقد شهدت الدراسات اللغوية في الثلث الثاني من القرن العشرين تطورا ملحوظا على يد بعض الفلاسفة والمناطقة وعلماء الأنثربولوجيا؛ وذلك في الفترة الواقعة بين دروس "دي سوسير"، وما أحدثته النظرية التوليدية التحويلية على يد "تشومسكي". فقد استعان الدرس اللغوي بمعارف كثيرة من العلوم الإنسانية؛ فنتج عن ذلك اتجاه عُرف بالتداولية، وهو يُعنى باللغة في التواصل أو بالرموز اللغوية وقدرتها على نقل رسالةٍ ما من المتكلم إلى المتلقي مع الإحاطة بالظروف السياقية، والمقامية، وحال المتكلم والمتلقي، وثقافتهما إلى غير ذلك من العوامل المؤثرة في إقامة التواصل. إنها بالأحرى مقاربة جديدة طموحة في حقل علوم الإنسان.

وقد نشأت التداولية في أحضان الثقافة الأنجلوساكسونية؛ حيث وُلدت وتطورت في الولايات المتحدة وإنجلترا بسبب الدور الذي قامت به الاتجاهات التحليلية في الفلسفة، ومن وجهة أخرى بسبب ما خلفته النظرية التوليدية في نموذجها الأول من إخفاقات نتيجة تمسكها باستقلالية التركيب؛ مما أدى إلى التفكير بجد في البعدين الدلالي ثم التداولي. وقد تبلورت النواة الأولى للتداولية على يد العالم الأمريكي "تشارلز موريس" ت١٩٣٨م، الذي صنف علم السيميائيات Semiotics إلى ثلاثة فروع: (علم التراكيب Syntax، وعلم الدلالة Semantics، وعلم التداولية Pragmatics)، فأولاها يتصل بالنحو، وثانيها يتصل بالمعنى، وثالثها يتصل بالوظيفة التي تؤديها العلامة.

ولمّا كانت التداولية معنية بإقامة التواصل مع الغير عُدت الوظيفة التواصلية من أهم أغراضها؛ ومن ثم أدى ذلك إلى اقتران الاتجاهين التداولي والوظيفي معًا، كما انقسم الاتجاه الوظيفي إلى وظيفية بنيوية، ووظيفية تداولية، والاتجاه الوظيفي البنيوي هو الذي يركز على وظيفة البنيات اللغوية، وهو ما نحن بصدد الحديث عنه في هذه الدراسة.

وقد جاء الكتاب في بابين: الباب الأول عنوانه (الاتجاه التداولي)، ويشتمل على أربعة فصول هي:

- الفصل الأول: تاريخ التداولية وأهم أعلامها.
- الفصل الثاني: الأفعال الكلامية.
- الفصل الثالث: عناصر التداولية.
- الفصل الرابع: معايير تصنيف استراتيجيات الخطاب.

أما الباب الثاني فعنوانه (الاتجاه الوظيفي)، ويشتمل على ثلاثة فصول هي:

- الفصل الأول: تاريخ الوظيفيّة وأهم أعلامها.

- الفصل الثاني: تصنيف الوظائف اللغوية.
- الفصل الثالث: الوظيفة التواصلية وأهم عناصرها.

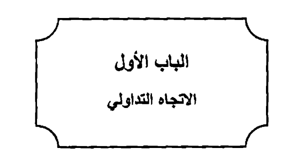
ثم ختمت الدراسة بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها مع فهرست الكتاب.

وقد حاولت جهدي أن أيسر عرض هذه الاتجاهات؛ مبينة نشأة كل اتجاه وتطوره عند الغربيين؛ مردفة بملامحه عند العرب؛ لتيسير العرض والإفادة للمتلقي رامية من وراء ذلك كله أن يلقى قبولاً لدى القارئ.

والله ولي التوفيق

أ.د. نادية رمضان النجار

٢٠١٢/٢/٧



الباب الأول

الاتجاه التداولي



الفصل الأول

تاريخ التداولية وأهم أعلامها

مفهوم التداولية :

التداول لغة : مصدر تداول، يقال: دال يدول دولاً: انتقل من حال إلى حال، وأدال الشيء: جعله متداولاً، وتداولت الأيدي الشيء: أخذته هذه مرة وتلك مرة[1].

أما اصطلاحًا : فهو فرع لساني يُعنى بدراسة التواصل Communication بين المتكلم والمتلقي، أو بمعنى آخر يُعنى بدراسة الرموز التي يستخدمها المتكلم في عملية التواصل، والعوامل المؤثرة في اختيار رموز معينة دون أخرى، والعلاقة بين الكلام وسياق حاله، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلام، وهذا الفرع يُعرف بـ(Pragmatics)[2] البراجماتية أو التداولية .

وقد قدّم "د.مسعود صحراوي" تعريفًا إجرائيًا للتداولية، إذ يربطها بالتواصل على نحو يجعلهما شديدي الالتصاق، فهو يحدّها بأنها ((إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير "التداولية" من ثم جديرة بأن تسمى علم "الاستعمال اللغوي"))[3].

وقد عرّفها " فيليب بلانشيه " بأنها الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة ، وتهتم بقضية التلازم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية والبشرية[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، مادة: دول.
(2) د. رمزي منير البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، ط١، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م، ص ٣٩٠.
(3) د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ط دار الطليعة، بيروت، د.ت، ص ١٦-١٧.
(4) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت: صابر الحباشة، دار الحوار، سوريا، ٢٠٠٧، ص ١٨

ومن ثم فهي تُعنى بدراسة :

أ- كيفية تفسير الأقوال المستعملة، أو اعتمادها على المعرفة بالعالم الواقعي المحيط بالنص.

ب- كيفية فهم المتحدثين للأحداث الكلامية Speech acts.

ج- كيفية تأثر تركيب الجمل بالعلاقة بين المتحدث والسامع[1].

وقد تعددت تعريفات المحدثين للتداولية، واختلف بعضها مع بعض لدرجة التناقض والتضاد أحيانًا، وقد قدّم د. "محمود نحلة" بعض هذه التعريفات، موضحًا ما يؤخذ على كل تعريف، مستخلصًا تعريفًا جامعًا مانعًا، متجنبًا فيه - بقدر الإمكان - ما أخذ على التعريفات الأخرى، فيقول: «من هنا أوجز تعريف للتداولية وأقربه إلى القبول هو: دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئًا متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول negotiation اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي)؛ وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما»، فإذا قال شخص ما: "أنا عطشان" فقد يكون المراد (احضر لي كوبًا من الماء)، وليس المراد إخبار المتكلم السامع بأنه عطشان، فالمتكلم كثيراً ما يعني أكثر مما تقوله كلماته؛ ومن ثمّ كانت التداولية تبحث في كيفية اكتشاف السامع لمقاصد المتكلم Speaker intentions[2].

نشأة التداولية وتاريخها:

وإذا حاولنا البحث عن الجذور الأولى "للتداولية"، فيمكن تلمسها في الاتجاه التحليلي في "الفلسفة التحليلية"، وهو الاتجاه الرئيس في فلسفة اللغة، أو

(١) د. سعيد حسن بحيري، علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط١، لونجمان، القاهرة ١٩٩٧م، ص١٠٩، ود. صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ط دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م، ١٣/١.

(٢) د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م، ص١٢، ١٤ بتصرف.

التيار الغالب في الفلسفة المعاصرة الذي ركز على موضوع اللغة، وحاول تغيير مهمة الفلسفة وموضوعها وممارستها.

وقد تأثر بالتجديد الفلسفي الذي جاء به "فريجة" عدد من الفلاسفة منهم "هوسرل" و "كارناب" و "فيتجنشتاين" و "اوستن" و "سيرل"، وتجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلمة عامة مشتركة، مفادها: أن فهم الإنسان لنفسه وعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبّر له عن هذا الفهم، وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات الفلسفة التحليلية واتجاهاتها، ويمكن إجمال سمات الاتجاه التحليلي فيما يأتي :

١. ضرورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم ولاسيما جانبه الميتافيزيقي . .
٢. تغيير بؤرة الاهتمام الفلسفي من موضوع "نظرية المعرفة" إلى "التحليل اللغوي".
٣. تجديد بعض المباحث اللغوية وتعميقها، لاسيما مبحث الدلالة، والظواهر اللغوية المتفرعة عنه[١].

ويتكون الاتجاه التحليلي من تيارات فرعية أهمها: تيار اللغة الطبيعية عند "مور ورسل وفيتجنشتاين"، وتيار اللغة الصورية الذي يدرس اللغة الشكلية، وهو الاتجاه الذي تمثله الوضعية المنطقية بزعامة "كارناب وآير"، وتقوم على التحليل المنطقي للجمل والقضايا اللغوية، وتيار أفعال اللغة بزعامة "أوستن وسيرل" ضمن مدرسة اكسفورد[٢]. ولم يكن المنهج الوظيفي التداولي محط اشتغال هذه التيارات كلها، فقد اهتم منهج الوضعية المنطقية باللغات الصورية المصطنعة، ونهض منهج "دافيوس" بشروط الصدق؛ وبذلك خرجت من الاهتمام التداولي، فلم يبق ضمن الاهتمامات التداولية إلا تياران هما: "التيار الفلسفي الطبيعي"، و"تيار أفعال اللغة". ويرى بعض الباحثين أن بدايات التداولية –لاسيما نظرية أفعال اللغة– زامنت نشأة العلوم المعرفية، فقد جرى

(١) د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٢٢.
(٢) د. احمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، منشورات عكاظ الرباط ١٩٨٩م، ص٢٠.

التفكير في معالمها في سياق عقلية جديدة، هي العقلية التي مكنت من ظهور العلوم المعرفية[1].

وفي أواخر الستينيات تُبني مفهوم "كارناب" الذي ساوى بين التداولية والسيمياء الوصفية، وأدخل "كارناب" مفهوم السياق المتضمن هويات المشاركين في الحدث الكلامي، والمحددات الزمانية والمكانية، والمعتقدات ومقاصد المشاركين[2].

وقد تطور في السبعينيات من القرن العشرين علم التداولية، الذي شارك في تنمية بحثه دارسون تجاوزوا بعض المفاهيم اللغوية التي سادت في الفترة الواقعة بين دروس "دي سوسير" وكتابات "تشومسكي"؛ ذلك أنهم انكبوا على دراسة الأشكال الدلالية، لا الدلالة.

واهتموا بالمقام اللغوي، وأصبحوا ينظرون في القول، ويتساءلون عن علاقة اللغة بالكلام، وجدوى التفريق بينهما[3]. وتُصنَّف اللسانيات التداولية داخل نظام علاماتي عام، له جذوره في مشروع "بيرس" وبعض اللغويين أمثال: "موريس"، و"كارناب"[4]. فـ"بيرس" هو مؤسس حركة البراجماتية، واقترنت في الأذهان باسم "وليام جيمس"، بوصفها نظرية فلسفية أكثر منها قاعدة منطقية، وقد مرت التداولية بمراحل سنجملها فيما يلي :

١. تُعد نقطة الانطلاق في التداولية لدى الفلاسفة اللغويين البريطانيين، ولاسيما مناقشات "سيرل" و"جون أوستن" ١٩٥٠م، وكذلك محاضرات "بول جرايس" ١٩٦٧م، هذه المحاضرات التي أدت إلى الاهتمام بمستوى المعرفة في اللغات الطبيعية، وكما عُنيت بدراسة ما يحيط بالحدث اللغوي، من ظواهر غير لغوية كـ(السياق، والمقام، والمتكلمين، ومقاصدهم،

---

(١) آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ترجمة: د.سيف الدين دغفوس، ود.محمد الشيباني، ومراجعة: د.لطيف زيتوني، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٤٣.
(٢) د. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م، ص ١٠٦.
(٣) د. محمد صلاح الدين الشريف، مبحث تقديم عام للاتجاه البراجماتي، أهم المدارس اللسانية، عبد القادر المهيري، ومحمد الشاوش، ط٢، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٩٠م، ص ٩٥.
(٤) السابق نفسه، ص ٩٩.

وحيثيات الاستعمال، والأفعال اللغوية([1]). ومن المرجح أن نظرية "أوستن وسيرل" بالإضافة إلى مفهوم "ديل هايمز" عن "الكفاءة الاتصالية Communicative Competence"، أي الاستخدام المناسب للتعبير المناسب في الموقف المناسب - هما النواة الأولى لظهور علم البراجماتية الحديثة بمفهومه اللغوي»([2]).

٢. وقد ظهرت دراسات معقبة لنظرية الأفعال الكلامية عند "أوستن وسيرل"، على يد "أسوالد ديكرو وبروندنر". أما "أسوالد ديكرو" فقد بدأ برفض الاعتقاد القائل بأن اللغة تفيد التواصل بالمفهوم الضيق للمصطلح، أي إيصال المعلومات، موضحًا أن اللغة تتكون من جداول من العلاقات التي تحدد أدوار المتخاطبين، وجهاز من التواضعات والقوانين التي تنظم النقاش بين الأشخاص، وهذا ما عُرف بالإنجازية عند "أوستن". كما تحدث "ديكرو" عن الافتراضية التي تكمن في الطريقة التي يُفرَض بها على المخاطب إطارٌ لاستمرار الخطاب: يجبره على الفعل، وكأن محتوى الافتراض حقيقة مؤكدة لا يمكن أن يعاد النظر فيها. كما تناول ما يعرف بـ"الأقوال المضمرة" وهي ما يُستنتج من المعنى (الجانبي) ومن السياق بواسطة الأسلوب الخطابي (أي من الاستدلال)، وهو نفس نمط الاستدلال الذي يسمح بتأويل: "هل بإمكانك أن تقدم لي الملح؟" كطلب، وذلك بالاستعانة بقوانين الخطاب، أهمها قانون الإخبار وقانون الشمولية([3]).

٣. أما "بروندنر" فقد توسع في الفكرة التي تُركز على الأقوال التي لا تُشكل فعلاً، فالأفعال الإنشائية Acts Perforates عنده لا تُوظف لأداء الفعل الذي تدل عليه، ولكن تُوظف لعدم تأديته. فهي تسمح بالاستدلال الفعلي للكلام كقولنا: "أوصي بمكتبتي لـ(س)"، فإني أستبدل إشارة تقديم ذلك للشيء بصيغة منطوقة تساوي تلك الإشارة؛ ومن ثمَّ خلص إلى أن: الفعل الوحيد الذي نؤديه ونحن نتكلم هو "إيماءات صوتية وإيقاعية مبرزة لفاعليةِ البنيةِ التركيبية". وهذا المفهوم يخالف مفهوم "أوستن" عن الأفعال

---

(١) د. مقبول إدريس: البعد التداولي عند سيبويه، عالم الفكر، ع١، م٣٣، ٢٠٠١م، ص٢٤٥ – ٢٤٦.
(٢) د. علي عزت: الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، ط أبو الهول للنشر، د.ت، ص٥١.
(٣) جون سرلوني: اللسانيات والتداولية، ترجمة. حمو الحاج ذهبية، بحث بشبكة المعلومات، منتدى التواصل العلمي.

الكلامية[١].

خصائص التداولية :

١) التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي، وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يولّد المعنى.

٢) ليس للتداولية وحدات تحليل Units of Analysis خاصة بها ولا موضوعات مترابطة Correlation Topics.

٣) التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة (معرفية Cognitive، واجتماعية Social، وثقافية Cultural)[٢].

٤) التداولية لا تنتمي إلى أي من مستويات الدرس اللغوي (صوتية كانت أم صرفية أم نحوية أم دلالية)، كما أنها لا تمثل مستوى يضاف إلى هذه المستويات؛ لعدم وجود أنماط تجريدية ووحدات تحليلية تمثل هذا المستوى، فهي لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة، بل من الممكن أن تستوعبها جميعًا[٣]. وهذا لا يعني أن للتداولية ليس لها دور في إنتاج الكلام، بل على العكس، فهي تمثل جزءًا من القالب النحوي المندرج ضمن عناصر المقدرة الاتصالية؛ لأنه يبحث في جدوى الكلام والشروط الضرورية التي يتم بها التواصل بين المتخاطبين؛ ليقوم الكلام بالوظيفة التي وجد من أجلها. وإن كان هناك من الباحثين مثل "ليتش ١٩٩٨" من اقترح إدراج العناصر التداولية في قالب مستقل، أسماه بـ"القالب التداولي"[٤].

٥) إنّ التداولية ينهض بها تداوليون مختلفون، يصدُرون عن اختصاصات مختلفة، ويشتغلون على ظواهر متعددة. وأثريت التداولية وأخصبت بما

---

(١) جون سرفوني، اللسانيات والتداولية، ترجمة: حسن الحاج ذهبية، بحث بشبكة المعلومات، منتدى التواصل العلمي.
(٢) د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٤، ١٥.
(٣) السابق نفسه، ص١٠.
(٤) د. أحمد المتوكل، قضايا اللغة في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان، الرباط ٢٠٠١م، ص٦٨.

جرى بينهم من حوارات ومناقشات واختلافات؛ ومن ثم فإن هويتها في تعددها[1].

صلة التداولية بالعلوم الأخرى:

بالرغم من تفرد التداولية في خصائصها إلا أنها متداخلة مع غيرها من العلوم الأخرى، كـ (البنيوية، والدلالة، والنحو، والأسلوب، ولسانيات الخطاب ... إلخ) .

التداخل بين التداولية والبنيوية:

أما اتصال التداولية بالبنيوية، فيتمثل في أنهما يعالجان تلك الملفوظات بالاستدلالات ومعلومات مستقلة من معارف مستمدة من الواقع الخارجي، وبتواضع من أفراد المجموعات اللغوية المتواطئة على ذلك، ولكنهما يختلفان في كون البنيوية تُوصف بوصف "الشكلانية والصورية"، أي البُعد عن (الأحداث الكلامية الحقيقية في الواقع المجسَّد)؛ مما جعل جهازها الواصف مفتقراً إلى التعيين والإحالة؛ لافتقادها للقواعد الإحالية التفسيرية، فالملفوظ الآتي:

(لقد زادوا في قيمة الضرائب) ..

ملفوظ لا تقدم اللسانيات البنيوية فيه أية قاعدة تفسّر الضميرَ الذي أُسند إليه الفعل "زاد"، وتعيّن المرجعَ الذي يُحال إليه في الواقع الخارجي عن اللغة، إذا ما استثنينا بعض التوجهات اللسانية الوظيفية التي ظهرت في السنوات الأخيرة، كـ"نظرية النحو الوظيفي" "لسيمون ديك" مثلاً، ولكن نظريته ليست نظرية بنيوية، بل إن تأثرها بالتداولية أشد[2].

أما في التداولية فتوجد آلية (أو عدة آليات) لتفسير هذا الضمير وتعيين المرجع في الواقع الخارجي؛ وهذا ما يعزو للتداولية بعض المميزات عن اللسانيات البنيوية: كالاتصال المباشر، ومباشرة العالم الخارجي. ومن القواعد

---

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ص١٨١.
(٢) د.مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص٢٩.

العامة التي يمدنا بها العالم الخارجي، أن ليس لأحد الحق في زيادة الضرائب إلا السلطات المخولة بذلك .

وتتأسس الاستدلالات التداولية على أعراف اجتماعية؛ ولذلك قد تكون نسبية، لمثلاً في الملفوظين الآتيين :

- هل تريد فنجانًا من القهوة ؟

- إنها تحول بيني وبين النوم .

كيف عرف السائل أن محاوره يرفض القهوة؟ وكيف عرف المجيب أن القهوة تحول بينه وبين النوم؟ وكيف تم الاتفاق والتواطؤ بينهما من جهة وبين أفراد المجتمع من جهة أخرى على ذلك ؟

يتبين مما سبق أن التداولية واللسانيات البنيوية ، يختلفان في المنهج والغاية فإذا كانت اللسانيات البنيوية تهتم بالجمل، فإن التداولية تهتم بالملفوظات بالدرجة الأولى، وتبحث في الوسيلة ألتي تنفذ بها اللغة في مختلف المقامات الحوارية .

وإذا كانت اللسانيات البنيوية تهتم بالإنتاجية اللغوية في مستواها البنيوي (تفكيك الآلية الإبداعية في كفاية المتكلمين، ومحاولة التعرف على البرنامج اللغوي من الداخل) فإن التداولية تهتم بمختلف الإسقاطات التأويلية التي يفرزها الأداء (التعبيرات). وإذا كانت اللسانيات البنيوية تهتم بالمرجع وبالأدوات التي تنتج الخبر الثابت، فإن التداولية تهتم بالأدوات التي تنتج المقصد .

هكذا إذن سيكون مجال اللسانيات البنيوية البحث في الكفاية اللغوية، بينما يكون مجال التداولية البحث في الكفاية التواصلية. وإذا كانت اللسانيات البنيوية تبحث في المرجع الثابت المؤدي إلى خبر ثابت أيضا، فإن التداولية تهتم بقصد المتكلم ودرجة اقتناعه بالمحتوى الخبري الذي تبلوره العملية التواصلية، وتحكمه مقامات تلفظية متغيرة بطبيعتها .

وإذا كنا نحتاج في اللسانيات البنيوية إلى تشغيل آليات الكفاية اللغوية الرمزية لتحديد الخبر في اللغة، فإننا في مجال التداوليات نحتاج إلى توظيف

آليات المكون البلاغي المعبر بشكل ثابت عن مرجع غير ثابت. وإذا كانت اللسانيات البنيوية تهتم بالجملة في أقصى حدودها التوزيعية بوصفها الوحدة الأساسية في اللغة، مقسمة إياها إلى مسند ومسند إليه، فإن التداولية تدخل في الاعتبار قضايا صوتية وتنغيمية؛ تجعلها تتخذ الملفوظ منطلقها الأساسي في الدراسة[1].

التداخل بين التداولية و الدلالة:

- فأما التداخل بين التداولية والدلالة فيظهر في أن كليهما يدرس المعنى، إلا أن التداولية تُعنى بالمعنى والاستعمال الوظيفي للغة؛ ومن ثمّ فهي تتناول وظيفة التواصل وهدف المنتج من كلامه، الذي يريد أن يبلغه السامع، وما يتحقق لدى المستمع؛ مستعينا بعوامل السياق والمقام الأخرى[2]. على حين تركز الدلالة على دراسة المعنى من خلال مستويات الدرس الأخرى، أو بمعنى آخر الدلالة تدرس المعنى في حد ذاته، أي بمعزل عن مواقف معينة[3].

- ومن جانب آخر تتصل التداولية بعلم النحو، وعلم الدلالة معاً، ويتمثل ذلك في أن علم النحو يهتم بدراسة الخصائص الشكلية والبناءات اللغوية، أما علم الدلالة فهو يختص بدراسة العلاقات القائمة بين الماهيات اللغوية والعالم الخارجي، والتداولية شأنها شأن علم الدلالة لا تتوانى عن الغوص في متاهات المعاني؛ لأن المعنى في بعض الصيغ اللغوية يضطرنا إلى العودة لدراسة الطريقة التي قام من خلالها المتحدث ببناء الجملة، فحينما يقوم المتحدث بلفظ جملة معينة، فإنه يحيل -شئنا أم أبينا- إلى واقع أو إلى حالة الأشياء أو الموضوعات التي يتحدث عنها، وقد لا يكون هذا الواقع ممثلاً بالضرورة في الجملة؛ ومن ثم يجب أن يُأخذ بعين الاعتبار سياق اللفظ والعناصر الداخلة في تركيب الجملة؛ لكي يتم التمكن من فهم منطوق المتحدث.

---

(١) د. محمد العناني، الأسس المعرفي لمنظومة الإبداع (مقاربة لسانية - تداولية)، التواصل اللساني، المجلد العاشر، العددان ١-٢، ٢٠٠١م، ص ٩٣، ٩٤.

(٢) د. عبد المجيد جحفة، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، المغرب، ٢٠٠٠م، ص١٠٧.

(٣) د. علي عزت، الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب، ص١٨.

فمثلاً لفظة "الآن" تدل على قرب زمن وقوع الحدث، والضمير المتصل (التاء) في (قلت) يشير إلى الشخص الذي يقوم بعملية التلفظ[1].

ويشير "فان دياك" إلى أن المستويين الشكلي (الصوري) والدلالي لا يكفيان لتحديد بنية العبارة، بل من الضروري إتمام ذلك بمستوى ثالث هو مستوى فعل الكلام. ومن ثمة تتميز ثلاثة مستويات:

١- المستوى الصرفي التركيبي (يعتني بصورة العبارة).
٢- المستوى الدلالي (يهتم بمعنى العبارة).
٣- المستوى التداولي (يتعلق بوظيفة العبارة).

غير أن "فان دياك" يمتنع عن إعطاء حل إشكالية العلاقة بين النحو والتداولية، سواء أكانت تلك الصلة على الاستقلالية المحفوظة لكل مستوى، أم نشأت عن اندراج أحدهما في الآخر[2].

ونخلص في النهاية إلى أن النحو يعني بتوضيح الشروط المحددة، والقواعد التي تضمن صياغة الأقوال الجيدة، وتهتم الدلالة بالشروط التي تجعل الأقوال مفهومة وقابلة للتفسير، بينما تُعنى التداولية بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة، وناجحة، وملائمة في الموقف التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم.

التداخل بين التداولية والأسلوبية:

أما التداخل بين التداولية والأسلوبية، فيظهر في أن التداولية لا تقف عند حدود شرح جماليات النص من خلال خواصه الفنية، ولا تقتصر على وصف الأثر الفني (كما هو الحال في الأسلوبية)، بل تتجاوز ذلك إلى الوقوف على أغراض المتكلم، وتبين مقصده من خلال المقام، كما تهتم بالإستراتيجية

(١) هربرت بركلي، مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، ترجمة قاسم مقداد، ج١، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٣٥.
(٢) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ط١، صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م، ص٣١.

الخطابية للنص الموجه بما هو قول[1]؛ ويترتب على ذلك اتفاقهما في دراسة المعنى، واختلافهما في المنهج، فالتداوليون يتناولون المعنى المقامي، وجعلوه عمدة للتفسير. على حين نجد الأسلوبيين معنيين بالمعنى اللغوي (الحرفي) فقط فإن هذا الافتراق الجوهري في تصور المعنى لا يسمح بتلاقي المنهجين إلا إذا عدّل كل منهما من منظوره إلى هذه المسألة المركزية. ويمكن للأسلوبية أن تستفيد من التداولية بتعديل نظرتها إلى العمل الأدبي، باعتباره واقعًا تحت طائلة نظرية الأفعال اللغوية؛ ومن ثمّ فالأسلوبية والتداولية كلتاهما منهج من مناهج تحليل الخطاب[2].

التداخل بين التداولية والتحويلية:

أما عن التداخل بين التداولية والتحويلية فيلاحظ في نظرة كل منهما إلى مقدرة المتكلم، فالتحويليون يرون أن مقدرة المتكلم تشمل قدرتين: (قدرة نحوية خالصة، وقدرة تداولية). أما التداوليون فيرونهما قدرة واحدة لها جانبان (النحوي، والتداولي)، وهما معًا يكوّنان المقدرة اللغوية لدى المتكلم "ثان ديك ١٩٩٧"[3]. أما اتفاقهما فنجده في أن التحويليين لم يكتفوا بوصف وتصنيف المقولات اللغوية، بل سعوا إلى دراسة تفسير هذه المقولات بما تحتويه من نسق المعارف اللغوية المكتسبة لدى المتكلم، وهو ما يعد ركيزة في التداولية[4]؛ لذلك يرى "ديل هايمز" أن القدرة التواصلية جاءت نتيجة التقاء تيارين متمايزين هما (النحو التوليدي التحويلي، وفلسفة التواصل)؛ لاشتراكهما معًا في البحث عن نوع وطبيعة الطاقات التي يتوفر عليها مستعملو اللغة الطبيعية[5].

التداخل بين التداولية ولسانيات الخطاب:

أما لسانيات الخطاب فتتداخل مع التداولية في كون كليهما يُعنى بتحليل الخطاب؛ ومن ثمّ فهما يتضمّنان عددًا من المفهومات الفلسفية واللغوية كالطريقة التي توزع بها المعلومات في جمل أو نصوص، والعناصر الإشارية Deictic

---

(١) جورج مولينيه، دراسة الأسلوب والبحث، وأدوات الفن الأدبي، ترجمة د. بسام بركة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، شتاء ١٩٩٨م، ع٩٤، ص٢٣١.

(٢) السابق نفسه، ص٢٣٥.

(٣) د. أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص٤٠.

(٤) د. حافظ إسماعيلي علوي، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، عالم الفكر، ع٢، م٣٣، أكتوبر - ديسمبر، ٢٠٠٤م، ص٢٠٠.

(٥) السابق نفسه، ص٢٠١.

والمبادئ الحوارية Conversational maxims[1].

ولذا كان من الطبيعي أن تستعين التداولية بمناهج للعلوم الإنسانية الأخرى كـ(الفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، ... إلخ)؛ وذلك يفسر التداخل بين التداولية وتلك العلوم[2].

أنواع التداوليات ودرجاتها :

ولما كانت التداولية شديدة الاتساع، متداخلة مع غيرها من العلوم؛ أدى ذلك إلى تصنيفها إلى عدة تداوليات منها:

- التداولية الاجتماعية Socio pragmatics التي تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي.
- التداولية اللغوية Linguistics pragmatics التي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية Structural.
- التداولية التطبيقية Applied pragmatics وهي تُعنى بمشكلات التواصل في المواقف المختلفة، كـ(الاستشارات الطبية، وجلسات المحاكمة).
- التداولية العامة General pragmatics، وهي التي تُعنى بدراسة الأسس التي يقوم عليها استعمال اللغة استعمالا اتصاليًا[3].

وهناك من صنف التداولية إلى :

- "تداولية صغرى" (تتجه نحو السياقات الجزئية)
- "تداولية كبرى" (تتجه نحو السياقات الاجتماعية)
- كما نتحدث عن "ما وراء التداولية" (التي تتجه نحو وعي الناس التداولي).

فالميادين المفضلة لدى التداولية هي التربية (حيث اللغة في الوقت ذاته وسيلة وموضوع) وفي علاقات المساعدة (الطبيب والمريض في علم

(١) د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة، ص١١.
(٢) السابق نفسه، ص١٠ ــ ١١.
(٣) فولفجانج هاينه من، ديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي، ط جامعة الملك سعود، ١٩٩٦م، ص٥٥ ـ ٦١، د. محمود نحلة، آفاق جديدة، ص١٥.

للنفس العلاجيّ...) الخطابات الإعلامية والمناورات (السياسة، والإشهار، ووسائل الإعلام) والخطابات العلمية[1].

أما درجات التداولية فتشمل ثلاث درجات، هي :

١ـ تداولية الدرجة الأولى: النظرية التلفظية (Enonciation)

٢ـ تداولية الدرجة الثانية: النظرية الحجاجية (Argumentatiion)[2]

٣ـ تداولية الدرجة الثالثة: نظرية الأفعال الكلامية (Actes du language)[3]، ويهتم هذا النوع من التداول باللغة بوصفها مظهرا فعليا (حدثيا)، وهو يُقسّم الملفوظات إلى قسمين :

١ـ إثباتي خبري، مثل : سافر الرجل .

٢ـ إنجازي، مثل : هل سافر الرجل ؟

وسنعرض لها في موضعها من البحث .

من مهام التداولية

تتلخص مهام التداولية في :

١ـ دراسة "استعمال اللغة"، التي لا تدرس "البنية اللغوية" ذاتها، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، من حيث كونها "كلامًا محددًا" صادرًا من "متكلم محدد"، وموجهاً إلى "مخاطب محدد" بـ " لفظ محدد"، في "مقام تواصلي محدد"؛ لتحقيق "غرض تواصلي محدد" .

٢ـ شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات .

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ص١٨٦.
(٢) ينظر للتفصيل كتاب الحجاج، ص١٠١ وما بعدها.
(٣) د. محمد الخطابي، الأصلي السرفي لمنظومة الإبداع (مقاربة لسانية ـ تداولية)، ص ٩٥ـ ١٠٠.

٣- بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر؛ وعليه، فإن بعض الدارسين يعولون على التداولية في تحقيق مجموعة من الاستفسارات تعبر عنها الأسئلة الآتية:

* كيف نصف الاستدلالات في عملية التواصل، علماً بأن الاستدلالات التداولية غير والمعوية، وربما كانت غير مقنعة في كثير من الأحيان؟
* ما هو نموذج التواصل الأمثل؟ (أهو الترميز أم الاستدلال؟)
* ما هي العلاقة بين الأنشطة الإنسانية الآتية: اللغة والتواصل والإدراك؟ وما هي العلاقة بين الفروع المعرفية المشتغلة بهذه الأنشطة (أي علم اللغة وعلم التواصل وعلم النفس المعرفي)؟[1].

أعلام التداولية:

١- تشارلز موريس (ت١٩٣٨م):

جاءت نقطة الانطلاق في التداولية على يد "موريس"١٩٣٨م، الذي صنف علم السيميائيات Semiotics إلى ثلاثة فروع: (علم التراكيب Syntax، وعلم الدلالة Semantics، وعلم التداولية Pragmatics)[2]، وتمثل الأولى علاقة العلامة بالموضوعات. وتمثل الثانية علاقة العلامة بالمؤولين. وتمثل الثالثة العلاقة الشكلية للعلامات فيما بينها، تدخل العلامات في علاقات مختلفة، حيث تشترك في البعد النحوي، وتشير وتسجل في البعد الدلالي وتعبر في البعد التداولي.

ويعتبر "موريس" بأن الشكلاني يعد كل النظام القومي للغة دون الاهتمام، فيما إذا كانت اللغة مكتوبة، وكذلك الموضوعات، أنّ التجريبي يلح على ضرورة علاقة العلامات بالموضوعات، والتداولي يرى أن اللغة نشاط تواصلي أساسي.

(١) د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص٢٦، ٢٧.
(٢) زتسيسلاف واورزنياك، مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، ترجمة د. سعيد حسن بحيري، ط مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٨٦.

ويرى "موريس" أن التداولية تعالج ظاهرة حياتية، وهي مجموعة المظاهر السيكولوجية والبيولوجية المرتبطة بعمل العلامات، ويميز بين التداولية المحضة والوصفية؛ فالأولى تحيل إلى إنجاز اللغة أو الكلام، والثانية تحيل إلى البعد التداولي. وعلى الرغم من هذا الاستقلال النسبي الملاحظ على التداول، إلا أنه ما يزال ينظر إليه بوصفه فرعًا من علم أشمل هو "علم السيمياء"، الذي يهتم بالعلامات أياً كان نوعها، ومن ضمنها اللغة، والسبب هو أنها تبدأ وتنتهي بالمكون البلاغي الذي يعد جزءًا من المكون المعرفي لدى المتكلم[1].

٢- لودفيج فيتجنشتاين (ت١٩٥١م):

أ. نشأته وثقافته ـ

ولد "فيتجنشتاين" في فيينا عام ١٨٨٩م، في أسرة يهودية نمساوية واسعة الثراء والثقافة، تخصص في هندسة الطيران، ثم درس الرياضيات، والمنطق، والفلسفة على يد "فريجة ورامسل"، بدأ بإلقاء المحاضرات في الفلسفة في جامعة كمبريدج في علم ١٩٣٠م، ثم رقي إلى مرتبة أستاذ كرسي في علم ١٩٣٩م، وقد جذبت محاضراته ثلة من الطلبة والزملاء وقام الكثير منهم بنشر أفكار "فيتجنشتاين" وطريقته إلى جمهور أوسع، والعمل الرئيس الوحيد الذي قام بنشره في أثناء حياته هو كتاب "رسالة في المنطق والفلسفة" ويمثل عصارة ما يشار إليه عادة بـ"المرحلة المبكرة" في تطوّر فكره الفلسفي. إلى أن أخرج هذا الكتاب، مثيراً ضجة معرفية استمرت وقتاً طويلاً، وبقي وقتا يتردد بين كبرى الدول بحثا عن المعرفة إلى أن توفي عام ١٩٥١م في كمبريدج، من أشهر أعماله العلمية السعي إلى بناء اللغة المثالية التي يكون بوسعها وصف الواقع المادي وصفا دقيقًا[2].

ب. أهم أفكاره ـ

(١) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط ١٩٨٦م ص ٢٢.
(٢) جون إي جوزيف، نايجل لف، تولبت جي تيلر، أعلام الفكر اللغوي، ترجمة: د.أحمد شاكر الكلابي، ط١، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ٢٠٠٦م، ص١٢٣.

١- كرّس جهوده في دراسة اللغة المثلى لوصف العالم، ثم انضم إلى فلاسفة إكسفورد بقصد دراسة اللغة الطبيعية، وتعتمد هذه الفلسفة على ثلاثة مفاهيم أساسية هي الدلالة، والقاعدة وألعاب اللغة.

أ- الدلالة:

أفاد "فيتجنشتاين" أنه لا يجب الخلط بين المعنى المحصل والمعنى المقدر؛ لأن هذا يعني الخلط بين الجملة والقول، كما حدد معنى الجملة الحقيقي الذي يمكن مشاهدته والتحقق منه في صلب الممارسة اليومية لألعاب اللغة. وتتجلى السمة الأساسية للجملة -حسب آراء "فيتجنشتاين" المبكرة- في قدرتها على نقل المعنى الذي لم نمعن النظر فيه بعد. ونستخدم العبارات التعابير (القديمة) لتوصيل معاني (جديدة). وبمعنى آخر، فإنّ البنية اللغوية بنية خلاقة؛ إذ تسمح لمستخدم اللغة ببناء الجمل المفيدة وفهمها، وإن لم يسبق له أن صادفها.

وأصبحت هذه السمة في الإبداع اللغوي -أو التوليد اللغوي- سمة مهمّة في النظرية التوليدية في اللغة التي طورها "تشومسكي"[1].

ب- القاعدة:

يرى "فيتجنشتاين" أنه يجب النظر في هذا المفهوم من حيث وجوهه الاجتماعية، والاستبدالية، والنحوية، فوجه القاعدة الاجتماعية يكمن في أنها تستدرج إلى التواضع والاصطلاح؛ أي أن استخدام الأدلة يمتثل إلى القاعدة، فإن اتباع قاعدة ما وإعطاء معلومة وأمر ولعب الشطرنج، كلها ممارسات؛ أي تقاليد ومؤسسات»[2]. ونفهم من قول "فيتجنشتاين" هذا أنه يجب على كل من يشارك في لعبة اللغة، أن يمتثل للقواعد الأساسية؛ أي الاصطلاحات الاجتماعية، كما لا يجب أن يجهل بعض القواعد غير الأساسية -القواعد الفردية- فهي نماذج ومُثُل صالحة لعدد كبير من الأحوال والمتكلمين تسمح بالتنويع النشاط اللغوي.

(١) أعلام الفكر اللغوي، ص ١٢٤، ١٢٥.
(٢) جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢م، ص ١٨، ١٩.

ج- ألعاب اللغة :

يبين الفيلسوف "فيتجنشتاين" أن الشك غير وارد في ألعاب اللغة، والأهم هو أن لا تثبت التجربة العكس فيما بعد؛ يقول: « تصور اللعبة اللغوية التالية: عندما أناديك: أدخل من الباب، ففي جميع أحوال الحياة العادية، يبدو الإقدام على الشك بأن هناك باب حقًا ضربًا من المستحيلات» .

ففي نظر "فيتجنشتاين" أن اللعبة اللغوية تشبه شكلا من أشكال الحياة، أي أنه لا توجد طريقة واحدة لاستعمال جملة ما، بل ثمة عدد لا حصر له من الطرق (الأمر، الوصف، التمثيل، الغناء، المزاح، الشكر، التحية، ...إلخ).

ويمثل مسعاه في شرح كيفية اشتغال الكلمات في التجربة وتبيان تطور الألعاب اللغوية بتطور النشاطات الاجتماعية. وهكذا، تشكل هذه الألعاب طرائق يتعلم الأطفال بواسطتها لغتهم الأم، وكيفية الاندماج في المجتمع .

يضع "فيتجنشتاين" التواصلية محل استبدال التعبيرية، مشددًا على أهمية الاستعمال قائلاً عن ذلك: «ما الذي يعطي الحياة العلامة؟ إنها تعيش خلال الاستعمال، فهل تمتلك النفس الحياة ذاتها أو أن الاستعمال هو ذاتها»[1].

ومن هنا فالأمر لا يتعلق فقط باستعمال كلمة في جملة، بل باستعمال الجمل في المواقف المحسوسة؛ أي مواقف الفعل، وهي وجهة تداولية، فليس الهدف في اللغة هو الفهم والتمثيل، بل هو ممارسة وتأثير فعلي للواحد في الآخر .

حيث يقول: « فإن لا نقول أي بدون لغة لن نتمكن فيما بيننا، والأكثر من هذا أنه بدون لغة لن نتمكن من التأثير في الآخرين بطريقة أو بأخرى»[2].

وقد كشف "فيتجنشتاين" الطابع الجوهري لتطبيق تداخل الخطابات حيث يطرح موضوع تساؤل التداولية التقليدية للتعبيرية. وتبقى ألعاب اللغة عمومية.

---

(1) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص ٢٢.
(2) المسابق نفسه، ص ٢٣.

كلية ودون تاريخية، وتظل مفاهيمها إشكالية بشكل واسع تتميز بغرابة التفاعل الشفوي في مكونات المعنى[1].

وجه الشبه بين نظرية الألعاب اللغوية عند فيتجنشتاين، ونظرية الأفعال اللغوية عند أوستن :

كلتا النظريتين تركز على ضرورة ربط وظائف اللغة بالسياقات الاجتماعية التي تشتغل فيها الألسنة. كما يجب ألا نقتصر في الفلسفة فقط على صنف الملفوظات الوصفية.

وقد ركز أوستن على أن كثيرًا من الجمل التصريحية (من قبيل أسمي "هذه الباخرة الحرية") تُستعمل في بعض السياقات النموذجية لا لوصف حالة للأشياء توجد بمعزل عن القول. ولكنها جزء أساسي لعمل ما ينجزه المتكلم[2].

٢- دور العقل في اللغة : أما في اللغة فترتبط الكلمات التي تشكل التعبير. أو الجملة ذات المعنى- بعلاقة تحديدية بعضها مع بعض. وتمثل كل كلمة من الكلمات جزءًا من الوضع القائم المصور. ويجب أن تكون العلاقات بين الكلمات في التعبير متناظرة مع العلاقات بين الأشياء التي تمثلها الكلمات في الوضع القائم المصور، بمعنى أنّ البنيتين-بنية العبارة وبنية الوضع القائم- يجب أن تمتلكا "صيغة منطقية" مشتركة. وتكون العبارة صحيحة إذا كان الوضع القائم المصوّر حاصلاً بالفعل. (العبارة صورة للواقع)، ولكي نفهم العبارة يجب أن (نعرف الحالة إذا كانت صحيحة). كما عند "أرسطو" والنحويين المتأملين. فإن العقل يمتلك دورًا شفافًا إلى حدّ ما في العلاقة التمثيلية بين اللغة والعالم، وعلى وفق أطروحات كتاب (رسالة في المنطق والفلسفة) فإن الفكرة صورة منطقية للوضع القائم، وهي الصورة التي تعبّر عنها العبارة بطريقة (يمكن للحواس أن تفهمها)[3].

٣-أهمية الفلسفة في التحليل اللغوي : ويؤكد "فيتجنشتاين" في كتابه (البحوث الفلسفية) أن المشاكل الفلسفية يسببها (التعسف) و(الأوهام) التي مصدرها اللغة : وهي بمثابة تتابع ما أسماه (الملابسات النحوية)، وبمعنى آخر، اعتقد

(١) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص٢٣، ٢٤.
(٢) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص٧٨.
(٣) أعلام الفكر الغربي، ص١٢١.

"فيتجنشتاين" أن المشاكل الفلسفية إرث لبعض الطرق، حيث نميل نحن مستعملي اللغة إلى استعمال المفردات عندما نتحدث ونكتب –وكذلك عندما نفكر- في أنواع معينة من المواضيع: وهي المواضيع ذاتها التي تمثل أعمدة الخطاب الفلسفي. ونتيجة لذلك، فإن الطريقة الفلسفية عند "فيتجنشتاين" مصممة لتعالج هذه المشاكل في منشئها باستخدام الاستراتيجيات البلاغية التي أسماها (البحوث النحوية)[1]، وقد جاءت أفكاره معالجة لهذه الموضوعات التي تجمع بين اللغة والفلسفة مثل: (العلاقة بين الجملة والفكرة التي تعبر عنها- ووظيفة التعريف المقصود- والعلاقة بين القاعدة وصياغتها في الكلمات وسلوكها على وفق تلك القاعدة- والعلاقة بين القصد المبطن والفعل الذي يؤديه- وكفاية الفهم التواصلي- والعلاقة بين الإحساس (الداخلي)، أو التجربة والسلوك (الخارجي) والتقرير اللفظي لذلك الإحساس أو تلك التجربة- وخواص العبارة (أو معنى الجملة)- ومعاني المصطلحات الذهنية- والعلاقة بين معنى الكلمة أو الجملة واستعمال تلك الكلمة أو الجملة- وتكامل اللغة والأشكال الحضارية في الحياة - ومكانة عبارات (الحس العام) ووظيفتها- وطبيعة العبارات المنطقية ووظيفتها)[2].

٣- جون أوستن (١٩١١-١٩٦٠) :

فيلسوف اللغة الانجليزي الذي يُعدُّ أبًا للتداولية، وقد عمل أستاذ الفلسفة الأخلاق بجامعة أكسفورد، وهو الذي أسس تداولية أفعال الكلام، وقد غيرت أعماله مجرى الدراسات اللسانية في العشرينيات الأخيرة من القرن الماضي. لم ينشر شيئاً في حياته، الكتاب الوحيد الذي نُشر له عنوانه (كيف نصنع الأشياء بالكلمات) وهو كتاب يضم اثنتي عشرة محاضرة ألقاها في جامعة هارفارد عام ١٩٥٥م وقد جُمِعَت هذه المحاضرات في الكتاب المذكور بعد وفاته سنة ١٩٦٠م ونُشر في عام ١٩٦٢م[3]. وسنقدم شرحاً تفصيلياً لأهم أفكاره في موضعها[4].

---

(١) أعلام الفكر اللغوي ، ص١٢٦، ١٢٧.
(٢) السابق نفسه، ص١٢٩.
(٣) قدور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، رسالة دكتوراه، كلية اللغات والأدب، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨- ٢٠٠٩م ص ٥١.
(٤) يُنظر دور أوستن في الأفعال الكلامية، ص٤١، وما بعدها.

٤- جون سيرل (١٩٣٢):

أ - التعريف به :

هو فيلسوف أمريكي معاصر[1]، يُصنف كأحد أبرز الفلاسفة المحدثين الذين ينتمون إلى تيار الفلسفة الحديثة، التي طوّرها "أوستن". كان "سيرل" يُدرّس الفلسفة في جامعة كاليفورنيا. ويطمح في مشروعه الفلسفي إلى تصحيح الكثير من المفاهيم التي سيطرت على الفلسفة في القرون الأخيرة. والقدرة على تصحيح هذه المفاهيم والخروج بالتفكير من سلطتها مفتاح الفلسفة في هذا القرن الجديد.

ومن أشهر أعمال "جون سيرل": "أفعال الكلام"، و"التعبير والمعنى"، و"القصدية"، و"العقول والأدمغة والعلم"، و"إعادة اكتشاف العقل"، و"بناء الواقع الاجتماعي"، و"لغز الشعور".

ب- أهم أفكاره :

تتميز الحقبة الزمنية المعاصرة "لسيرل" بنمو المعرفة بشكل مذهل. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها؛ ومن هنا يستنتج "سيرل" تصوره لدور الفلسفة في القرن الجديد، وتتمثل أهم أفكاره فيما يلي :

١. مفهوم القصد :

وقد اهتم "سيرل" بالقصد، ويشمل هذه الحالات الشعورية الاعتقادات والرغبات، والمقاصد والإدراكات، وكذلك ضروب الحب والمكاره، والمخاوف والآمال. فـ"القصد" إنّا هو المصطلح العام لجميع الأشكال المختلفة التي يمكن أن يتوجه بها العقل، أو يتعلق نحو الأشياء أو الحالات الفعلية في العالم[2].

٢. رأيه في معنى المتكلم :

---

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٦م، ص٥.

(٢) السابق نفسه، ص١٢٨، وينظر: مبدأ القصد، ص١٤١.

المعنى هو شكل قصدية مشتقة. والقصدية الأصيلة أو الداخلية في فكر المتكلم تتحول إلى كلمات وجمل وعلامات ورموز...إلخ. إذا ما أحسن النطق بهذه الكلمات والجمل والعلامات والرموز؛ بحيث تكون ذات معنى، فإنها تنطوي على قصدية مشتقة من أفكار المتكلم. فهي لا تنطوي على مجرد معنى لغوي تقليدي فحسب، بل على معنى يقصده المتكلم أيضاً. ويمكن للمتكلم أن يستعمل القصدية التقليدية للكلمات والجمل في اللغة لتأدية فعل كلامي. وحين يؤدي المتكلم فعلاً كلامياً، فإنه يفرض قصديته على هذه الرموز. كيف يمكن القيام بذلك بالضبط؟ قد تبين أن شروط الإشباع، بالمعنى الذي حاولت تفسيره، هي المفتاح لفهم القصدية. من هنا، فحين يقول المتكلم شيئاً ويعني أخر، فإنه يؤدي فعلاً قصدياً، ويكون إنتاجه الأصوات جزءاً من شروط إشباع هذا القصد في صنع المنطوق. ولكن حين يخلق منطوقاً ذا معنى، فهو يفرض شروط الإشباع على هذه الأصوات والعلامات. وهكذا فهو بخلقه منطوقاً ذا معنى، يفرض شروط إشباع على شروط الإشباع[1].

٣. نقده لفكرة الألعاب اللغوية عند فيتجنشتاين :

حيث يقول "سيرل" في نقده لـ"فيتجنشتاين": «لا يوجد عدد لا نهائي أو غير محدد لألعاب اللغة أو لستعمالها، إلا أن وهم الطابع غير المحدود. كما يُؤخذ عليه أنه غير تداولي أو غير حواري بما فيه الكفاية»[2].

٤. إيرفنج جوفمان (١٩٢٢- ١٩٨٢):

أ- نشأته وثقافته :

وُلد "جوفمان" في كندا في عام ١٩٢٢م، وعمل بتدريس علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، ثمّ عمل في جامعة بنسلفانيا، وهو الرائد المؤسس للدارسة الأكاديمية للتفاعل من خلال المحادثة، وهو موضوع أسماه بـ(بساطة الحديث). ومنذ ذلك الوقت فإنّ الحقل الذي تصوره "جوفمان" أول مرة- وكان

---

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص ٢٣.

أول من اقترح الاهتمام به- قد نما بشكل مستمر ليصبح واحدًا من أكثر المواضيع حيوية في النظرية اللغوية الغربية[1].

أهم أفكاره :

١- التأثر بعلم الاجتماع في الدراسة اللغوية :

اهتم "جوفمان" بعلم الاجتماع من خلال دراسة اللغة، وكان اهتمامه أكبر بكثير من مجرد الحصول على المعلومات عن الخصائص المميزة للغة ذاتها. ومنذ بدايات الفكر اللغوي الغربي، جادل المنظرون في أنه بدراسة اللغة يستطيع المرء أن يتعلم بعض المواضيع غير اللغوية، مثل العقل الإنساني، ومشيئة الله، وأصول الإنسان وتطوره، وجوهر الغيبيات، وتاريخ الأعراق، والفروق بين البشر والحيوانات. وبالطريقة نفسها، ذهب "جوفمان" أنّ للكثير من الاهتمامات التقليدية (الكلية) لعلماء الاجتماع- مثل الهرم الاجتماعي، والبنية، والسلطة، والتغيير، وما إلى ذلك- يمكن دراستها على أفضل وجه من خلال الإدراك (الجزئي) لها في التفاعلات وجهًا لوجه بين الوسطاء الاجتماعيين الأفراد، وأن معظم هذه التفاعلات هي تفاعلات لفظية[2].

٢- العناصر التواصلية المنطوقة :

اعتنى "جوفمان" بالتواصل اللفظي؛ لكونه شكلاً من أشكال التخاطب؛ أيْ كونه وسيلة لنقل المحتوى الذهني للمتكلم إلى سامعيه، وأفكاره، ومشاعره، ومواقفه، وتصوراته وما إلى ذلك. ويؤكد "جوفمان ولوك" كلاهما أن المتكلمين والسامعين يفترضون عادة أن التواصل يعمل، أيْ أنهم يفهمون ما يقول بعضهم لبعض. على أية حال، فنحن نجد أن وسائل التواصل الوحيدة التي يهتم بها "لوك" هي الكلام والكتابة، يتوسع "جوفمان" في هذه القائمة؛ لتشمل الإيماءات اليدوية، وتعابير الوجه، وطريقة الوقوف، أو الجلوس، والنظرات، ونبرة الصوت، وسمات (فوق- اللغوية) مثل الوقفات

(١) أعلام الفكر اللغوي، ص٢٢٨.
(٢) السابق نفسه، ص ٢٢٩بتصرف.

المعلومة، والصلمتة، واستجابات التغذية الراجعة، والضحك وكلمات التعجب مثل (آه) ووسائل تواصلية أخرى شائعة ولو أنها ليست لفظية[1].

٣- العناصر المكونة للمحادثة التواصلية :

إذا أخذنا في الاعتبار حاجة المتكلم ليعرف إذا تُسلمت رسالته -وإذا حصل ذلك- فُهمت بسهولة أم لا، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار حاجة المتسلم ليتيَن أنه قد استلم الرسالة وبشكل صحيح -إذا أخذنا هذه المتطلبات الأساسية للحديث كونه نظامًا تواصليًا بنظر الاعتبار- يصبح لدينا المسوّغ المنطقي الأساسي لتنظيم الحديث في حوار ذي جزئين.

إن بنية الحديث من حيث كونه نظامًا لحوار ذي جزئين، تمثل المصدر التنظيمي الذي يسمح للمتحادثين أن يقرروا فيما إذا كان ما يقولونه يُفهم بشكل صحيح لدى سامعيهم، وفيما إذا كان المعنى الذي يعزوه السامعون إلى عبارة المتكلم هو ما يقصده المتكلم، وتمنحهم هذه البنية -بمساعدة الحوارات العلاجية- الوسيلة لإصلاح حالات سوء الفهم عند اكتشافها، وتنظيم محدثات نظام المحادثة بطريقة تسهّل -ليس فقط الوصول إلى فهم مشترك، بل إلى الإدراك المتبادل للفهم المشترك[2].

٤- الأهداف الأساسية والإضافية للتواصل :

يُوضح "جوفمان" أننا يجب أن لا نفترض أنّ شخصين منهمكين في حديث، ينشغلان فقط بمهمّة نقل المحتوى الذهني لديهما أو أفكارهما من واحد لآخر، إنّ الحوار التواصلي أكثر بكثير من كونه وسيلة للتعبير عن الأفكار وفهمها، وهو كذلك صيغة من صيغ التفاعل الشخصي- لقاء بين شخصين اثنين أو أكثر. فضلاً عن ذلك، فإنّ المتحادثين يضفون قيمة عظيمة على تصوّرات الذات، وهي ما يسميه "جوفمان" (وجوههم) التي يبدونها في تفاعلهم، وإلى حدّ ما قيمة أكبر من تلك التي يضفونها على التبادل الدقيق للمعاني. على أيّة حال، فإنّ كلّ تفاعل يشكل خطرًا على إدامة اعتبار المرء. والمصادر التي يمكن

(١) أحلام الفكر اللغوي ، ص٢٢٩، ٢٤٠بتصرف.
(٢) السابق نفسه ، ص٢٥٠.

بواسطتها تجنب هذه المخاطر ـ وغالبًا ما يحصل ذلك إذا لم نقل دائمًا ـ يسمّيها "جوفمان" (محددات الطقوس)[1].

أ) محددات طقوس التواصل :

بيّن "جوفمان" بعض طقوس التواصل في هذه الطبيعة الخاصة تجد المفاهيم مصدرها مثل: احترام الآخرين، وحسن السلوك، والآداب، واللباقة، ومراعاة مشاعر الآخرين، والشرف، والكرامة، واحترام الذات، والبراعة، وغيرها. ويكرّس "جوفمان" معظم أعماله لتحليل الطرق التي تسهم من خلالها هذه المفاهيم في بناء مناسبات خاصّة للحديث. ونتيجة لذلك؛ فإن نظرية "جوفمان" عن الحديث ليست نظرية عن بنية المحادثة وحسب، بل عن بنية الذات التواصلية كذلك[2].

إنّ الإشكالية التداولية تُمَفْهِمُ (conceptualize) اللسان واستعماله عبر الأهمية، التي تعلقها بالتفاعل بين المتخاطبين في "أن من يُخبر بأمر عليه أن يحرص على ألا يعتبره الناس مجنونًا، ومن يُسلّمُ عليه أن يأمل في أن يكون تسليمه مرغوبًا فيه، ومن يعتذر، عليه أن يتوقع قبول اعتذاره، والذي يعترف بحقيقة مشاعره (...)، يأمل أن يكون محلّ ثقة، (...) والذي يقدم عرضًا غير مُغْرٍ، يتوقع ألا يستحمله الناس، (...) ومن يقول عن نفسه شرًا يتوقع أن يقول الناس عنها العكس. وتصبح الوقفة التي تلي محاورة (...) ممكنة إذن، في جزء منها؛ لأنّ المتحاورين قد وصلوا إلى نقطة يرى كل واحد منهم أنها قوية؛ ولأنهم يتمتعون بقدر محترم من ضبط النفس، ومن احترام الآخرين. (جوفمان، طرق الكلام، ص: ٢٦٣)[3]. ويلح "جوفمان" على هذا الأمر تحديدًا :

"بقدر ما يمكننا تبين أنّ القيود الناظمة هي ثقافية كلها، بقدر ما نلاحظ أن هذه الاهتمامات الطقوسية تعتمد بشكل ظاهر على اهتمامات ثقافية، حتى وإن توقعنا أن نراها تتغير من مجتمع إلى آخر تغيرًا مطلقًا. (...) إضافة إلى ذلك، فبقدر ما يلتزم المتحدثون أخلاقيًا بالمحافظة على القنوات المحادثية مفتوحة وصالحة للاستعمال، فإن كل ما يصل بين المتحادثين أخلاقيًا بالمحافظة على

---

(١) أعلام الفكر الغربي، ص٢٥١.
(٢) السابق نفسه ص٢٥٢.
(٣) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص٨٥، ٨٨.

القوانين المحادثية مفتوحة وصالحة للاستعمال، فإن كل ما يصل بين المتحادثين باسم القيود النظامية، سيصل بينهم أيضًا باسم القيود الطقوسية. وإن تلبية حاجات هذه الأخيرة (...) يحمي (...) التواصل". (طرق الكلام، ص: ٢٣، ٢٤)[1].

ب) عوائق التواصل:

يلفت "جوفمان" إلى وجود عوائق للتواصل تفرضها طبيعة الغموض وانعدام الحرفية والحذف في الحديث. كما يلفت "جوفمان" انتباهنا أيضًا إلى عوائق أخرى كثيرة، تلك التي تهدد إنجاز الحوار التواصلي الناجح، وتشمل تلك العوائق التي يكمن مصدرها في حقيقة أنّ التواصل هو تفاعل بين النفوس، وإذا أردنا أن نفهم نوع الآلية التي يستند إليها الحديث، علينا أن نفهم الأنواع المختلفة في التحديات التي يُراد من الحديث التغلب عليها[2].

هـ- رأي جوفمان في تداولية التواصل الجديد:

وأشار "جوفمان" إلى أن المقاربة التداولية تركّز نظرها على القول بما هو فعل (الأفعال اللغوية)، وعلى الفعل مع القول (الحركات والإشارات التي تصاحب الكلام، وهي الملابسات التي تحفّ بعمل القول) كما تركز أيضًا على الفعل دون القول (التصرفات والسلوكيات غير القولية). إنها في العمق نظرية السلوك البشري بوصفه تواصليًا. وعلى النقيض من لسانيات التلفظ التي كانت تطورًا مطردًا نحو الخارج بالمقارنة مع البنيوية، فإن التداولية لا تتوقف عند العلاقات التي تربط المتخاطبين بالعلامات، بل إنها تهتم خاصة (...) "بالعلاقة التي توحّد الباث والمتقبل، مادام التواصل يتخذ تلك العلاقة واسطة بينهما".

وذلك لأن "(...) حدثًا ما يظلّ غير قابل للفهم مادام حقل الملاحظة لا يتسع بما فيه الكفاية ليشمل السياق الذي نشأ فيه ما سمي حدثًا"[3].

(١) أعلام الفكر اللغوي، ص ٩٠.
(٢) السابق نفسه ص ٢٥٥.
(٣) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة ص ١١٠.

٦- أهمية منهج جوفمان في التحليل التواصلي :

فإنّ فضل "جوفمان" يتمثّل في لفت انتباه منظري اللغة إلى الثراء المتنوّع في الحديث، وكونه مجالاً للبحث، في الوقت الذي يشير فيه إلى علاقة دراسته بعلم الاجتماع، والانثربولوجيا، وعلم اللغة، وعلم النفس. وما زالت أفكاره تمثل القوّة الدافعة في دراسة التفاعل من خلال المحادثة إلى يومنا هذا.

لو أخذنا بنظر الاعتبار أنّ لديك شيئًا ما ترغب في قوله لشخص آخر بعونه، كيف تتصرّف لكي تلج إلى الظروف التي تسمح لك بفعل ذلك بشكل مناسب؟ وهنا يبدو واضحًا أنّ الفلسفة وعلم اللغة يجب أن تفسحا المجال أمام علم الاجتماع[1].

٧- أثر السياق في فهم النصوص تداوليًا

يُوضح "جوفمان" أن استعمال المتكلمين/ المخاطبين علامات لفظية وغير لفظية تربط بين ما يقال في ظرف مكاني وزماني معيّن وبين معرفتهم بالعالم هو ما يُعرف بالسياق (...)، إنّ مفهوم الوضع السياقي يجب أن يُفهم بالرجوع إلى نظرية في التأويل ترتكز على الافتراضين الأساسيين التاليين :

١. التأويل في وضعية كل ملفوظ يتعلق دائمًا بالاستدلال. ويقوم الاستدلال (...) على مقتضيات. فهو إذن تخميني وليس إخباريًا، أي أنه يقتضي محاولات تقويم (...) كما يقتضي قصد التواصل، وهو قصد لا يصدق إلا بالعلاقة مع افتراضات أساسية أخرى لا بقيمة الحقيقة المطلقة.
٢. هذه الافتراضات الأساسية هي (...) في الواقع ثمرة التعاون. وتدور هذه المؤشرات حول ثلاثة وجوه أساسًا وهي: النظم (التنغيم، الإيقاع، تداخل أدوار الكلام) واختيار السنّة من بين الممكنات المتاحة ضمن القائمة اللسانية، وهي ممكنات متغيّرة صوتيًا وصرافيًا وتركيبيًا ومعجميًا) واختيار التعابير المجازية وأعراف المحادثة (ملفوظات طقوسية، خاصة عند بدء المحادثة وختامها). إنها تثير استدلالات عبر مسار "إتمام" يتصل بوحدات الخطاب، خصوصًا عند توارد مؤشرات عديدة[2].

---

(١) أعلام الفكر اللغوي، ص٢٥٦.
(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص١٠٠، ١٠٥.

٦- مدرسة بالو ألتو :

أ- نشأتها وأهم أعلامها :

(هي اتجاه جديد في التواصل، ظهر على يد فريق بحثي اهتم بعلامات التواصل، في ضاحية من ضواحي "سان فرانسيسكو" تعرف ببالو ألتو) لقد أنتجت مدرسة "بالو ألتو" بذلك نظرية نسقية في التواصل، تصدر عنها منهجية التبدل المطبقة في شكل علاج لأمراض نفسية عائلية. وقد اكتشف "باتزن" مؤسس هذا الفريق، وهو عالم أنثروبولوجي إنجليزي (١٩٠٤- ١٩٨٠)، المقاربة النسقية لدى خبراء السيبارنيطيقا (cyberneticiens)، [السيبارنيطيقا هي دراسة أنساق التحكم والتواصل ولاسيما الأنظمة الاصطناعية المعلوماتية، الروبوتية (الرجال الآليون)....] سنة ١٩٤٢م .

وبتطبيقه هذه المنهجية على العلوم الاجتماعية، يكون قد طور نظرية التواصل ثالثة نحو علم نفس المجموعة .

إثر باتزن، أصبح "بول فاتسلافيك" (Paul Watzlawick) أبرز ممثل لمدرسة بالو ألتو. وهو نمساوي وُلد سنة ١٩٢١، فيلسوف لغوي تلقى تعليمه في إيطاليا، وتخصص في التحليل النفسي في ألمانيا، والتحق ببالو ألتو سنة ١٩٦٠[١].

ب- أهم أفكارها :

١. ترى "بالو ألتو" أن العلاقات البشرية هي نسق يشمل الأفراد متفاعلين عبر تصرفاتهم (والأفعال اللغوية هي تصرّفات ضمن تصرّفات أخرى). ومحيط النسق هو سياق التفاعل (اللفظي أو غير اللفظي). هكذا تعرف مدرسة بالو ألتو بعض المبادئ المميّزة "للنسق المفتوح" (على محيطه). الذي تشكله التفاعلات البشرية .

٢. مبدأ الكلية: المجموعة البشرية ليست جمعًا بين أفراد معزولين، بل ثمة حركية خاصة. ونقف هنا على مبدأ في العلوم الاجتماعية: "الكل هو

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة ، ص١٠٦، ١٠٧.

أكثر من حاصل الجمع بين الأجزاء". فالكلية (التفاعل) هي التي تسمح بتفسير تصرفات عناصرها (الأفراد وأقوالهم) لا العكس.

٣. مبدأ التغذية الراجعة (feed- back): العلاقة بين السبب والنتيجة ليست موحّدة الاتجاه، ولكنها دائرية. فما يهمّ هي العلاقة المتبادلة بالضرورة، الموجودة بين الأفراد، وليس عملا معزولا بوصفه أسًّا لإجابة معينة (مبدأ التشارك التلفظي). ويمكن أن تكون التغذية الراجعة إيجابية (تشدّد على الظاهرة) أو سلبية (تخفف الظاهرة). ههنا نقف على مفهوم "دور الكلام" "لجوفمان" (E. Goffman)[1].

٤. مبدأ المماثلة: يحاول كل نسق المحافظة على هويته وتوازنه وثباته. مبدأ الديمومة هذا يصحبه بالضرورة مبدأ التوافق مع المحيط وإلا حدثت الديمومة بفعل تغيرات المحيط فكل نسق تتجاذبه المحافظة والتحوّل (هذا المبدأ يوافق مبدأ التعاون المحادثي).

٥. مبدأ التوازن الغائي: توجد غائية النسق أساسًا في اشتغاله الحالي (الآني)، لا في أصوله التاريخية (الزمانية). فالنسق يوفر تفسيره الخاص. فلكي يفهم ينبغي إذن تحليل التفاعلات الحالية لا تحليل أصولها (أي تحليل الآثار التداولية والدلالة في السياق لا تحليل المعنى الحرفي الكامن). وقد تصل مصادر مختلفة إلى النتيجة ذاتها والحال أن النتيجة "الآن وهنا" هي التي تهمّ.

والمسلمة الأوّلية عند مدرسة بالو ألتو أنه من المستحيل عدم التواصل. كلّ سلوك بشري هو تواصل وإنه من المتعذر أن نعدم سلوكًا ما (فحتى عدم السكون والصمت لهما دلالات). فكل رسالة إذن لها بعد ضمني[2].

ج- أهم المفاهيم التي تعتمد عليها مدرسة بالو ألتو في التداولية:

إن المفاهيم المفاتيح لتحليل التواصل البشريّ (اللفظي، والإشاري، والسلوكي) التي تقترحها مدرسة بالو ألتو هي التالية:

١. للرسالة دائمًا مستويان للمعنى، "المحتوى" (المعنى الحرفي) و"العلاقة" (الدلالة التداولية) ومستوى "العلاقة" أهم من مستوى "المحتوى".

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص١٠٨.

(٢) السابق نفسه ص١٠٩.

٢. تشتغل الرسائل (الخطابات) وفق شفرة "رقمية" (علامات اعتباطية) أو وفق شفرة "تماثلية" (علامات مبررة، كتعبيس الوجه وتقطيبه لمتعاطنا واستياء) ويصل منظرو بالو ألتو بشكل مجمل -وقابل للنقاش- بين العلامات الرقمية ودقة اللغة العلمية، كما يجمعون بين العلامات التماثلية والنزعة الانطباعية العاطفية. فإذا تناقض صنفان من العلامات (الأقوال والإشارات مثلا)، فإننا نكون إزاء حالة "قيد مضاعف" يشوش التواصل. وكذلك الأمر عندما تنتج العلامات الرقمية المعتبرة منطقية، تنتج ملفوظا متناقضا [نحو "كن عفويًا" أو "افعل ما بدا لك، بيد أنك إن قلت لا، أغضبتني"]، فإن التواصل يشوش أيضًا. ومن المفيد أن نذكر بأن التناقض المنطقي إشكال فلسفي قديم، وأن نلاحظ أنه يجد فيها بعدًا مألوفًا (حسب مدرسة بالو ألتو، مثل تلك التشويشات المتكررة، يمكن أن تحدث أمراضا خطيرة كالفصام.

٣. يكون اللولب اللانهائي للتواصل محل "تقطيع" يقوم به المتخاطبون، بالمعنى الذي استعمله اللساني "ب. وورف" (B. Whorf) للفظ التقطيع، أي أنّ جملة التواصل تقسّم إلى مقاطع كبرى يقع تأويلها. وبذلك لكل مخاطب يُقسِّم الفيض الإجمالي بشكل شخصي، وحسب وجهة نظره. وتتأتى الالتباسات غالبًا من التقطيعات غير المتطابقة، ومن عدم اعتبار المتخاطبين التواصل تقاولا[1] هم مسؤولون عنه معًا.

٤. إن "ما وراء التواصل" أو الكلام على الكلام ظاهرة أساسية متأتية من الإمكانية التي يوفرها اللسان بالحديث عن ذاته (وهي الظاهرة المسماة "الانعكاسية"). إنه بفضل ما وراء التواصل يمكن للمتخاطبين تحديد تعديلاتهم في تأويل الرسائل، وتصحيحهم لتلك التعديلات. ويشكل ما وراء التواصل عند بالو ألتو المحرك الأساسي للتواصل "المقبول"[2].

---

(١) جاء في نهاية الأرب للنويري: "ثم تناول الأشتر وجرير مكاولة أدت إلى مقاولة جرير لعلي ولمعاوية"، فالتقاول هو حدث قولي يكون مشروطا بحصول أثر ذلك القول، صابر الحباشة في ترجمته التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص١١٢.

(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ت. صابر الحباشة، ص١١٠-١١٢.

وظيفة التداولية :

١. تهتم النظرية التداولية بالدور الذي يقوم به المتخاطبون في العالم الاجتماعي. فهؤلاء المتخاطبون لا يتفاعلون فيما بينهم بواسطة اللغة فحسب، بل إنهم يقبلون ذلك التفاعل ويتحاورون عليها[1].

٢. كما أن التداولية تقوم بإزالة الغموض عن عناصر التواصل اللغوي، وشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات. وهذه القضايا ليست من اهتمامات اللسانية الصريحة، بل هي تشبه أن تكون مرحلة وسيطة بين المعارف اللغوية والمعارف الموسوعية.

٣. "دراسة استعمال اللغة" عوضًا عن "دراسة اللغة". فاللسانيات، كما هو معلوم، تتفرّغ للدراسة الشكلية، أي لدراسة المستويات الصوتية، والتركيبية، والدلالية، فقد تحولت مع البنيويين إلى علم تجريدي مغلق ذي إجراءات داخلية خالصة، يؤمن بكيانيّة البنية اللغوية في مستواها الصوري المجرد، في أن دراسة استعمال اللغة لا تنحصر ضمن الكينونة اللغوية بمعناها البنيوي الضيق، وإنما تتجاوزها إلى أحوال الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة طبقًا لأغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين.

٤. دراسة الآليات المعرفية (المركزية) التي هي أصل معالجة الملفوظات وفهمها، فالتداولية تقوم روابط وشيجة بين اللغة والإدراك عن طريق بعض المباحث في علم النفس المعرفي.

٥. دراسة الوجوه الاستدلالية للتواصل الشفوي، فتقوم من ثمّ روابط وشيجة بين علمَيْ اللغة والتواصل[2].

٦. تعليم اللغة الأم: وقد بين "ريان جونز" (Rhian Jones) في دراسته "بعض الحوارات بين المعلم والتلاميذ" أنّ تصرّف المعلم اللغوي الذي يكون قليل المضمنيات ولا يتسم بالصبغة التحكّمية. بل يكون سلوكيًا ينقل ملفوظات التلاميذ غالبًا مكان فرض ملفوظه عليهم، مثل هذا التصرّف اللغوي للمعلم

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص٤٨.
(٢) د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص٢٨.

يؤدي إلى سلوك خطابي وعرفاني ناشط من قِبَل التلاميذ، ويكون ذلك السلوك محتويًا على نسبة عالية من الملفوظات الحجاجية، ومن عرض الأفكار، ومن شرح للتواصل، ومن استدلالات. وبالعكس، فإنّ التلاميذ يواجهون خطاب المعلم الذي لا يحتوي كثيرًا من الضمنيات ويكون خطابًا حُكميًّا، يواجهون ذلك بسلوك أقلّ نشاطًا على المستوى الخطابي والمعرفيّ (ملفوظات قائمة على الحذف، قليلة الحجج أو منعدمتُها، قليلة الاستدلالات/ الخ)[1].

٧. تعليم اللغة الأجنبية: وفي ما يتصل بتعليم اللغات المسماة "أجنبية" واكتسابها، يمدّنا علم المواضع السياقي بتوضيح للظواهر الموجودة بين الثقافات والمواضعات الاجتماعية، والتسبيب للتداخلات (التي ليست بالضرورة "أخطاء")، وهذا يؤدي بالتوازي مع ذلك إلى تصور جديد للترجمة: إن قابلية الترجمة أمرٌ تُنشِئه المعايير "الخارجية" التي بينت التداولية أهميتها في إنتاج الدلالة[2].

٨. فهم النصوص الأدبية: ويذكر "أوستن" الرواية والمطالعة العمومية. مثل هذا التعريف الذي قدّمه "أوستن" فتح مسلكًا لـ"سيرل" الذي أخذه عنه وعمّقه. وهو تعريف يقوم على جعل تحديد المواضعات اللاقولية الاعتيادية للنص الخيالي تحديدًا مُعلّقًا تعليقًا جزئيًا. والواقع أنّ "سيرل" يخصص لهذا المشكل فصلاً في كتابه (المعنى والعبارة) فيقول: «إن للكاتب ينشئ شخصيات وأحداثًا خيالية بإخفائه الإحالة إلى أناس وقصّ أحداث جرت لهم. وفي خيال النزعة الواقعية أو الطبيعية [في السرد الروائي] يعمد الكاتب إلى الإحالة إلى أماكن وظواهر واقعية مازجًا تلك الإحالات بما هو من قبيل الخيال [...]. ويقوم المؤلف جملة من التعاقدات مع القارئ تحدّد إلى أي مدى تقطع مواضعاتُ الخيال الأفقية مع ترابطات الخطاب الجاد العمودية. [...] أمّا ما يتعلق بمقبوليته، فتعود أساسًا إلى

---

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص١٨٧.
(٢) السابق نفسه، ص١٩٢.

انسجامه [...]. إنّ ما يُعدّ انسجامًا يعود في جزء منه إلى العقد الحاصل بين الكاتب والقارئ في ما يتعلق بالمواضعات الأفقية»[1].

٩. يهتم التحليل الأدبي في إطار علم المواضع السياقي بالعناصر الإشارية والروابط وحالات التبادل السُّنّيّ والتصرّفات في الإحالة الداخلية (داخل النص) والخارجية (خارج النص) والمشتركة[2].

١٠. قد اهتم النص المسرحي باستثمار التداوليين والذي يُظهر أنّ التحليل التداولي له مفيد. ويتسم النص المسرحي في الواقع بتلفظ مزدوج ومتزامن:

الكاتب يتوجه إلى الجمهور بواسطة نصّه، الشخصيات تتوجه إلى بعضها بعضًا باستخدام النصّ. فضلاً عن ذلك، تتوجه الشخصيات إلى الجمهور بطريقة غير مباشرة (ويمكن أن يتوجهوا إليه بشكل مباشر)... ويقوم الضمنيّ بدور أساسي في المسرح. ففي قاعة العرض يُفترض في المتفرج أنه يُعيد بناء هويات الشخصيات، وعلاقات بعضها ببعض، مستندًا في الاستدلال عليها على عدد قليل من القرائن المبثوثة، وعلى عدد من المعطيات الخلفيّة، وكثيرًا ما تكون معرفة المتفرّج أكبر من معرفة بعض الشخصيات: فالضمنيّ يضطلع بدور مُضاد لما هو معهود في طبيعة الأشياء[3].

---

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص ١٩٢. ١٩٤.
(٢) السابق نفسه، ص١٢٥.
(٣) السابق نفسه، ص١٩٦.

الفصل الثاني

الأفعال الكلاميـة

الأفعال الكلامية (speech acts) :

هي أقوال تؤدى بها أفعال فيها يمكن للمرء أن يُنجز أفعالاً بواسطة اللغة، نحو أزوجك ابنتي ؛ فبمجرد التلفظ بالقول تصير الإبنة زوجة ؛ ومن ثم يحدث فعل كلامي[1].

دور "أوستن" في نظرية الأفعال الكلامية[2] :

(١) عمد "أوستن" إلى تقسيم المنطوقات إلى قسمين :

أ- إخبارية (تقريرية) constative: وهي أفعال تصف حقائق العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة، نحو قولهم: (السماء تمطر) فهي تنقل معلومة إلى المتلقي أو تقرر واقعًا، وتوصف بالصدق إذا كان المطر حادثًا، كما توصف بالكذب إذا كان المطر غير حادث[3].

ب- إنشائية (أدائية) performative: تؤدى بها أفعال في ظروف ملائمة، ولا توصف بصدق ولا كذب، بل تكون ناجحة أو غير ناجحة، طبقًا لمعيار المواءمة والمخالفة، وكون المتكلم مؤهلاً للقيام بالفعل[4]، نحو قولهم: (أوصي بساعتي لأخي) فهذا المنطوق لا يؤدي إلى قول فحسب، بل يؤدي إلى وقوع فعل هو الوصية، ويدخل فيها (التسمية، والاعتذار، والرهان، والنصح، والوعد)[5]. إلا أن "أوستن" رأى أن هذا التقسيم ليس حاسمًا

(١) باتريك شارودو، ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، مراجعة صلاح الدين الشريف، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨م، ص٢٠ بتصرف.

(٢) لم يكن أوستن أول من التفت إلى الأفعال الكلامية وإنما سبقه فيرث فهما متفقان في أن اللغة شكل من أشكال النشاط فلفيرث يرى أنك عندما تقول شيئا ما فإنك تفعل شيئا بحيث مركزًا على دراسة القول أما أوستن فقد ركز على دراسة الإنجاز، ينظر أعلام الفكر اللغوي، ص ١٤٩.

(٣) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص:٧٩ ، ٨٠.

(٤) د. صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ط دار التنوير، بيروت، ١٩٩٣م ص١٥٣-١٥٥.

(٥) د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٤٣، ٤٤.

للتداخل بين المنطوقات الإخبارية، والأدائية، وبعد ممارسة عدة معايير للفصل بين المنطوقين لاحظ "أوستن" أن هناك منطوقات تكون بين بين، أي تحتمل التقريرية والأدائية طبقًا لملابسات الموقف، والقرائن المحيطة به؛ فإذا قيل مثلا (الثور على وشك الهجوم) احتمل التقرير إنْ كان المتكلم يصف مشهدًا، ويحتمل أن يكون تحذيرًا أو تنبيهًا[1].

ج- ثم قسَّم "أوستن" الأدائيات إلى (أدائيات أولية، أو ضمنية)، وهي التي لا تحتوي على أفعال أدائية، نحو: (سأزورك غدًا)، فهو يحتمل الوعد والإخبار. و(أدائيات ثانوية أو صريحة)، وهي التي تشتمل على فعل أدائي في صيغة المضارع المبني للمعلوم المسند إلى المفرد المتكلم[2] نحو (أعدك أن أزورك غدًا)، ولكنها ليست شرطًا ضروريًا ولا شرطًا كافيًا للإنشائيات الصريحة. فمن جهة نجد إنشائيات صريحة من قبيل: "يُرجى من المسافرين استعمال النفق لتغيير المحطة"، حيث إن الفعل الإنشائي مبني للمجهول. وهذه، في الغالب، حالة الطلبات والأوامر التي تضعها سلطة غير شخصية أو جماعية. ومن جهة أخرى نجد أفعالا إنشائية مثل "وعد" يُستعمل في المضارع مع فاعل مسند إلى ضمير المتكلم في أقوال تقريرية. إذ في بعض الأحوال، أعد بأن أكون هنا، يمكن أن يُفهم بوصفه إخبارًا[3]، ومن ثم عدل "أوستن" عن نظرية المنطوقات الأدائية إلى ما اشتهر عنه فيما بعد بنظرية الأفعال الكلامية.

(٢) تدور نظرية الأفعال الكلامية حول كيفية أداء الأفعال بالأقوال. فرأى "أوستن" أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال[4]:

---

(١) وقد عالج علماء العربية هذه الموازنة فيما عرف بنظرية الخبر والإنشاء، واضعين معايير شكلية ودلالية للتمييز بينهما موضحين أن الإنشاء ينقسم إلى طلبي وغير طلبي. ينظر د.محمد حسن عبد العزيز، مبحث كيف تنجز الأشياء بالكلمات؟ د. دار العلوم، ع١٩، ١٩٩٦م، ص١١، ١٢ وطالب هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت ١٩٩٤م، ص١٢ وما بعدها.

(٢) د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٦٧، د. محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ط الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ٢٠٠٥م، ص٢٨٤.

(٣) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص ٧٨، ٧٩.

(٤) السابق نفسه ص٨٠.

أ- الفعل اللفظي Locutionary Act:

وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

ب- الفعل الإنجازي Illocutionary Act:

وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي. أو يُعنى به محاولة المتحدث إنجاز غرض تواصلي معين.

ج- الفعل التأثيري Per Locutionary Act:

ويُقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع. ومن ذلك قوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) (يوسف/ ٢٩)؛ فنرى الفعل اللفظي في الفعل الصوتي، وفي فعل التلفظ بمفردات تنتمي إلى معجم بعينه، وتخضع لقواعد بعينها في اللغة، وفي فعل استعمال تلك المفردات والقواعد لإبلاغ معنى ينتج عن المفهوم Sense والمرجع Reference في آن معًا. أما الفعل الإنجازي، فهو: أمرني (أو نصحني أو نحو ذلك) أن أعرض عن هذا. وأما الفعل التأثيري، فهو ما ينتج عن الفعل الإنجازي من إقناع المخاطب بأن يعرض؛ أي: أقنعني- مثلا- بأن أعرض عن هذا[1]. وقد فطن "أوستن" إلى أن الفعل اللفظي لا ينعقد الكلام إلا به، والفعل التأثيري لا يلازم الأفعال جميعًا، فمنها ما لا تأثير له في السامع؛ ومن ثم وجه اهتمامه إلى الفعل الإنجازي illocutionary act؛ حتى غدا لب هذه النظرية؛ فأصبحت تُعرف به أيضًا[2]؛ مشترطا لأدائها أداءً صحيحًا اتفاقها مع العرف، ومقصد المتكلم، بالإضافة إلى مراعاة شروط أدائها، وكون المتكلم مؤهَلا لذلك. فعند قول (المنزل يحترق) بمعنى وإحالية ما، فإن ذلك يعد قولا تعبيريًا. ويمكن أن نستخدم الكلمات نفسها لأداء أفعال كلامية تعبيرية عديدة: على سبيل المثال، لتحذير شخص ما، وحثه على أن يغادر المبنى أو

---

(١) د. محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص٢٨٢ بتصرف.
(٢) د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة، ص ٤٥-٤٦.

لاستعراض مهارتي في مجال إشعال الحرائق لتدمير ممتلكات الغير. فإقناع شخص ما بأن يقفز من النافذة، أو أن يقوم بتدمير مبنى ما حرقًا تشكل أفعالاً غائية، وهي التي – دونما أدنى اعتبار لمقاصدي- يمكن أن تنتج أو لا تنتج عن الأفعال الكلامية التمريرية أو الاستعراضية الإنشائية[1].

(٣) وطبقًا لمعيار القوة الإنجازية الذي خلط "أوستن" بينه وبين الغرض الإنجازي، فقد قسم الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف :

أ- أفعال الأحكام Verdictives.ب- أفعال القرارات Exercitives.

ج- أفعال التعهد Commissives.د- أفعال السلوك Behavitives.

هـ- أفعال الإيضاح Expositives[2].

وبالرغم من هذا التصنيف الذي يبدو في ظاهره محكمًا، إلا أنه في الحقيقة يوجد به كثيرٌ من جوانب النقص التي وقف عليها "أوستن" نفسه؛ للتداخل الواقع بين الأصناف بعضها مع بعض، وخلطه الواضح بين مفهوم الفعل قسمًا من أقسام الكلام (Verb) والفعل حدثًا اتصاليًا (Act)، لكنه يرجع له الفضل في توضيح بعض المفهومات المركزية في النظرية، ومن أهمها تمييزه بين محاولة أداء الفعل الإنجازي والنجاح في أداء هذا الفعل، وتمييزه بين ما تعنيه الجملة وما لا يعنيه المتكلم بنطقها، وتمييزه بين الصريح من الأفعال الأدائية والأوّلي منها، فضلاً عن تحديده للفعل الإنجازي الذي يعد مفهومًا محوريًا في هذه النظرية[3].

---

(١) بيتر رابينوفتز، بحث نظرية فعل الكلام والدراسات الأدبية، ترجمة محمد السعيد القن، منشور ضمن كتاب من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، إشراف د. جابر عصفور، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٥١٦.

(٢) ينظر تفصيل ذلك: آفاق جديدة، ص٦٩-٧٠، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص٢٢٢-٢٢٤، ود. محمد حسن عبد العزيز، مبحث كيف تنجز الأشياء بالكلمات؟، مجلة كلية دار العلوم، ع١٨، ١٩٩٦م، ص ٩٢-٩٤.

(٣) آفاق جديدة، ص٧٠-٧١.

(٤) شروط نجاح الأفعال الكلامية عند "أوستن":

ما انفك "أوستن" يلح على أن الأفعال الكلامية هي أفعال عرفية في صورة أساسية[١]، وبمعنى آخر، هو الفعل المؤدى وفقًا لعرف معين؛ فالأفعال (يعد، ويورث، ويراهن) تستلزم من بين شروطها التكوينية أعرافًا من هذا النوع؛ أي الأعراف التي تحدد ممارسة الوعد، والرهان، وما شابه ذلك. هذا من جانب، ومن جانب آخر عُدّت قوة الفعل الغرضي مرتبطة أيضًا بالعرف في كثير من الحالات؛ لأن أنواعًا كثيرة جدًا من المعاملة الإنسانية تتضمن كلامًا محكومًا ومكونًا عن طريق ما يمكن إدراكه بيسر على أنه أعراف رسمية، بالإضافة إلى الأعراف التي تحكم معاني منطوقاتنا. فمثلاً إذا قال الحكم في المباراة للاعب (أخرج)، فإنه يؤدي بذلك فعل إخراج اللاعب، ولا يستطيع اللاعب أو المشاهد أن يصيح (أخرج)[٢]. وكذلك لو قال رجل مسلم لزوجته (أنتِ طالق)، فإن الملفوظ سيعد ناجحًا بداهة، وإذا قال أحدهم لغير زوجته (أنتِ طالق)، فالملفوظ فاشل بداهة. وكذلك إذا قال أحدهم للآخر: (بعتُك كذا)، فإن الملفوظ سيكون ناجحًا إذا كان المتلفظ يملك فعلاً ذلك الذي جرى الكلام فيه، وسيكون فاشلاً إذا لم يكن كذلك. ومثله إذا قال أحدهم للآخر: (اذهب إلى المكان كذا وجئني منه بكذا) فإن الملفوظ سيكون ناجحًا إذا كان الآمر أعلى درجة من المأمور، وفي حالة العكس فإن مآله سيكون الفشل[٣]؛ ومن ثم حاول أتباع "أوستن" التفريق بين نوعين من الأفعال الغرضية، أحدهما يُعد عرفيًا، والآخر غير عرفي. كما حاولوا التمييز بين أفعال غرضية تخضع لأعراف لغوية، وأخرى تخضع لأعراف غير لغوية (اجتماعية)، ويحدد أوستن ستة شروط أساسية للجملة الإخبارية الموفقة، فيجب أن يتوفر فيها ما يلي:

- أن تكون ذات إجراء مألوف وله تأثير محدد.

- أن تكون الأشخاص والملابسات ملائمة.

- إنجاز الإجراء بشكل سليم.

---

(١) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص ٨٨.
(٢) التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص١٩٩.
(٣) د. محمد العناني، مبحث الأساس المعرفي لمنظومة الإبداع (مقاربة لسانيات تداولية)، ص٩٢.

- إنجاز الإجراء بالكامل.

- إذا تم تصميم الإجراء ليستخدمه أشخاص ذوي أفكار أو مشاعر بعينها، فيجب على المشاركين أن تتوفر لديهم الأفكار أو المشاعر نفسها، كما أن على جميع الأطراف أن يسلكوا في المستقبل بشكل مناسب[1].

- والواقع أنّ عمل الإخبار يقتضي مثلا أن يكون المتكلم عارفا جيّدًا بما يتحدث فيه، وأن يكون نزيهًا وأن يُعرَف عنه ذلك في منصبه الاجتماعيّ أو المؤسساتيّ، وهذه شروط نجاح الفعل (الكلامي)[2]، وفي حالة عدم توفر أي من هذه الشروط فإن عدم التوفيق في الكلام يحدث بأشكال مختلفة.

(٥) أهمية الأفعال الكلامية عند أوستن :

ترى هذه النظرية أن كل ملفوظ خبري يتضمن فعلاً إنجازيًا، نقول مثلا : الجبل حجر .. يمكن تحويلها إلى ملفوظ إنجازي بإضافة بعض المكونات الخطابية الكلامية، مثل : أقول الجبل حجر .. وبما أن "أقول" فعل إنجازي، فإنه ينقل الجملة من الخبر إلى الإنجاز، ويتحدد نوع الملفوظ من خلال الفعل الذي يظهر فيه على الشكل التالي :

١ - أفعال إخبارية، مثل: كتب/ قرأ .

٢ - أفعال إنجازية، مثل: أقول / أرفض / أقبل .

(٦) ملامح الأفعال الكلامية عند القدماء :

مفهوم الفارابي :

كان "الفارابي" في القرن العاشر الميلادي (ت ٣٣٩ هـ/٩٥١ م) - وهو بصدد تقسيم أنواع المخاطبات- قد صنف العبارات الكلامية الصادرة عن الإنسان إلى صنفين كبيرين هما: "عبارات القول" و"عبارات الفعل"، وقد ابتدأ

---

(١) جاك رابينوفيتز، بحث نظرية أفعال الكلام والدراسات الأدبية، ترجمة محمد السيد علي، ص ٥١٦.
(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص٧٩ ، ٨٠.

مما ابتدأ منه الفيلسوف "أوستن" من اعتبار (المخاطبات) نوعين: أقوالاً وأفعالاً تتم بالأقوال"[1].

الأولى تتم بمجرد تحريك الشفتين للتواصل مع الآخر والتعبير عما في النفس، والثانية يراد بها، إضافة إلى ذلك، حمل المخاطب على فعل شيء ما؛ يصرح الفارابي قائلا:"... و القول الذي يقتضي به شيء ما، فهو يُقتضى به إما قول ما، وإما فعل شيء ما. والذي يقتضي به فعل شيء ما فمنه نداء، ومنه تضرع، وطلبة، وإذن، ومنع، ومنه حث، وكف، وأمر، ونهي"[2]، ولا يفوته أن يبين أن"النطق بالقول هو فعل ما"[3]، ومن الطريف أن "الفارابي" يلتفت، منذ ذلك العصر المبكر، إلى مفهوم"الملفوظ الإنجازي" الذي يتحدث عنه "أوستن وسيرل" في عصرنا، والذي كثيرًا ما يقدم على أنه اكتشاف حديث في كل من الفلسفة التحليلية، والأبحاث التداولية المعاصرة. ويُعبر "الفارابي" عنه بلفظ :"القوة" الذي هو من مقولات التداولية المعاصرة، ويقرر في وضوح أن "قوة أحد أنواع القول (ويقصد النداء تحديدا)، قوة السؤال عن الشيء"[4]"، أي أن "القوة الإنجازية" المحتواة في"فعل النداء" هي نفسها المحتواة في "فعل الاستفهام". وهذا النوع من الكلام يقتضي جواباً عند "الفارابي"، مثلما رأى "أوستن" أن من الأفعال الكلامية نوعاً ثالثاً أسماه: "الفعل الناتج عن القول"، أو "الفعل التأثيري"[5] وقد ربط "الفارابي" ذلك بأن لكل قوة كلامية جواباً معيناً، فـ"كل مخاطبة يقتضي بها شيء ما فلها جواب، النداء إقبال أو إعراض، وجواب التضرع والطلبة بذل أو منع، وجواب الأمر والنهي وما شاكله طاعة، أو معصية وجواب الشيء إيجاب أو سلب .."[6].

دور "سيرل" في نظرية الأفعال الكلامية :

بالرغم من أهمية المفهومات التي حددها "أوستن"، إلا أن نظريته في الأفعال الكلامية اعتراها كثير من عوامل النقص والاضطراب؛ مما دفع

(1) أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، حققه وقدم له: محسن مهدي، ط2، بيروت، دار المشرق ، 1990م، ص162.
(2) السابق نفسه ص162.
(3) التداولية عند العلماء العرب، ص87.
(4) الفارابي، كتاب الحروف، ص162.
(5) د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص88.
(6) الفارابي، كتاب الحروف، ص162، 164.

"سيرل" في كتابه (ما الفعل الكلامي؟) (What is speech act) إلى إعادة النظر في تصنيف الأفعال الغرضية عند "أوستن"؛ ولاسيما أنه لاحظ أن هناك عدة صعوبات متعلقة بهذا التصنيف، منها: التداخل الواضح بين بعض فئات الأفعال، وأن كثيرًا من الأفعال المدرجة في فئات لا تفي بشروط التعريف المعطى للفئة، وعدم وجود مبدأ متين يقوم على أساسه التصنيف، هذا بالإضافة إلى أن كثيرًا من الأفعال التي وسمها "أوستن" بالأفعال الغرضية ليست غرضية[1]؛ ومن ثم حاول "سيرل" تعديل أو معالجة هذه الاعتراضات من خلال عدة آراء له انطلق فيها من رأي "أوستن"، وتتمثل في :

(١) قدّم "سيرل" تصنيفًا بديلاً لما قدمه "أوستن" من تصنيف للأفعال الكلامية يقوم على شروط وهي :

أ-المحتوى القضوي : وذلك بأن يكون للكلام معنى قضوي من خلال قضية تقوم على مرجع مُتحدَّث عنه أو متحدث به ، ويكون المحتوى القضوي هو المعنى الأصلي للقضية.

ب-الشرط التمهيدي : ويتحقق إذا كان المتكلم قادرًا ولو بوجه من الوجوه على إنجاز الفعل .

ج- شرط الإخلاص : ويتحقق حينما يكون المتكلم مخلصًا في أداء الفعل .

د- الشرط الأساسي : ويتحقق حين يؤثر المتكلم في السامع [2].

(٢) وقد صنف سيرل الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف أيضًا مع إجراء بعض التعديلات :

أ- **الأفعال الإثباتية** : ويُعلى بها التعهد للمستمع بحقيقة الخبر. فهي أن تقدم الخبر بوصفه تمثيلاً لحالة موجودة في العالم. ومن أمثلتها الأحكام التقريرية، والأوصاف الطبية، والتصنيفات، والتفسيرات. وتنطوي جميع الإثباتيات على اتجاه ملاءمة من الكلمة إلى العالم، وشرط الصدق في الإثباتيات هو دائمًا الاعتقاد. فكل إثبات هو تعبير عن اعتقاد. وأبسط اختبار لتحديد هوية الإثبات هو أن نسأل ما إذا كان المنطوق صادقًا أو

(١) ينظر تفصيل هذه الاعتراضات: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص٢٢٩- ٢٣٢.
(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة: صابر الحباشة ص٦٣: ٦٥، د. أنور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، ص٦٨.

كاذباً بالمعنى الحرفي. ولأن للإثباتيات اتجاه ملاءمة من الكلمة إلى العالم، فهي يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة[1].

ب- **الأفعال التوجيهية** : هي محاولة جعل المستمع يتصرف بطريقة تجعل تصرفه متلائماً مع المحتوى الخبري للتوجيه. وتتوفر النماذج للتوجيهيات في الأوامر، والنواهي، والطلبات. واتجاه الملاءمة وهو دائماً من العالم إلى الكلمة، وشرط الصدق النفسي المعبر عنه هو دائماً الرغبة. كل توجيه هو تعبير عن رغبة بأن يقوم المستمع بالفعل الموجه به. والتوجيهيات من طراز الأوامر والطلبات لا يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة، لكن يمكن أن تُطاع أو تُهمَل، أو يُخضع لها أو تُستنكر ..إلخ.

ج- **الأفعال الإلزامية** : وكل إلزامي هو تعهد من المتكلم لمباشرة مساق الفعل الممثل في المحتوى الخبري. وتتوفر نماذج للإلزاميات في المواعيد، والنذور، والرهون، والعقود، والضمانات. والتهديد إلزامي أيضاً. ولكنه بخلاف بقية النماذج، ضد مصلحة المستمع ولا يعود عليه بالنفع. واتجاه الملاءمة في الإلزاميات هو دائماً من العالم إلى الكلمة، وشرط الصدق المعبر عنه هو دائماً القصد. على سبيل المثال، كل وعد أو تهديد هو تعبير عن قصد للقيام بشيء ما. المواعيد والنذور، كالأوامر والنواهي، لا يمكن أن تكون حقيقة أو كاذبة، ولكنها يمكن أن يتمّ تنفيذها أو يحافظ عليها، أو يُحنثَ بها[2].

د- **الأفعال التعبيرية** : وهي التعبير عن شرط الصدق للفعل الكلامي. والنماذج للتعبيريات هي الاعتذارات، والتشكرات، والتهاني، والترحيبات، والتعزيات. والمحتوى الخبري في التعبيريات من الناحية النمطية ليس له اتجاه ملاءمة، لأن حقيقة المحتوى الخبري يُسلّم بها فحسب. إذا قلت: "أعتذر لضربك"، أو "تهانينا لفوزك بالجائزة"، فأنا أسلم تسليماً بأنني ضربتك، أو أنك فزت بالجائزة، ولذلك أفترض قبلاً وجود اقتران بين المحتوى الخبري والواقع. بيد أن شرط الصدق في التعبيريات يتغير مع تغير نمط التعبير. وهكذا فالاعتذار صادق إذا كان المتكلم يشعر بالأسف فعلاً عما يعتذر عنه. والتهاني صادقة إذا كان المتكلم يشعر بالبهجة حقاً لما يهنئ المستمع عليه.

---

(1) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، ص٢١٧، ٢١٨.
(2) السابق نفسه، ص٢١٨.

هـ- الأفعال التصريحية : وفي التصريح، تكون وظيفة النقطة التمريرية إحداث تغيير في العالم بتمثيله وكأنه تغير. فتخلق الأفعال الأدائية، وكذلك التصريحات الأخرى، حالة فقط من خلال تمثيله وكأنه قد تغير. وأفضل الأمثلة على ذلك: "أعلن أنكما زوج وزوجة"، "لذلك أعلن اندلاع الحرب"، "أنت مطرود"، "أنا مستقيل". في هذه الحالات، لدينا اتجاه ملاءمة مزدوج لأننا نغير العالم، وهكذا نحقق اتجاه ملاءمة من العالم إلى الكلمة بتمثيله وكأنه تغير، ويكون اتجاه ملاءمة من الكلمة إلى العالم. وتنفرد التصريحات بين الأفعال الكلامية بكونها تحدث التغيرات في العالم فقط بفضل الأداء الناجح للفعل الكلامي. إذا نجحت في إشهاركما زوجاً وزوجة، أو أعلنت الحرب، فإن حالة فعلية توجد في العالم لم توجد من قبل. وعلى العموم، لا تكون هذه التصريحات ممكنة إلا بسبب وجود مؤسسات خارج اللغة[1].

وبمعايير "سيرل" يكون "الخبر" مندرجًا ضمن صنف "الإثباتيات"، أو هو "إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يلفظ به". والشرط الافتراضي الذي تقوم عليه الإثباتيات هو امتلاك الأسس المقنونية أو الأخلاقية التي تؤيد صحة محتواها. أما "الإنشاء" فمندرج ضمن الأصناف الكلامية الأخرى التي بحثها "سيرل"، وهي كثيرة ومتشعبة. فمن الإنشاء ما يندرج ضمن "الأمريات" كالأمر، والنهي، والاستفهام...ومنه ما يندرج ضمن "الإيقاعيات" كألفاظ العقود...ومنه ما يندرج ضمن "التصريحيات" كالمدح والذم والتمني...إلخ[2].

(٣) وقد انطلق بعض الباحثين المحدثين من هذا التصنيف الخماسي إلى وضع تصور في تصنيف الأفعال في العربية؛ فقسموها إلى: (الإيقاعيات، والطلبيات، والإخباريات، والالتزاميات، والتعبيرات). والملاحظ أنهم قد ذهبوا إلى تقسيم تلك الدلالات أو الأفعال الكلامية وتجميعها انطلاقًا من :

- الغرض الذي يرمي المتكلم إلى بلوغه (حمل الشخص على القيام بفعل معين) وهو ما يطابق مفهوم "أوستن" و"سيرل" للغرض الكلامي.

---

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، ص٢١٩، ٢٢٠.
(٢) التداولية عند العلماء العرب، ص٨١، ٨٢.

- مختلف العلاقات التي تربط الواقع بالتمثيلات الذهنية للمتكلم.

- وضعية المتكلم بالنسبة للمخاطب[1].

(٤) كما فرق "جون سيرل" في كتابه (Speech Act ١٩٦٩م) بين غرض الفعل، ومحتواه القضوي، وقوته. فأما (الغرض) فيعني به القصد الذي يتخذه الفعل فإذا قيل: - متى سيأتي محمد؟ (كان الغرض استفهامًا) .

- سيأتي محمد غدًا. (كان إخبارًا) .

- محمد لن يأتي غدًا. (كان نفيًا) .

أما المحتوى القضوي للمنطوقات الثلاثة فهو قاسم مشترك بينها وهو (إتيان محمد) . أما (قوة الفعل) فهي جزء من معناه الدلالي والمراد بها : الشدة أو الضعف اللذان يمكن أن يُعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق. وقد أدرك علماؤنا هذا الفرق بين المحتوى القضوي، والغرض الإنجازي وإن لم يصطلحوا على تسميتهما؛ ونستشف ذلك من المحاورة المشهورة التي وقعت بين "أبي العباس ثعلب" في رده على "الكندي"، الذي لم يفهم من المنطوقات الثلاثة إلا معناها القضوي . على حين أدرك "ثعلب" المعنى الإنجازي من :

(أ) زيد قائم .   (ب) إن زيدًا قائم .   (ج) إن زيدًا لقائم[2].

ففي (أ) إخبار عن قيامه، و (ب) جواب عن سؤال سائل، و (ج) جواب عن إنكار منكر، ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيًا، والثاني طلبيًا والثالث إنكاريًا. ولا شك في أن "ثعلب" قد راعى في تحليله مقصد المتكلم وحالته النفسية[3].وبمعايير "سيرل" يكون الفرق بين هذه الأنواع متمثلاً في درجة الشدة

(١) يُنظر تفصيل ذلك: آفاق جديدة، ص٩٨-٩٩.
(٢) الإمام فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: د. بكري شيخ أمين، ط. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢٥٧.
(٣) عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، قرأه: أ. محمود محمد شاكر، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص٣١٥، وطالب سيد هاشم الطبطبائي نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص٧٠-٧١.

في تحقيق الغرض المتضمن في القول. وقد تأتي منها هنا زيادة (إنَّ) في التركيب الثاني وزيادة (إنَّ واللام) في التركيب الثالث؛ وهذا يعني أن القوة الإنجازية Modifying Illocutionary Force خاصية المنطوقات لا الجمل؛ فالمنطوق الواحد يمكن أن يمتلك قوى إنجازية مختلفة في ملابسات استعمال مختلفة؛ ومن ثم يكون الغرض الإنجازي في فعل ما هو جزء من قوته الإنجازية؛ ولذا فالمعنى يشمل القوة الإنجازية، والغرض، والمحتوى القضوي[1]؛ ومن هنا رأى "سيرل" أن القوة الإنجازية حصيلة عناصر عدة، الغرض الإنجازي يعد عنصرًا واحدًا فقط منها، وإن كان أهمها[2].

(*) القوة الإنجازية بين سيرل ونحاة العربية :

أما بمعايير الفيلسوف "سيرل" فيكون الفرق بين هذه الأنواع كامنًا فيما سماه "درجة الشدة للغرض المتضمن في القول"[3]. فقد لاحظ سيرل أن الجملتين قد تتشابهان في "الغرض المتضمن في القول" ، غير أنهما تختلفان في "درجة الشدة"؛ ومن ثم تتفاوتان إنجازيا، ومثَّل لذلك بالفرق بين الجملتين : "أقسم أن بيل سرق المال"، و"أظن أن بيل سرق المال". إن اختلاف "درجة الشدة" بين قوة لها نفس الأغراض قد حمل "سيرل" على إعادة تصنيف خاص لهذه القوة على أساس هذا التفاوت.

أما في اللغة العربية فظاهرة "الاختلاف والتباين في درجة الشدة للغرض المتضمن في القول" التي تحدث عنها "سيرل"، موجودة بكثرة بفعل وفرة الأدوات الدالة على القوة الإنجازية المختلفة، والتي سماها النحاة "حروف المعاني"، وهي التي تثري العربية بأساليب كثيرة متنوعة، وتمدها بطاقة تعبيرية هائلة، كدلالة "رب" على التقليل، و"كم الخبرية" على التكثير، ودلالة "ليت" على التمني، و"لعل" على الترجي، ودلالة "هل" على الاستفهام، ودلالة "إنَّ وأنَّ" على التوكيد، ودلالة "نعم" على المدح، و "بئس" على الذم، ودلالة "الواو والباء" على القسم، ودلالة "ألا" على العرض، و"هلا" على التحضيض، وهذان الأخيران نوعان مختلفان للطلب، يحكمهما مبدأ "درجة

(1) آفاق جديدة في البحث اللغوي ص٧٥.
(2) د. صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص٢٢٥، ود. محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص٢٨٧ : ٢٩٢ بتصرف.
(3) التداولية عند العلماء العرب، ص٩٦، ٩٧.

الشدة للغرض المتضمن في القول". كما أن التوكيد نوع للخبر يختلف عن القسم والشرط ، ويحكم الجميع المبدأ نفسه الذي تحدث عنه "سيرل" ... وهكذا بقية الأدوات المسماة عندهم "حروف المعاني"[1].

خصائص القوة الإنجازية :

وقد حاول "سيرل و جرايس" حصر أهم خصائص القوة الإنجازية المتمثلة في :

١) نسبية القوة :

لما كانت القوة الإنجازية لفعل كلامي تعني الشدة أو الضعف اللذين يعبر بهما عن غرض إنجازي بعينه، في موقف اجتماعي بعينه، ولما كان لكل من الشدة والضعف درجات متفاوتة، فإن القوة الإنجازية ينبغي لها أن توصف بأنها نسبية؛ ومن ثم قيل إن (الأمر مثلا) غالبًا ما يكون من أقوى أنماط الغرض الإنجازي التوجيهي، وأنه الأشد تحققا ومباشرةً. إلا أن هذا يستعصي على التسليم من جهة الاستعمال اللغوي؛ فاستعمال (يجب، وينبغي مثلا) تكون أكثر ملائمة للمتكلم إذا كان في موضع الأمر للمخاطب. أما الفعل (أدخل) ردًا على طرق الباب تكون إذنًا بالدخول وليس أمرًا؛ ومن ثم فنسبية القوة تتحدد طبقا لقصد المتكلم والقرائن المحيطة بالخطاب[2].

٢) تعديل القوة :

والمراد بتعديل القوة الإنجازية هو تكيف المخاطب لمنطوقه مع مقصده في سياق التصالي بعينه، وبحض مبدأ تعديل القوة الإنجازية من البداية مبدأ معروفًا عند "جرايس" هو: (كن مقتصدًا)؛ وذلك لأن المتكلمين لا يستعملون كلمات زائدة دون سبب. ومن الطبيعي أن غرض المتكلم هو الذي يحدد استراتيجية القوة الإنجازية المؤدى بها التعبير من حيث كونه عرضًا أو التماسًا، تهديدًا أو احتجاجًا، مدحًا أو قدحًا، حثًا على فعل أو نهيًا عنه، إعلاء شيء أو إبطاله ... وهكذا؛ فكل سلوك اتصالي موجه إلى هدف معين، وهو ما عُرف عند "رومان

(١) التداولية عند العلماء العرب ، ص٩٧.
(٢) النص والخطاب والاتصال، ص٢٩٧، ٢٩٨.

جاكوبسون" بمطابقة الوسائل المستخدمة للأثر المستهدف، وهو ما عُبِر عنه فيما بعد بمبدأ (تلطيف القوة الإنجازية) بالسلب كما في (أنت خبيث)، و(يا إلهي أنت هكذا خبيث)، و(وعندك شيء من الخبث). فبالرغم من أن هذه المنطوقات تعبر عن خبر إنجازي واحد هو (الانتقاد)، إلا أنها استعملت علامات معجمية مختلفة لإظهار شدة القوة من نحو (يا إلهي، وهكذا)، في حين استخدمت لفظة (شيء) لإضعاف القوة. وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق؛ لأن الانتقاد فعل كلامي سلبي التأثير. وهناك مبدأ آخر يعمل على تعديل القوة الإنجازية يُعرّف بمبدأ الإشارة الصريحة كقولنا (أظن أنه يوم دراسي) في مقابل: (أنا متأكد تمامًا أنه يوم دراسي)[1].

٣) وسائل تعديل القوة : وتنقسم إلى قسمين :

أولهما: وسائل غير لغوية كالحركة الجسمية، والإشارة، وتعبيرات الوجه والعينين ونحوها؛ فيظهر دور هذه الوسائل في إظهار موقف معين عند مصاحبتها للكلام. ولا خلاف في أن هذه المصاحبات لها أكبر الأثر في تقوية القوة الإنجازية للمنطوق الذي تصاحبه أو إضعافها .

ثانيهما: الوسائل اللغوية (تركيبية، وغير تركيبية). فمن الوسائل اللغوية غير التركيبية (اللجلجة أو التردد في الكلام، والوقفات، ونغمة الصوت ونحوها)[2]؛ وسنجملهما فيما يلي :

أ- الصيغة: فقد توصل "أوستن وسيرل" إلى أن الفعل الإنجازي غالبًا ما يكون مضارعًا في صيغة المتكلم الحاضر، وصيغة الإخبار، والمبني للمعلوم، نحو قولهم: (إني آمرك، إني أعدك، أنا أنصحك).

ب- نغمة الصوت : حيث تختلف نغمة التحذير عن السؤال أو الاعتراض ....إلخ.

---

(١) النص والخطاب والاتصال، ص٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) السابق نفسه ص٢٠٩.

ج- إضافة بعض العلامات المعجمية لإضعاف القوة وزيادتها : نحو .. (من المحتمل) في قولهم : (من المحتمل سوف أفعل)، وزيادة (أبدًا) لتكثيف قوة النهي في: (لا تنس أبدًا) .

د- أدوات الربط : نحو (من أجل ذلك) التي تستخدم في قوة (استنتج) و(على الرغم من ذلك) التي تستخدم في قوة (أسلم بأن) .

هـ- مصاحبات المنطوق : كأن تجعل منطوقك مصحوبًا بحركة جسمية كـ(إشارة الإصبع، أو غمزة العين....إلخ).

و- ملابسات المنطوق : وهي تساعد مساعدة مهمة للغاية في تحديد الغرض، فالأمر يمكن أن يكون أمرًا، أو إذنًا، أو عرضًا، أو التماسًا، أو توسلاً، أو اقتراحًا، أو توصية، أو تحذيرًا...إلخ[1].

دور "ليتش" في نظرية الأفعال الكلامية :

صنف "ليتش" الأفعال الكلامية في درجات سلميّة، وفقًا لوظيفة كل صنف وعلاقته بهدف الخطاب الاجتماعي الأساسي، وهو تأسيس المجاملة والمحافظة عليها، من خلال استحضار مبدأ التأدب[2] في أثناء أدائها لوظيفتها الإنجازية، فاستقرت الأفعال في أربع درجات، وهي :

١. أفعال التنافس (competitive): هي التي يغلب فيها الهدف الإنجازي الهدف الاجتماعي، مثل الأمر والاستفهام .
٢. أفعال المناسبات (convivial): وهي التي يتطابق فيها الهدفان الإنجازي والاجتماعي، مثل التهنئة والدعوة والشكر والتحية .
٣. أفعال التعاون (collaborative): وهي التي لا تتأثر أهدافها الخطابية بالأهداف الاجتماعية، مثل التبليغ والتعليمات والتصريحات .
٤. أفعال التعارض (conflictive): وهي التي تتعارض أهدافها مع الأهداف الاجتماعية، مثل التهديد، والاتهام .

---

(١) النص والخطاب والاتصال، ص٢٩٤-٢٩٥، ود.محمد حسن عبد العزيز، مبحث كيف تنجز الأشياء بالكلمات٢٢، ص١٦ .
(٢) ينظر: مبدأ التأدب، ص١٢٥ وما بعدها.

ويستحضر المرسل مبدأ التأدب من خلال بعض الأدوات اللغوية، إذ يجسده في أفعال التناقص؛ للتلطيف من حدة ما تقتضيه طبيعتها من غلظة، وللتوفيق بين رغبته في تحقيق هدفه النفعيّ، وبين انتهاج السلوك الحسن.

وكذلك يجسده في أفعال المناسبات، باعتبار التأدب هو أساس إنجازها والباعث عليه، لما يضيفه عليها من صورة إيجابية، ممّا ينبغي معه أن ينتهز المرسل أيّة فرصة للتعبير عن كياسته.

وليس لمبدأ التأدب في الصنف الثالث أية علاقة بالوظيفة الإنجازية، وإن كان يندرج تحت هذا الصنف كثيرٌ من الخطابات المكتوبة.

أمّا الصنف الرابع، فإنّ للمرسل أبعد ما يكون في إنجاز أفعاله عن تجسيد مبدأ التأدب، لما تفرضه طبيعة هذه الأفعال التعارضية في أصلها، من هجوم، ولما يقتضيه استعمال التأدب فيها من خروج القصد إلى التهكم مثلاً[1].

أثر الهدف في اختيار استراتيجية معينة في الأفعال الكلامية :

فإذا كان الهدف النفعي للخطاب هو الحصول على النفع، فإنه يمكن للمرسل أن يستعمل إحدى الاستراتيجيتين، لإشعار المرسَل إليه بحاجته؛ وهاتان الاستراتيجيتان ، هما :

الأولى : بخطاب قوته الإنجازية ، هي : الطلب أو الأمر، مثل :

- أشعل المدفأة ، أو
- أريدك أن تشعل المدفأة .

أما الاستراتيجية الأخرى، فهي: بخطاب تلميحي، مثل الإخبار بالبرد، إذ يستلزم طلباً غير مباشر، مثل :

- الجو شديد البرودة، ولم أرتدِ ما يكفي من الملابس.

---

(١) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ص١١٠،١١١.

- ألا تشعر بالبرد؟

فلو كان الخطاب الأخر في سياق غير سياق التعبير عن الحاجة إلى الدفء، لأمكن أن تكون قوته الإنجازية هي الظاهرة فقط أي الإخبار، وقد تكون هذه القوة هي هدفه في الخطاب، ولا يكون الخطاب، عندها، ذا استراتيجية غير مباشرة (تلميحية)، بل تكون استراتيجيته هي الاستراتيجية المباشرة"[1].

خصائص الأفعال الكلامية :

١. يختص الفعل الكلامي بكونه يحقق فعلاً معيناً، أي نشاطاً يهدف إلى تحويل الواقع[2].

٢. إنه فعل قانوني كما يذهب إلى ذلك اللغوي الفرنسي "أوسوالد ديكرو". ونتكلم عن الفعل القانوني عندما يتم تحديد نشاط ما باعتباره تحويلاً للعلاقات الشرعية والقانونية الموجودة بين الأشخاص المعنيين. والفعل الكلامي يهدف لعلاً إلى خلق مجموعة من الحقوق والواجبات المتعلقة بالمتحاورين، ومن هنا تظهر القيمة القانونية المسندة إليه، وهكذا فإننا سنعتبر نشاطاً ما قانونياً، عندما نصفه بأنه نشاط إجرائي أو محل تقدير واعتبار، أو اعتراف بالالتزام، وغير ذلك. فالقول الذي يتلفظ به القاضي مثلاً يمكن اعتباره فعلاً قانونياً؛ لأنه لا يكون هناك أي أثر يفصل بين كلام القاضي وتحويل المتهم إلى محكوم عليه، لأن الكلام هو الذي يصدر الحكم .

٣. إنه فعل مؤسساتي، فكثير من الأفعال الكلامية يرتبط إنجازها وتحقيقها بالعديد من المؤسسات الاجتماعية، لكن هذه الأفعال تُنجَز داخل اللغة وبواسطتها ومن هنا تسميتها بالأفعال الكلامية أو اللغوية. إنها أقوال بسبب طبيعتها اللغوية، وهي أفعال لا تهدف إلى تحويل الواقع أو تغيير العلاقة مع العالم، وهي كذلك لطبيعتها القانونية، والشرعية، والمؤسساتية،والاجتماعية،

---

(١) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) ، ص١٦٠.
(٢) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط١، الصفة في الطبع، ٢٠٠٦م، ص١١٨.

ثم إن التكلم واستعمال اللغة هو نوع من التعهد والالتزام، وتحمّل المسؤولية والواجبات[1].

٤. إنه فعل قصدي، فمن خلال التعرف على قصد المتكلم، نتعرف على الفعل الكلامي المنجز، فلو قال متكلم لآخر: "هناك خطر يحدق بك"، فقد يكون القصد من كلامه هذا الإخبار، أو التنبيه، أو السخرية.

٥. إنه فعل سياقي، بحيث لا يمكن النظر إليه بمعزل عن السياق. فإذا أخذنا جملة من قبيل: "سأحضر غداً"، فإننا نجد أنها تفيد معاني عديدة، وذلك طبقاً للسياق: فهي تفيد الإخبار في سياق ما، وفي سياق آخر قد تفيد الوعد، وقد يكون لها معنى التهديد في سياق ثالث[2].

٦. إنه فعل عرفي: إن الفعل الكلامي لكي يكون ناجحاً، لابد أن يستجيب لمجموعة من الشروط المتعلقة باستعماله، وهذه الشروط تحدد الإطار الذي يكون فيه الفعل الكلامي ملائماً للسياق الذي يظهر فيه.

وتتعلق هذه الشروط بمظاهر مختلفة نذكر منها:

- الظروف والأشخاص المشاركون في إنجاز الفعل الكلامي.
- مقاصد الأشخاص.
- نمط الإنتاج المرتبط بإنتاج الفعل الكلامي وأولويته.

وهذه الأنماط من الشروط هي التي يدعوها "أوستن" بشروط النجاح، والإخلال بأي شرط منها يؤدي إلى نمط من أنماط الفشل، كأن يكون الفعل منعدماً أو حشوياً، أو ليس له أي تأثير[3].

الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة:

عند المحدثين:

(١) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص١١٩.
(٢) السابق نفسه، ص١٢٠.
(٣) السابق نفسه، ص١٢٠، ١٢١.

(١) ومما يُذكر "لسيرل" أنه فرق بين الأفعال الكلامية المباشرة direct speech acts وغير المباشرة indirect speech acts، فوضح أن المتحدث قد ينقل إلى المستمع أكثر مما تحمله الكلمات؛ اعتمادًا على الخلفية المعرفية المشتركة بينهما، سواءً كانت لغوية أو غير لغوية، إضافة إلى قدرة المستمع على الاستنتاج والتعقل والتفكير. ويثير مفهوم الأفعال الكلامية غير المباشرة مسألة إمكانية قول شيء من جانب المتحدث يحمل ما يقول من معنى كما يحمل معنىً إضافيًا آخر[1]. فلو أنني مدعو على غداء مثلاً، ونظرت إلى رفيقي قائلاً: "هل تناولني الملح؟"[2]؛ فالغرض هنا ليس استفهامًا، وإنما طلب متأدب. ومن هنا ثبت أن القوة الإنجازية في جمل اللغات الطبيعية بالنظر إلى مقامات إنجازها فعلان: (فعل إنجازي حرفي، وفعل إنجازي مستلزم). ويقصد بالفعل الإنجازي الحرفي، المعنى المتحقق من التركيب بتأثير العوامل الأخرى، ومن تنغيم أو أداة (كأداة الاستفهام مثلاً)، أو بصيغة الفعل أو بفعل من زمرة الأفعال الإنجازية (كالأفعال سأل، وقال، ووعد). أما الفعل الإنجازي المستلزم فيُقصد به الدلالة الإنجازية التي تستلزمها الجملة في مقامات سياقية معينة؛ فالجملة السابق ذكرها تحمل بالإضافة إلى معناها الأصلي (الاستفهام) معنىً مستلزمًا إضافيًا هو (الالتماس)[3].

(٢) ثم حاول "سيرل" حل إشكالية: (كيف يقول المتكلم شيئًا ويعني شيئًا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنًا أن يسمع المخاطب شيئًا له معنى، ويفهم منه معنىً آخر؟). فتبين أنه يمكنه حل هذه الإشكالية عن طريق الاستعانة بمبدأ التعاون الحواري conversational co-operation عند "جرايس"[4] بين المتكلم والسامع، وما عند المخاطب من علم بجوانب الموضوع المتحدث عنه، ثم ما أسماه بإستراتيجية الاستنتاج inference strategy عند السامع، التي تمكنه من الوصول إلى المعنى غير المباشر، بالإضافة

(١) د.علي عزت: الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، ص٥٢.
(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، ص٦٨.
(٣) د.أحمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ط دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ص١٠٦.
وآفاق جديدة ص٥٠-٥١.
(٤) ينظر عناصر التعاون الحواري عند "جرايس" ص٨١.

إلى الاعتماد على قواعد المحادثة في تعاون كل من المتكلم والسامع في أن يفهم كل منهما كلام الآخر[1].

وقد بين بعض الباحثين أن الأفعال المباشرة تمثل قدرًا ضئيلا في اللغة، وتنحصر فيما يسمى بالأفعال المؤسساتية، أو التشريعية كالتوكيل، والتفويض، والوصية، والتوريث، والإجارة، ونحوها، لأن الأفعال الكلامية إن استخدمت هنا غير مباشرة فسوف تؤدي إلى اللبس وضياع الحقوق. أما الأفعال غير المباشرة فتمثل القدر الأكبر في اللغة، ويكثر استعمالها في سياقات التأدب في الطلب[2].

(٣) وقد انتهى "سيرل" في دراسة الأفعال الكلامية غير المباشرة إلى رصد عدة خصائص لها جديرة بالاهتمام تتمثل في :

أ- يمتلك المنطوق الواحد قوتين إنجازيتين اثنتين، إذ يؤدي فعل انجازي أداء غير مباشر عن طريق أداء فعل آخر.

ب- تعتمد القوة الإنجازية غير المباشرة اعتمادًا رئيسًا على العرف؛ فهو الذي يعطي الفعل الإنجازي الحرفي معنىً آخرًا معبرًا عن مقصد المتكلم .

ج- في أفعال الكلام غير المباشرة يبلغ المتكلم المستمع أكثر مما يقوله عن طريق الاعتماد على خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بينهما: لغوية وغير لغوية، بالإضافة إلى اعتماده على قوى الإدراك والاستدلال العامة عند المستمع.

د- عُدت أفعال التوجيهات هي أكثر الأقسام اقترانًا بالدلالة غير المباشرة؛ وذلك لصعوبة توجيهات أوامر مباشرة على نفس المخاطب؛ ولذا يلجأ المتخاطبون إلى إيجاد وسائل غير مباشرة؛ لأداء أفعالهم الإنجازية.

---

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، ص٦٩.
(٢) آفاق جديدة، ص٨٦، ٨٢.

هـ- يؤكد "سيرل" أن الأفعال غير المباشرة تحتفظ بمعانيها الحرفية، ولكنها تكتسب أيضًا استعمالات عرفية.

و- لقد احتل "جون سيرل" منزلة متميزة في تداولية أفعال الكلام؛ لأنه انفرد بمحاولة إعادة بناء الخطوات الضرورية لإنتاج فعل إنجازي أولي من فعل إنجازي حرفي، وهي إعادة بناء مؤسسة على حقائق عن المخاطبات، وأسس التعاون الخطابي، ونظرية أفعال الكلام، وخلفية المعلومات المشتركة بين المخاطبين، ومبدأ الاستدلال[1].

(٤) قواعد التمييز بين الاستعمال المباشر وغير المباشر في اللغة: تنزع التقاليد اللغوية، الموروثة إلى حد كبير عن البلاغة التقليدية، إلى التمييز بين الاستعمال المباشر، والاستعمال غير المباشر على النحو التالي

أ- يوجد حد واضح بين الاستعمال المباشر وغير المباشر.

ب- لا تُؤوّل الأقوال المباشرة والأقوال غير المباشرة بالطريقة نفسها[2].

ج- ليس للأقوال المباشرة إلا معنى واحد هو معناها المباشر؛ أما الأقوال غير المباشرة فلها معنيان: معناها المباشر ومعناها غير المباشر أو "المجازي".

د- تميّز ضمن الاستعمال غير المباشر قسمين كبيرين من الوجوه البلاغية (وجوه التراكيب اللغوية ذات الصلة بالاستعمال غير المباشر)، والوجوه البيانية مثل الاستعارة أو الكناية، وصور التفكير مثل السخرية. وبصفة عامة، لئن أمكن تحديد الضرب الأول لغويًا بواسطة شكل الجمل أو التعابير، فإن صور التفكير تتحدد بالتضاد بين معناها المباشر والسياق أو المقام.

هـ- يُحدّد استعمال المباشر وغير المباشر خارج السياق بالنسبة إلى الوجوه البيانية؛ لأنها من خصائص الجمل لا من خصائص الأقوال[3].

---

(١) النص والخطاب والاتصال، ص٢٩٠-٢٩٢.

(٢) د. أحمد المتوكل: آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٩٣م، ص٢٢ وما بعدها.

(٣) التداولية اليوم، ص١٨٢، ١٨٣، والتداولية من أوستن إلى جوفمان، ص١٤١.

(٥) وكذلك وضح سيرل شروط نجاح الأفعال غير المباشرة وتتمثل في :

أ- قدرة المخاطب على إنجاز العمل، ومثال ذلك قولك : (هل لك أن تمدّني بالملح؟) .

ب- رغبة/ إرادة المتكلم في أن ينجز المخاطب العمل، ومثال ذلك قولك: (أحبّ أن ترحل) .

ج- إنجاز مستقبلي أو احتماليّ للعمل من قِبَل المخاطب، ومثال ذلك قولك: (سيلبس الموظفون ربطات العنق) أو (هل ستسكت؟).

د- موافقة المخاطب على إنجاز العمل، ومثال ذلك قولك: (هل ستمدّني بالمطرقة؟).

هـ- التحفيز على إنجاز الفعل، ومثال ذلك قولك: (عليك أن تكون مؤدّبًا) و(هل من المعقول أن تدخن؟) و(إنك تطأ قدمي).

و- التوليف بين الجهات السابقة، أو الطلبيات (الأوامر) الصريحة. ومن الأمثلة على ذلك قولك: (هل يمكنني أن أطلب منك الخروج؟) و(إذا كان بإمكانك أن تكفّ "عن ذلك"، فذلك يسرّني)[1].

(٦) العوامل المؤثرة في التمييز بين الأقوال المباشرة وغير المباشرة :

أ- لا يعرض "سبربر" و"ولسن" عملية الأقوال المباشرة مختلفة عن تأويل الأقوال غير المباشرة.

ب- لا يريان كذلك وجود فرق بيِّن بين الاستعمال المباشر والاستعمال غير المباشر، وإنما يوجد مسترسل ينطلق باستمرار من الاستعمال المباشر المطلق إلى الاستعمال غير المباشر.

ج- لا يتحدّد الاستعمال المباشر والاستعمال غير المباشر في المطلق، بل قياسًا على الفكرة التي يرغب القائل في تبليغها. فبحسب درجة المشابهة بين الفكرة والقول، يقترب القول من الاستعمال المباشر للغة أو يبعد عنه.

د- ترتبط درجة المشابهة بعدد الاستلزامات السياقية التي يُثيرها الشكل القضوي للقول والفكرة (في شكلها القضوي)، عندما يتقابلان في السياق

---

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص: ٧٠.

نفسه؛ ومن ثمّ ليس الاستعمال المباشر، أو الاستعمال غير المباشر، خاصية من خصائص الجملة بل هي خاصية من خصائص القول.

هـ - لا ينحصر الاستعمال غير المباشر في الوجوه البلاغية المحددة تقليديًا[1].

(٧) وقد أضاف "سيرل" إلى هذا النوع من الأفعال الكلامية غير المباشرة (الإلماع، والتلميح، والمفارقة، والاستعارة)؛ مبينًا أن القوة الإنجازية لهذه الأفعال تدل على معناها الحرفي بالإضافة إلى معنى آخر يقصده المتكلم من خلال تداولية الخطاب[2]، مفصلاً القول في الاستعارة فيمثل لها بقوله: (إذا قال لك أحدهم [...] "جون خنزير"، فإنك تفترض أنّ المتكلم لم يقصد ما قاله حرفيًا، ولكنه يتكلم على سبيل الاستعارة. فضلاً عن ذلك، فأنت لا تجد صعوبة في تخيُّل ما يريد قوله [...]. إنّ وجود أقوال من هذا القبيل [...] يطرح سلسلة من المشاكل على كلّ نظرية في اللغة وفي التواصل: ما هي الاستعارة؟ وكيف تتميز في الوقت ذاته عن الأشكال الحرْفية وسائر أشكال الأقوال المجازية؟ لِمَ نفهم بعض التعابير بمعناها المجازيّ [...]؟ كيف تشتغل الأقوال الاستعارية؟ [...] ثمّ إنّ السخرية والأفعال اللغوية غير المباشرة توفران لنا أمثلة أخرى تبيِّن الفرق الواقع بين معنى قول المتكلم ومعنى الجملة الحرْفي".

لقد كانت الاستعارات وغيرها من "الوجوه" أو "الصور الأسلوبية" – وهي العزيزة على البلاغيين الكلاسيكيين، والذين يحللون النصوص الأدبية- موضوع تحاليل لسانية، لعلّ أشهرها ما قام به "جاكوبسون".

لا تمثل مشكلة الاستعارة، من وجهة نظر التداولية، في أنّ الجملة تحتمل معنيين اثنين، فهذا تحليل "داخليّ" يقتصر على اللسان بالمعنى الذي وضعه "دي سوسير"، بل تتمثل المشكلة في الواقع، في العلاقات الموجودة بين معنى الجملة الحرفيّ ودلالة القول عبر المتخاطبين وعندهم. ومن ثمة، فقد تعلق "سيرل" باكتشاف المبادئ التي تسمح بالانتقال من هذا المعنى إلى تلك الدلالة. إضافة إلى أنّ المعنى الحرفي يقوم بدور محدود جدًا؛ بما أنّ جملة نحو (تتلم

(١) آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ص١٨٣، ١٨٤.
(٢) النص والخطاب والاتصال، ص٢٩٠، ٢٩١ بتصرف، وآفاق جديدة ص٨٢، ٨٣.

الأفكار الخضراء التي لا لون لها ساخطة[1] والتي لا معنى حرفيًا لها، يمكن أن يكون لها تأويل استعاريّ، إذا ما توافرت بعضُ شروط النجاح[2].

الأفعال المباشرة وغير المباشرة عند القدماء :

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن القدماء من علماء العربية قد التفتوا إلى هذه الظاهرة، وإن كان التفاتهم لم يتجاوز الملاحظة والتمثيل ببعض الأمثلة المتناثرة في المصادر العربية عند البلاغيين والأصوليين، والنحويين؛ وهو ما سندلل عليه فيما يأتي :

البلاغيون :

فقد عبّر البلاغيون عن هذه الظاهرة بما يُعرف بـ(المعنى الفرعي، أو المعنى الضمني، أو المعنى غير الحرفي، أو معنى المعنى)، ومرادهم أن يُفهم من اللفظ معنى، ثم يفيد ذلك المعنى معنىً آخر. ومن أوائل اللذين التفتوا إلى ذلك العلامة "عبد القاهر الجرجاني" إذ يقول موضحًا الفرق بين المعنى الحرفي والمعنى غير الحرفي لبعض الملفوظات: (ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق)، ثم قال مجرِّدًا هذا الكلام من المزية (وإذا كان بينًا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن في ذلك حقه، وأنه الصواب، إلى فكر وروية، فلا مزية، وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهًا آخر)[3]. وهذا الضرب من الأفعال هو الذي تدل هيئته التركيبية على معنى يقصده المتكلم .

أما الضرب الثاني من الأفعال، فهو الذي لا تدل هيئته التركيبية على ما يقصده المتكلم، فكأنه يقول شيئاً ويعني شيئًا آخر. وقد أدرك علماؤنا منه نوعين: نوعًا لا يستلزمه الحوار، ونوعًا يستلزمه الحوار عادةً.

---

(١) جملة شهيرة ضربها تشومسكي مثالا على استقلال الصحة التركيبية عن الإفادة الدلالية (المترجم)، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ص٧٢ .
(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة ص:٧٢، ٧٣.
(٣) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص٢٨٦.

أما النوع الأول : فيتمثل في خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أو عن أصل المعنى، وهو المعنى الحرفي الذي تطابق نسبة الكلام فيه مقصود المتكلم، أو يكون ما قاله هو ما يعنيه، ولا يتأتى ذلك المعنى إلا بمعونة القرائن، وإدراك لمقتضى الحال. وقد وضح "عبد القاهر الجرجاني" هذا القسم من خلال شرحه لمفهوم الكناية[1] يقول: (فينبغي أن تنظر إلى هذه المعاني واحدًا واحدًا وتعرف محصولها وحقائقها، وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ؛ ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم (هو كثير رماد القدر) وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت إنه كلام جاء عنهم في المدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدور الكثيرة، ويطبخ فيها للقرى والضيافة؛ وذلك لأنهُ إذا كثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة)[2]. فواضح أن المعنى الحرفي لهذه العبارة ليس هو المقصود بل إن معناها: (هو رجل كريم)؛ ولتفسير كيف يتم الانتقال من: كثير رماد القدر إلى رجل كريم يعتمد الجرجاني سلسلة من الاستدلالات (الملزومات) :

- كثرة الرماد --> كثرة إحراق الحطب.
- كثرة إحراق الحطب --> كثرة ما يطبخ.
- كثرة ما يطبخ --> كثرة الأكلة.
- كثرة الأكلة --> كثرة الضيوف.
- كثرة الضيوف --> إنه مضياف .
- إنه مضياف --> إنه كريم .

(١) وهي أن تذكر لفظة، وتريد بمعناها معنىً ثانيًا هو المقصود، يُنظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص٢٧٢.
(٢) دلائل الإعجاز، ص١٣١.

نلاحظ أن الانتقال من دلالة الوضع (المعنى الحقيقي/الحرفي) إلى دلالة الملزوم (بالعقل/ للمعنى المستلزم) يتم بواسطة استدلالات ذات طبيعة غير لغوية. فهي تتم بواسطة ما يُعرَف عند بعض المناطقة المعاصرين بالخلفية الثقافية والاجتماعية؛ ومن ثم فإذا كان المعنى هو العلاقة بين المحتوى الفكري واللفظ أو بين اللفظ والمدلول؛ فالدلالة هي فيما نرى: وجهة صرف اللفظ للمعنى، سواء أكان وضعًا أم محتملاً له.

وقد التفت البلاغيون إلى أكثر من نوع لهذا الضرب، وجميعها يدل على معنى يستلزمه الكلام؛ فهو انتقال من اللازم إلى الملزوم، مقسمين إياها إلى :

* ما يدل على صفة قريبة واضحة، ومن ذلك قولهم: (فلانة نؤوم الضحى): أي مرفهة مخدومة؛ فالمنطوق استلز , المراد منه، وهو التعبير عن أنها لا تحتاج إلى الاستيقاظ مبكرًا لإصلاح شؤونها؛ لقيام غيرها بذلك نيابة عنها؛ فاستدل بذلك على أنها مخدومة.

* ما يدل على صفة قريبة خفية نحو قولهم : (عريض القفا)؛ لكون عظم الرأس وعرض القفا إذا أفرط فيهما كان دليل الغباوة.

* ما يدل على صفة بعيدة ، وهي التي يُنتقل منها إلى المطلوب بها بواسطة كما جاء في قولهم (كثير رماد القدر). ومنه قوله تعالى: (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) (الأعراف/ ١٤٩)؛ فقد مرت بمرحلتين من الاستدلال :

- فلما اشتد ندم بني إسرائيل على عبادة العجل--> عضوا على أيديهم.

- ولما عضوا على أيديهم--> صارت الأيدي مسقوطا فيها.

*ما يدل على النسبة ، نحو قولهم : (المجد بين ثوبيه والكرم بين برديه)[1]؛ فذلك يستلزم وجود صاحب البرد أولا، ثم نسبة الكرم والجود إليه، فكأنما صار هو الجود والكرم نفسه؛ ولذلك عُد من أسرار الجمال في هذا الأسلوب أنه يدل على المعنى مصحوبًا بالدليل، وهذا أوقع في النفس، وأكد لإثباته.

(١) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، ط المكتبة الأزهرية للتراث، ١٩٩٣م، ١٥٩/٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧١ ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص٢٧١ .

أما النوع الثاني : من الأفعال المقامية، فهو الذي يستلزمه الحوار عادة؛ فيرد فيه المخاطب على المتكلم بما لا يصح حرفيًا أن يكون ردًا عليه، ولا يمكن إدراك ذلك إلا بأنواع من الاستدلال يقوم بها المتكلم ليفهم مراد المخاطب. وقد يقع ذلك من المتكلم ومن المخاطب معًا في حوار واحد، وتتفاوت مراحل الاستدلال بساطة وتعقيدًا بقرب ما يقوله المتكلم أو المخاطب، مما يتوقعه الآخر من رد أو بعده عنه[1]، وقد ورد منه عدة أنواع سنعرضها فيما يلي :

- (الحيدة) وهي لون من ألوان العدول في الأسلوب الجوابي بصفة خاصة[2]. وقد وضحها "عبد العزيز الكناني" بقوله: (هي عبارة عن اجتلاب جواب لسؤال. وهذا الجواب المجتلب لا يكون هو المطلوب أو المسؤل عنه. وهو سلوك يعمد إليه المجيب دفعًا للسؤال؛ لأنه يجد في إجابته إلزامًا أو إحراجًا على أنه ليست كل الأسئلة بمستحقة الإجابة)؛ نحو قوله تعالى: (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) (الشعراء/ ٧٢- ٧٤)؛ وإنما قال لهم إبراهيم هذا ليفهمهم، ويعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، فعرفوا ما أراد بهم؛ فصاروا بين أمرين: أن يقولوا نعم يسمعوننا حين ندعو، أو ينفعوننا، أو يضروننا؛ فيشهد عليهم بلغة قومهم أنهم كذبوا. أو يقولوا لا يسمعوننا حين ندعو ولا ينفعوننا، ولا يضروننا فينفون عن آلهتهم القدرة، وعلموا أن الحجة عليهم لإبراهيم؛ لأنهم في أي القولين أجابوه فهو عليهم؛ فحادوا عن جوابه واجتلبوا كلامًا من غير ما سألهم عنه: (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء/ ٧٤) فلم يكن جواب مسألته[3]. ويتفرع من هذا الضرب ما عُرف بـ(الحيدة بالتكتية)، وفيه يُكني المجيب في إجابته تأدبًا أو خروجًا من مأزق، ومنه ما رواه "الجاحظ" من أن العباس - عم الرسول ﷺ - قد سُئل : (أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال هو أكبر مني وولدت أنا قبله)؛ وهكذا جاءت إجابته -رضي الله عنه- مناسبة ومتخلصة لأحسن الأحوال[4]، وأرى أن الحيدة ما هي إلا المصطلح العربي المقابل للاستلزام الحواري عند الغربيين؛ حيث يعدل

---

(١) آفاق جديدة ص١١٦.

(٢) ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، تقديم وتحقيق الدكتور حفني محمد شرف، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، د.ت، ص٥٦٥ .

(٣) عبد العزيز الكناني: الحيدة، حققه وقدم له د. جميل صليبا، ط مجمع اللغة العربية، دمشق، ص٥٧.

(٤) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أ.أحمد زكي باشا، ط مكتبة المثنى، بغداد، طبعة بالأوفست، ص ٨٦

المتلقي عن الجواب المناسب للسؤال؛ خروجًا من مأزق فيلجأ إلى جواب يدفع عنه الحرج والتهمة .

- أسلوب الحكيم، وهو فهم خلاف المقتضى من المذكور، أو بمعنى "المحدثين": هو ما يستلزمه المنطوق من دلالات غير مذكورة فيه، وذلك بحمل كلام المتكلم على غير مراده؛ تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد؛ ومن ذلك قول "القبعثري" للحجاج لما قال له متوعدًا بالقيد: "لأحملنك على الأدهم" فقال متغابيًا "مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب". فإنه أبرز وعيده في معرض الوعد. وأراه بألطف وجه أن من كان على صفته في السلطان وبسطة اليد جدير بأن يُعطي لا يقيد[1].

وعد منه البلاغيون تلقي المخاطب بغير ما يترقب به السائل بتنزيل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيهًا على أنه الأولى بحاله أو المهم له[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة/ ١٨٩)؛ فكان المراد من السؤال تفسير تغير أشكال الهلال، وهذا لا يفيد الناس في حياتهم؛ فجاء الجواب (هي مواقيت للناس والحج) فبين ما كان يجب أن يُسأل عنه، وهو فائدتها ووظيفتها[3]. ومنه حديث رسول الله ﷺ عندما سأله أعرابي عن الساعة قائلا : "متى الساعة؟. فقال النبي ﷺ: وماذا أعددت لها"؛ فجاء جوابه ﷺ على غير منطوق اللفظ وإنما أجاب مبينًا ما كان ينبغي أن يسأل عنه السائل؛ وفي هذا النوع خرق لمبدأ المناسبة عند "جرايس"؛ إلا أنه لما كانت الإجابة المناسبة للسؤال غير مفيدة للمتلقي؛ عدل المتلقي في إجابته عما سُئل عنه، موضحًا ما كان ينبغي أن يسأل عنه لأنه الأصلح له.

- القول بالموجب وهو أن يعمد المتلقي إلى كلمة من كلمات السائل تحتمل أكثر من معنى؛ فيحملها على معنى غير المراد لدى السائل[4]، وهو ما أسماه "الجاحظ" اللغز؛ حيث يعتمد المتلقي على خاصية الاشتراك اللفظي، التي

---

(١) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ٢/٩٤-٩٥.
(٢) أبو يعقوب بن أبي بكر السكاكي: مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور، ط٢ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م ص٣٢٧ والقزويني: الإيضاح، ٢/٩٥.
(٣) القزويني: الإيضاح، ٢/٩٥ بتصرف.
(٤) ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير، ص٥٩٩.

تتميز بها اللغة قصدًا للمراوغة، أو الهزل، ومنه ما رواه عن "الحجّاج بن يوسف الثقفي"، قال لرجل من الخوارج: "أجمعت القرآن؟ قال: أمتفرقًا كان فأجمعه. قال: أتقرأه ظاهرًا؟ قال: بل أقرأه وأنا انظر إليه. قال أتحفظه؟ قال: أخشيت فراره فأحفظه؟"[1]. ونلاحظ أن في هذا النوع من الكلام خرقًا لمبدأ من مبادئ الحوار عند "جرايس"، ألا وهو (كن واضحًا ومحددًا)، وفي رأي البلاغيين لا تستخدم من الألفاظ إلا ما هو واضح الدلالة؛ ومن هنا نلاحظ التقارب بين معايير الفصاحة عند البلاغيين العرب ومبادئ الحوار عند "جرايس".

- للزيادة المفيدة؛ ويمكن عد هذا النوع من أنواع الاستلزام الحواري عند البلاغيين؛ حيث يعمد المجيب إلى إجابة السائل بأكثر مما سأل عنه، وقد أسماه بعض البلاغيين بـ(التلفيف)، وفيه يقول "السبكي": (إخراج الكلام مخرج التعليم وهو أن يقع السؤال عن نوع من الأنواع تدعو الحاجة لبيانه؛ فيجاب بجواب عام عن المسئول عنه وعن غيره ليبنى على عمومه، وما بعده من الصفات المقصودة)[2]، نحو قوله تعالى: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ) (طه/ ١٧، ١٨)؛ فكان يكفيه أن يقول (عصا)؛ لكنه ذكر المسند إليه لبسط الكلام وليزداد شرفًا وفضلاً بطول مناجاته لربه؛ ولذلك زاد في الجواب فقال: (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ) (طه/ ١٨)[3]؛ ليطيل من سعادته باتصاله بالحضرة الإلهية ، وكذلك قوله ﷺ وقد سئل عن جواز الوضوء بماء البحر فقال: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[4]؛ وفي هذا الجواب خرق للمبدأ الحواري (كن مقتصدًا)، ولكن لما كان الرسول ﷺ معلمًا للناس، موضحًا لشئون حياتهم؛ فجاء جوابه مستوفيًا الرد على سؤال السائل وأكثر منه .

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٧، الخانجي القاهرة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م ١٢٢/٢.
(٢) السبكي: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص للقزويني، ط دار الهادي، بيروت ١٩٩٢م ٤/ ١٦٩.
(٣) السكاكي: مفتاح العلوم ص١٧٨.
(٤) السيد سابق: فقه السنة، ط دار الريان للتراث ١٩٩٠م ١٨/١.

- الانتقال؛ وهو نوع يمكن إدراجه ضمن أنواع الاستلزام الحواري عند البلاغيين؛ حيث يعمد فيه المستدل إلى الانتقال من الاستدلال الذي كان آخذًا فيه إلى استدلال آخر، ليس بدافع الهرب أو العجز من قبله، وإنما للعزوف عن مهاترة جدلية مع خصم عنيد لجوج؛ ومن ذلك المحاورة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام والنمروذ، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ (البقرة/ ٢٥٨) فإن إبراهيم عليه السلام انتقل في هذه الآية من الاستدلال الذي كان آخذًا فيه إلى استدلال آخر، ضاربًا عرض الحائط باعتراض خصمه بقوله: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ معارضة منه لاستدلال إبراهيم، فقد علم الخليل أن خصمه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة اللذين أرادهما، فانتقل إلى استدلال آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ (البقرة/ ٢٥٨)[1].

وقد قام د."أحمد المتوكل" بدراسة مايستلزمه الحوار عند "السكاكي" موضحًا أن تناول "السكاكي" له قد تجاوز الملاحظة الصرف إلى التحليل الملائم له، والذي يربط بين المعنى الصريح والمعنى المستلزم مقاميًا، ويصف آلية الانتقال من المعنى الأول إلى الثاني، بوضع قواعد استلزامية واضحة. كما وضّح أن تناول "السكاكي" لهذه الظاهرة كان يطمح إلى وصف لغوي شامل لجميع المستويات اللغوية (أصوات، وصرف، ونحو، ومعاني، وبيان...)[2]؛ ومن ثم وضّح المتوكل أن "السكاكي" اعتمد على تصنيف الكلام إلى (خبر، وطلب)، فيفرع كلا من القسمين إلى أنواع، يضع لكل نوع منها شروطًا مقامية تتحكم في إنجازه، أي في إجرائه مطابقًا لمقتضى الحال. ويتفرع عن هذه الأنواع نفسها أغراض تتولد في حالة إجراء الكلام على خلاف ما يقتضي المقام[3]؛ ولأننا غير معنيين بحصر كل أنواع الخبر والإنشاء لضيق المقام؛ فسوف نقتصر على عرض بعض أمثلة الطلب الأصلية كالاستفهام، وتفرعها إلى معان فرعية متولدة من خلال السياق. فمن المتفق عليه أن الاستفهام يدل على طلب الفهم أي طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا، وسائل يجهل المعلومة، ومسئول يتوسم فيه

(١) ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير، ص٥٦٥.
(٢) د.أحمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص٩٦-١٠٢ بتصرف.
(٣) السابق نفسه، ص٩٧.

امتلاك المعلومة، وتعبير لغوي موجه بأداة استفهام، أو تنغيم صوتي يقوم مقام الأداة، وعناصر مقامية أخرى. فإذا توفرت هذه الشروط كلها في إنجاز جملة استفهامية ما، لجري الاستفهام على أصله، وكان استفهامًا حقيقيًا. أما إذا أنجزت الجملة الاستفهامية في مقام غير مطابق، فإن معناها الأصلي يخرج إلى معنى آخر، كما في قوله تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) (العنكبوت/ ٢)؛ فقد تفرع عن معنى الاستفهام معان متولدة تتنوع بين (الإنكار، والتوبيخ، والعتاب، والتعجب)؛ وهذا التعدد يشير إلى رحابة معنى الاستفهام في إيحائه بالمعاني الأخرى التي يُمكن استخلاصها منه. ومنه أيضًا إذا قلت: (هل لي من شفيع) فهي تفيد معنى التمني لصعوبة إجراء المعنى الأصلي على حقيقته، وقد يفيد الاستبطاء نحو: (منذ كم دعوتك؟) والتقرير نحو: (أفعلت هذا؟) تقصد حمل المخاطب على الإقرار بأنه فعل أو أنه الفاعل، والتهكم نحو قوله تعالى: (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) (هود/ ٨٧)، والاستبعاد نحو قوله تعالى: (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) (الدخان/ ١٣)[1]، وهكذا لاحظنا أن المعاني التي تشيعها أداة الاستفهام أرحب وأوسع من أن نحددها تحديدا تامًا؛ لذلك نجد المتكلم يعمد أحيانًا إلى الصوت فيرفعه أو يخفضه أو يوزع علوه وانخفاضه في تقطعات وتنغيمات معينة يريد بذلك أن يُحمّل الأنغام ما أحس أنه تقلت من الكلمات والتراكيب، بل إنك تراه أحيانًا يشير بيده إشارات قصيرة هادئة أو طويلة قوية، وأحيانًا يسخر تقاطيع وجهه فيتبض، أو يبسط أو يحرك رأسه، وما شابه ذلك مما يصاحب النطق وهو في حقيقته كلام غير منطوق[2]. نخلص من ذلك إلى أن الاستفهام أسلوب حواري تداولي يستلزم لتفسيره عناصر معينة، فإذا توفرت هذه العناصر بشروطها ومواصفاتها المذكورة، فذلك الاستفهام الحقيقي. أما إذا غاب ركن أو غاب القيد الوصفي للركن، فذلك مؤشر على كون المراد غير الاستفهام.. فيُبحث عن المراد في قرائن السياق كالتعجب، أو السخرية، أو التمني، أو التوبيخ، أو الإرشاد...إلخ هذه المعاني أو الأغراض المختلفة يسميه القدماء خروج الاستفهام عن مقتضاه.

(١) السكاكي: مفتاح العلوم ٢٠٨-٣١٧، وكيف نعجز الأشياء بالكلمات ٣٢، ص١٧.
(٢) د. محمد محمد أبو موسى: دلالات التراكيب دراسة بلاغية ط مكتبة وهبة د.ت، ص٢٢١.

وقد وضّح الدكتور "أحمد المتوكل" كيفية الانتقال من المعنى الحرفي إلى غير الحرفي، مبيّنًا الخطوات التي ينتهجها المتكلم والمتلقي لفهم مضمون الحوار بينهما، مستعينًا برأي "السكاكي" في عدول أنواع الطلب عن معانيها الأصلية إلى معان أخر فرعية، ويتأتى ذلك بالخطوات الآتية:

- تحمل أنواع الطلب معانيها الأصلية في حالة انتقالها وشروط إجرائها على الأصل؛ ومن ثم لا تدل إلا على معناها الحرفي.

- تنتقل أنواع الطلب عن معانيها الأصلية إلى معان أخر؛ وذلك لمخالفة شروط إجرائها على الأصل. ويتم ذلك في مرحلتين متلازمتين:

الأولى: يؤدي عدم المطابقة المقامية إلى خرق أحد شروط إجراء المعنى الأصلي فيمتنع إجراؤه.

الثانية: يتولد عن خرق المعنى الأصلي لامتناع إجرائه معنى آخر (يناسب المقام)[1].

كما قارن بين آراء "السكاكي" ومبدأ التعاون عند "جرايس"؛ فتوصل إلى شدة التقارب بين اقتراحات البلاغيين العرب ومبدأ التعاون عند "جرايس" في هذه الظاهرة، وما فيها من خرق لإحدى قواعد الحوار. مؤكدًا أن اقتراحات البلاغيين العرب المتمثلة في اقتراحات "السكاكي"، أكثر دقة وقدرة على التنبؤ من اقتراحات "جرايس"؛ حيث إنها تمكن انطلاقًا من ربط الخرق بامتناع إجراء المعنى الأصلي من الجزم بحصول الاستلزام أي بحصول الانتقال القطعي من المعنى الأصلي إلى معنى آخر مناسب للمقام[2].

الأصوليون

أما الأصوليون فقد اهتموا بدلالات الألفاظ وذلك لعنايتهم بفهم تلك المدلولات، والاعتماد عليها في استنباط الأحكام الفقهية؛ فذكروا أن الدلالة نوعان:

---

(1) دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص98.
(2) السابق نفسه، ص101.

الأولى : من جهة كونها ألفاظًا وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة وهي الدلالة الأصلية.

الثانية : من جهة كونها ألفاظًا وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة وهي الدلالة التابعة[1]، وهذه الدلالة هي التي تتأتى بمعونة القرائن اللغوية وغير اللغوية، والتي عُني بها الأصوليون عناية فائقة؛ لما لها من أهمية في الإحاطة بمراد النص .

كما التفت الأصوليون إلى اختلاف الدلالة، باعتبار ما يقصده المتكلم وما يفهمه السامع؛ فقسموها إلى: حقيقية وإضافية. فالحقيقية: تابعة لقصد المتكلم وإرادته، والإضافية: تابعة لفهم السامع وإدراكه وجودة فكره وقريحته، وصفاء ذهنه، ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافًا متباينًا بحسب تباين السامعين في ذلك[2]؛ ومن ثم نبه الرسول ﷺ إلى اختلاف مراتب الصحابة في فهم النصوص؛ فمنهم من كان يفهم من الآية حكمًا أو حكمين أو أكثر، ومنهم من كان يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره[3]. وأرى أن المعنى التابع والمعنى الإضافي عند الأصوليين، هو ما عناه التداوليون بـ(المعنى غير المباشر)؛ وذلك لكون المنطوق يدل على معناه الحرفي، مضافًا إليه ما يستلزمه من معان غير حرفية، يعلمها المخاطب من سياق الكلام .

كما قسّم الأصوليون المنطوقات من حيث الدلالة إلى دلالة المنطوق ودلالة المفهوم. أما دلالة المنطوق فقد عرّفها الآمدي بقوله : « ما فُهم من دلالة اللفظ قطعًا في محل النطق »[4]، وهو قسمان: صريح وغير صريح.

أولاً : المنطوق الصريح :

عرفه العلماء تعريفات أشهرها :

---

(١) الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، ٦٦/٢ بتصرف.

(٢) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ط١، المكتبة التجارية، ١٩٥٥م، ١/٣٥٠، ٣٥١.

(٣) د. طاهر سليمان حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين، ط الدار الجامعية، د.ت، ص١٧.

(٤) الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتاب الحديث، القاهرة، د.ت، ص٤٣٧.

« ما وضع اللفظ له فيدل عليه بالمطابقة أو التضمن حقيقة أو مجازًا »[1].

ومعنى ذلك : أن دلالة اللفظ فيه على المعنى دلالة ناشئة عن الوضع اللغوي ، أي وضع اللفظ له ولو تضمنًا ؛ أي ولو كانت بطريق التضمين .

مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء/١٠)، فهذه الآية تدل صراحة على حرمة أكل مال اليتيم .

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(الإسراء/ ٢٣)، هذا النص أيضًا يدل صراحة على تحريم التأفيف للوالدين.

فالدلالة في هاتين الآيتين من قبيل المنطوق الصريح التي لا تحتاج إلى نظر واجتهاد، وسمي بالمنطوق الصريح لأنه يستفاد من مدلول اللفظ فقط .

والمنطوق الصريح يشمل نوعين من الدلالة[2]:

الأولى: دلالة المطابقة : وهي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له، وسُميت بذلك لعدم زيادة المعنى على اللفظ ولا اللفظ على المعنى، كدلالة لفظ الإنسان على الحيوان الناطق.

الثانية : دلالة التضمن : وهي دلالة اللفظ على جزء المعنى في ضمنه ، كدلالته على الحيوان أو الناطق في ضمن الحيوان الناطق.

ثانيًا : المنطوق غير الصريح:

وهو دلالة اللفظ على ما لم يوضع له ، فيدل عليه بالالتزام [3].

إذن المنطوق غير الصريح هو دلالة اللفظ على الحكم بطريق الالتزام لا بطريق المطابقة أو التضمن.

وقد صنَّف الأصوليون مدلولات الألفاظ التي تُستقى من غير الملفوظ إلى :

---

(١) ابن النجار الحنبلي، مختصر التحرير شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، ط٢، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ٣/١٧٣ . والشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق : الشيخ أحمد عزو عناية ، ط١، دار الكتاب العربي، ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩م، ٢/٣٦ .
(٢) الكوكب المنير، ٣/ ١٧٣، إرشاد الفحول، ٢/٣٦.
(٣) المصدران نفسهما ٣/ ١٧٢، ٢/٣٦، ٣٧.

* "دلالة الاقتضاء" : وهي ما لا يستفاد دلالته من منطوق اللفظ وإنما يُفهم مما تقتضيه ضرورته، كما في قوله ﷺ : "من لم يبيت الصيام من الليل فلا صيام له"[1]، فالمعنى الصريح ينفي الصوم، والمعنى الضمني ليس انتفاء الصوم، وإنما انتفاء صحة الصوم، ولفظ (الصحة) غير منطوق به، ولكن لابد من فهمه من خلال النص لتحقيق المعنى المراد.

* أما دلالة الإشارة (الفحوى) : فهي ما تستفاد من دلالة اللفظ بإيراد المعنى التبعي غير المذكور في السياق، كالاستدلال على تقرير أقل مدة الحمل ستة أشهر أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف/ ١٥) مع قوله تعالى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (لقمان/ ١٤)؛ فالقصد في الآية الأولى بيان الأمرين جميعًا من غير تفصيل، ثم بيَّن في الثانية مدة الفصال قصدًا، وسكت عن بيان مدة الحمل وحدها، ولم يذكر له مدة، ولكن ما يشير إليه المفهوم المستفاد من النصين أن أقل مدة الحمل هي ستة أشهر[2].

* أما دلالة مفهوم الموافقة : والمراد بها دلالة المسكوت عنه، فهي التي يستلزمها السياق من إيرادها إلى الذهن مباشرةً من قِبل المنطوق ومنها قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾(الإسراء/ ٢٣)؛ فيستلزم هذا النهي عن كل ما يؤذي الأبوين من السب، والشتم، والضرب، وذلك مفهوم من دلالة (أف)[3].

* أما دلالة مفهوم المخالفة : فيُعنى بها إثبات نقيض حكم المنطوق للمسكوت عنه إذا قيد الكلام بقيد يجعل الحكم مقصورًا على حال هذا القيد، فالقول يدل على حكم المنصوص عليه، ويستلزم حكم عكسه من غير المذكور في السياق. ويُعرف بأنه:"ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت مخالفًا لمدلوله في محل النطق"[4]؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ (المائدة/ ٩٥)، فبعض

---

(١) ابن رشد القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ط٢ مطبعة الحلبي، القاهرة ١٤١٥هـ ٢٠٤/١، والمستصفى من علم الأصول، ومعه كتاب فواتح الرحموت للعلامة: عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري، بشرح مسلم الثبوت للإمام محب الله بن عبد الشكور، ط١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ ٢٥١/١.

(٢) الغزالي المستصفى ١٨٩/٢ ود. عبد أحمد عبد الغفار: التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٩٥، ص١٢٦-١٢٧.

(٣) الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ٩١/٣ والمستصفى ٣٣٥/١.

(٤) الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ٩٩/٣.

الأصوليين يقولون بالجزاء للمخطئ، وهو مفهوم مخالفة النص"[1]، وهكذا نلاحظ دقة الأصوليين في إدراك (المعنى الضمني) وهو ما أخذ مصطلحات عدة تنطلق جميعًا من كون المنطوق لا يدل على معناه الحرفي فقط، وإنما يستدل منه على معنى آخر، هو المراد لدى المتكلم. ولا يُدرَك هذا المعنى الضمني إلا بمعونة قرائن الحال، والعرف، والسياق الثقافي والشرعي.

النحويون:

أما النحويون فقد التفتوا إلى تداولية النص القرآني في كون الأسلوب يدل ظاهره على معنى، ويُفهم منه معنىً آخر، ومن ذلك قوله تعالى: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (الحجر/٣)، يذكر "المبرد" : ((فإن قال قائل : أفأمَرَ بذلك ليخوضوا ويلعبوا ؟ قيل : مخرجه من الله - عز وجل - على الوعيد، كما قال: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (فصلت/ ٤٠) و (فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ) (الكهف/ ٢٩)[2] يتضح من كلام "المبرد" أن فعل الكلام المنجز للآية هو (الوعيد) المصنف ضمن التعهدات، على الرغم من أن البناء الشكلي للآية هو بنية فعل الأمر (الفعل)، الأمر الذي ينمّ عن وجود قوة إنجازية لأفعال الكلام لا ترتبط دائماً بظاهر الصيغة النحوية التي تحملها، فالفعل اللغوي في أساليب العربية الصريحة ((يتكون من مكونين، من الجزء الإنجازي يسم نمط الفعل الكلامي... والجزء القضوي الذي يشتمل على مضمون الفعل (مثل مضمون الوُعد) مضمون النصح .....)) [3] ، أما الفعل الكلامي في الصور غير الصريحة، فإنه يرتبط بقصدية (صاحب الخطاب) وهو ما كان حاضراً في ذهن "المبرد" في قراءته التداولية للآية الكريمة، إذ قال (مخرجه من الله – عز وجل – على الوعيد) أي أن القصد لم يكن الأمر باللعب والخوض، وإنما الوعيد، فالقصد ((قرينة تمييزية ناجحة تكسب التحليل أساساً

---

(١) التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه ص١٣٧، و دراسة المعنى عند الأصوليين ص١٥٩.

(٢) المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، ٢٦/٢.

(٣) كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص (مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج)، ترجمة د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م ص ١١٢.

تداولياً صريحاً، فالخبر والإنشاء كلاهما له خارج، وكلاهما يطابق ذلك الخارج، فالخبر ما طابق الخارج، وليس ذلك هو القصد من الإنشاء)) [1].

وهكذا انتبه النحويون إلى كون المنطوق يدل ظاهره على معنى مباشر، على حين يستقي منه المتلقي معنى غير مباشر، وعندما نتحدث عن المكون التداولي أو عندما نقول إن ظاهره ما خاضعة لـ (عوامل تداولية) فإننا نقصد بذلك المكون الذي يعالج وصف معنى للملفوظات في سياقها، ولو جئنا إلى مفهوم التحذير عند النحاة نجدهم يعرفونه بأنه ((تنبيه المخاطب ليجتنبه)) [2]، فيقوم هذا الفعل على أساس التنبيه والأمر بالاجتناب كما قال "سيبويه" [3]، أي الدعوة إلى الترك، وتُعدّ تلك هي الفائدة أو الثمرة المرجوة منه، يقول الرضي متحدثاً عن التحذير: سمّي اللفظ المحذّر به نحو: (إياك والأسد) ونحو (الأسد الأسد) تحذيراً، مع أنه ليس بتحذير، بل هو آلة التحذير [4]، فآلة التحذير لفظ أو صيغة يتلفظ بها المتكلم فيحذر بها، أما التحذير فهو الفعل أو العمل الذي ينشئه ويصنعه بتلك الآلة، وكلام الرضي ينطوي على التمييز بين صيغة التحذير وعمل التحذير، بل إننا نقول إن في هذا الكلام نصاً صريحاً على هذا التمييز.
وإذا جئنا إلى الخطاب القرآني نلاحظ مثل هذا الفهم، ففي قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (الشمس/١٣) يكون التقدير: احذروا ناقة الله واحذروا سقياها، والمراد: التحذير من أن يؤذوها، وهو تحذير يقتضي الوعيد [5]. وفحوى هذا الكلام أن هنا فعلين كلاميين متداخلين: أحدهما (التحذير) ويصنف ضمن فئة التوجيهات، كونه خطاباً صادراً عن الباري – عز وجل – ولذلك ((تكون نتيجة الفعل التوجيهي ملزمة للمرسل إليه عبر سلطة المرسل؛ لأن ما يجعل من الخطاب إنجازاً لفعل توجيهي هو ربطه بـ (أنا) المرسل)) [6]. والآخر (الوعيد)، وبمصطلحات (سيرل) يكون أحد الفعلين فعلاً كلامياً مباشراً وهو التحذير، والثاني فعلاً كلامياً غير مباشر وهو الوعيد [7].

---

(١) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب ص٦٩
(٢) أ. عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٣، ١٩٨١، ص١٥٦.
(٣) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ٢٧٣/١-٢٧٤.
(٤) الرضي، شرح الكافية، تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، ١٩٧٨م، ١/ ٤٧٩ .
(٥) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت، ٣٧٤/٣.
(٦) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية ص٣٢٤.
(٧) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ٢/٢.

ومن هنا نخلص إلى مدى التقارب الواضح بين خواص الأفعال المباشرة وغير المباشرة عند التداوليين و العرب .

الفصل الثالث

عناصر التداولية

أولاً: الاستلزام الحواري Conversational implicature

- ١.نشأته :

تعد دراسات "جرايس١٩٦٧م" التي ألقاها في جامعة هارفارد المنطلق الأساسي لنشأة مصطلح الاستلزام الحواري؛ فقدّم فيها بإيجاز تصوره لهذا الجانب من الدرس، والأسس المنهجية التي يقوم عليها، ثم تتابعت أبحاثه النظرية والتطبيقية لتلك الظاهرة في عامين ١٩٧٨ و١٩٨١م؛ حيث يذهب "جرايس" إلى القول إن العملية التواصلية قائمة أساسا على مبدأ عام سماه بـ (مبدأ التعاون الحواري). إذ يعد توافر هذا القيد أساس نجاح للعملية التواصلية، ويؤدي اختلاله إلى فشل الفعل اللغوي. وبالرغم من أن أبحاثه قد تعتريها بعض عوامل النقص من ناحية، وعدم الإحكام من ناحية أخرى؛ إلا أنها تعد اللبنة الأولى التي بنى عليها المخالفون له النظرية كاملة فيما بعد[1]. ولقد نتج عن اهتمام الدارسين فيما بعد بربط مفهوم الاستلزام الحواري بمفهوم القوة الإنجازية، أن كان ذلك مدخلاً اعتمدته الفرضية الإنجازية لاقتراح كيفية للتمثيل للقوة الإنجازية، بواسطة الإجراءات التوليدية.

٢.تعريفه :

---

(١) آفاق جديدة، ص ٣٢، ود. عبد المجيد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، ص٣٠، ٣١.

ويُعنى به أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، فالمراد به إيضاح الاختلاف بين ما يقال What is said، وما يقصد What is meant، فما يقال، هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية Face values، وما يُقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر؛ اعتمادًا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال، ووسائل الاستدلال، وهو ما يُعرَف بـ (الاستلزام الحواري)[1]، ويتبين ذلك من خلال المحادثة التالية: (أ) لم يبق لدي أي بنزين. (ب) توجد محطة على بعد أمتار. (جرايس ١٩٧٥).

فنلاحظ من حوار (أ) أن المراد ليس إخبار السامع عن نفاد ما لديه من وقود، وإنما يقصد طلب المساعدة، وهو المعنى الضمني؛ ومن ثم جاء حوار (ب) ملتزمًا بالتعاون فأخبره بأن هناك محطة لبيع الوقود، توجد على مسافة قريبة، كما أنها مفتوحة وتبيع الوقود؛ وهكذا تُفسِّر (المعاني الضمنية) بأنها "جوانب مقصدية في المعنى، ولها خصوصيات واضحة الملامح، وهي مستقاة من المعنى المباشر حسب استعماله في سياق محدد مشترك بين المتكلم والمخاطب"[2].

٣. أنواعه :

وقد نظر "جرايس" فرأى أن الاستلزام نوعان: استلزام عرفي conventional implicature واستلزام حواري conversational implicature، فأما الاستلزام العرفي، فقائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفك عنها مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب. ومن ذلك مثلا في الإنجليزية but ونظيرتها في اللغة العربية (لكن) فهي هنا وهناك تستلزم دائمًا أن يكون ما بعدها مخالفًا لما يتوقعه السامع مثل: My friend is poor but honest،

(١) د.محمود نحلة، آفاق جديدة، ص٣٣.
(٢) جيب براون، ج يول: تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق د. محمد لطفي الزليطني ود. منير التريكي، ط جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧م، ص٤١، ٤٢.

ومثل زيد غني لكنه بخيل. وأما الاستلزام الحواري فهو متغير دائمًا بتغير السياقات التي يرد فيها[1].

٤.شروطه :

يعتمد الاستلزام الحواري في إنتاجه على خرق أحد مبادئ التعاون الحواري عند "جرايس"[2]. وصيغة هذا المبدأ هي :

* ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه .. فبيْن أن هذا المبدأ يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه، وقد يكون هذا الهدف محددًا قبل دخولهما في الكلام، أو يحصل تحديده أثناء هذا الكلام. وهذه المبادئ التي تتوقع أن يكون المتكلم والمتلقي متعاونين في كون الحوار بينهما يتصف بـ :

١- مبدأ الكم Quantity: أن لا تقول من الكلام ما لا حاجة له.
٢- مبدأ الكيف Quality: أن لا تقول ما ليس عندك دليل عليه[3].
٣- مبدأ المناسبة Relevance: أن يكون كلامك مناسبًا للموضوع.
٤- مبدأ الطريقة Manner: أن تكون واضحًا محددًا موجزًا متجنبًا للغموض واللبس[4].

بهذه المبادئ يتم التعاون بين المخاطب والمتلقي في إنتاج حوار مثمر، إلا أن الواقع الفعلي يخالف هذه المبادئ؛ فغالبًا ما يخرق المتكلم أحد هذه المبادئ في حواره؛ لكي يصل بكلامه إلى مقصده الذي لا يستبين من حقيقة الألفاظ المستعملة فيه، بل لابد من الاستناد إلى ملابسات الموقف وقرائن السياق، بالإضافة إلى العرف لمعرفة مقصد المتكلم.

---

(١) د. محمود نحلة: آفاق جديدة، ص٣٣.
(٢) لقد عُرف المبدأ التداولي الأول للتخاطب باسم "مبدأ التعاون"؛ وورد نص هذا المبدأ في اللسانيات الحديثة عند الفيلسوف الأمريكي "بول جرايس"، إذ ذكره لأول مرة في دروسه المدونة بعنوان: "محاضرات في التخاطب"، ثم ذكره ثانيًا في مقالته الشهيرة: "المنطق والتخاطب"، د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، ١٩٩٨م، ص٢٣٨.
(٣) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، ص٨٤، ٨٥.
(٤) د. عبد المجيد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، ص٣١.

لا يخفى أن مبدأ التعاون الحواري قد فتح باباً واسعاً في تطوير التداوليات اللغوية، وتنويع الدراسات المتعلقة بموضوع التواصل الإنساني، لكن الاعتراضات التي وردت على هذا المبدأ والتعديلات التي أدخلت عليه، بلغت النهاية في الكثرة؛ بيد أنه لا يستوقفنا من ذلك في هذا الموضع إلا اعتراض واحد، وهو أن مبدأ التعاون والقواعد المتولدة منه لا تضبط إلا الجانب التبليغي من التخاطب، أما الجانب التهذيبي منه، فقد أسقط اعتباره إسقاطاً؛ ولا يفيد كثيراً في دفع هذا الاعتراض أن يُقال: إن "جرايس" قد أشار إلى هذا الجانب في عبارته التي جاء فيها: "هناك أنواع شتى لقواعد أخرى، جمالية واجتماعية وأخلاقية، من قبيل "لتكن مؤدباً" التي يتبعها عادة المتخاطبون في أحاديثهم، والتي قد تولد معاني غير متعارف عليها". فعلى الرغم من ذكر "جرايس" لجانب التهذيب من المخاطبة في هذه الإشارة، فإنه لم يهتم به؛ وذلك للأسباب الثلاثة الآتية :

أ. أنه لم يفرده بالذكر، بل جمع إليه الجانب التجميلي والجانب الاجتماعي؛ بوصف هذه الجوانب جميعاً لا تستجيب للغرض الخاص الذي جُعل للمخاطبة، ألا وهو نقل الخبر على أوضح وجه!

ب. أنه لم يبين كيف أن نباشر وضع القواعد التهذيبية، ولا كيف يمكن أن نرتبها مع القواعد التبليغية.

ج. أنه لم يتفطن إلى أن الجانب التهذيبي قد يكون هو الأصل في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية أو المباشرة.

وقد مثل الدكتور "محمود نحلة" بأمثلة موضحة لكيفية خرق تلك المبادئ سنعرضها فيما يلي :

١- في حوار يجري بين أم (أ) وولدها (ب):

أ- هل اغتسلت ووضعت ثيابك في الغسالة ؟   ب- نعم اغتسلت.

في هذا الحوار خرق أو انتهاك لمبدأ الكم؛ لأن الأم سألته عن أمرين، فأجاب عن واحد وسكت عن الثاني، أي أن إجابته أقل من المطلوب. ويستلزم هذا أن تفهم الأم أنه لم يضع ثيابه في الغسالة، وأنه لم يرد أن يجيب بنعم حتى لا

تشمل الإجابة شيئًا لم يقم به، ولم يرد أن يواجهها بتقاعسه عن وضع ثيابه في الغسالة.

٢- في حوار بين تلميذ (أ) وأستاذ (ب)، وكلاهما إنجليزي :

أ- طهران في تركيا، أليس هذا صحيحًا يا أستاذ؟

ب- طبعًا، ولندن في أمريكا!

في هذا الحوار انتهك الأستاذ مبدأ الكيف، الذي يقتضي ألا يقول إلا ما يعتقد صوابه، وألا يقول ما لا دليل عليه. وقد انتهكه الأستاذ عمدًا؛ ليظهر للتلميذ أن إجابته غير صحيحة، ويؤنبه على جهله بشيء كهذا، والتلميذ قادر على الوصول إلى مراد الأستاذ؛ لأنه يعلم أنّ لندن ليست في أمريكا، وذلك يستلزم أن الأستاذ يقصد بقوله شيئًا غير ما تقوله كلماته، وهو أن قول التلميذ غير صحيح.

٣- في حوار بين رجلين :

(أ) أين زيد؟ (ب) ثمة سيارة صفراء تقف أمام منزل عمرو.

وما قاله (ب) بمعناه الحرفي ليس إجابة عن السؤال، فهو ينتهك مبدأ العلاقة المناسبة بالموضوع، ولكن السامع في ضوء المبادئ الأخرى للتعاون يسأل نفسه ما هي العلاقة الممكنة بين وقوف سيارة صفراء أمام منزل عمرو وسؤالي عن مكان زيد، ثم يصل إلى أن المراد بهذا القول إبلاغه رسالة مؤداها أنه إذا كانت لزيد سيارة صفراء فلعله عند عمرو.

٤- في حوار بين رجلين :

(أ) ماذا تريد؟

(ب) قم، واتجه إلى الباب، وضع المفتاح في القفل، ثم أدره ناحية اليسار ثلاث مرات، ثم ادفع الباب برفق.

وواضح أن فيما قاله (ب) انتهاكًا لمبدأ من مبادئ الطريقة manner، وهو "أوجز" إذ كان يكفي أن يقال: افتح الباب، وإذا نظرنا إلى هذا القول في ضوء تحقق مبادئ الحوار الأخرى، كان لابد أن المتكلم يحاول به وجهًا غير ما يظهر، قد يكون مؤاخذته على ما يتميز به بين بطء وتكاسل[1].

• خواصه:

وقد قدَّم (جرايس ١٩٧٥م) خواصًا للاستلزام الحواري يمكن عرضها فيما يلي:

(١) الاستلزام الحواري يستدعي المعنى الضمني غير المباشر في مدة زمنية أقل مما يتطلبه تمحص المعنى المباشر، ويظهر ذلك من قصد المتكلم في المثال التالي:

(أ١) إن الجو بارد حقًا هنا، وهذه النافذة مفتوح.

(أ٢) أغلق النافذة من فضلك.

فنلاحظ أن الجملة الثانية قد عبرت عن مقصد المتكلم من الجملة الأولى؛ ومن ثم فعلى السامع أن يستنتج مراد المتكلم من الجملة الأولى (صيغة طلب غير مباشر)؛ فيستجيب لطلبه[2].

(٢) تناسب حقائق يفترض أن للمرسل إليه علماً بها سابقًا (بديهيات مشتركة أو وقائع خاصة ترجع إلى معارفه السالفة)، وتكوّن ضرباً من الأرضية تنبني عليها المنطوقات (التي من شأنها على العكس أن تناسب معلومات جديدة)، وتضمن اتساق الخطاب، في الحين الذي تتعهد فيه المنطوقات بتقدمه.

(١) د. محمود نحلة: آفاق جديدة، ص٣٦-٣٧.
(٢) تحليل الخطاب: ص٢٠٦.

وبهذه الصفة يتكفل بها ضرب من الصوت الجماعي وتتعلق حسب "ديكرو" بتعدد الأصوات التلفظية[1].

(٣) الاستلزام ممكن إلغاؤه، ويكون ذلك عادةً بإضافة قول يسد الطريق أمام الاستلزام أو يحول دونه، فإذا قالت قارئة لكاتب: (لم أقرأ كل كتبك)، فقد يستلزم ذلك عنده أنها قرأت بعضها، فإذا أعقبت كلامها بقولها: (الحق أني لم أقرأ أي كتاب منها)، فقد ألغت الاستلزام، وإمكان الإلغاء هذا، هو أهم اختلاف بين المعنى الصريح والمعنى الضمني، وهو الذي يُمكّن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه[2].

(٤) الاستلزام الحواري متصل بالمعنى الدلالي لا بالصيغة اللغوية التي قيل بها، فلا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات بأخرى ترادفها، ويظهر ذلك في هذا الحوار الذي وقع بين أختين:

(أ) لا أريدك أن تتسللي إلى غرفتي على هذا النحو.

(ب) أنا لا أتسلل، ولكن أمشي على أطراف أصابعي؛ خشية أن أحدث ضوضاء؛ فبالرغم من تغير الصياغة في قول (ب) فإن ما يستلزمه القول من عدم الرضا عن هذا السلوك لا يزال قائمًا.

(٥) الاستلزام يتغير بتغير السياقات التي يرد فيها، فالتعبير الواحد يؤدي إلى استلزامات مختلفة في سياقات مختلفة، فإذا سألت طفلاً يحتفل بيوم ميلاده: (كم عمرك؟) فهو طلب للعلم، وإذا سألت السؤال نفسه لصبي عمره خمسة عشر عامًا، فقد يستلزم السؤال مؤاخذة له على نوع من السلوك لا ترضاه له، ومثل ذلك أن يقول رجل سُرق متاعه يوم العيد: (تلك أفضل هدية)، ومن الممكن أن يقول هذه العبارة نفسها رجل تلقى رسالة من صديق قديم يوم العيد، أو طالب بُشّر بنجاحه ...الخ.

(٦) الاستلزام يمكن تقديره، والمراد أن المخاطب يقوم بخطوات محسوبة يتجه بها خطوة خطوة للوصول إلى ما يستلزمه الكلام، فإذا قال المتكلم: (هذه

---

(١) باتريك شارودو، ودومينيك منقنو: معجم تحليل الخطاب، ص٥٥١.
(٢) آفاق جديدة ص٣٨.

امرأة حديدية)؛ فهم السامع أن المتكلم يريد أن يُكسب هذه المرأة بعض صفات الحديد، كالصلابة، وقوة التحمل؛ وهذا ما يستلزمه القول؛ فيتحقق لدى السامع[1].

وهذه الخصائص المختلفة كانت ولا تزال موضوع نقاشات حادة بين المختصين في علم الدلالة والتداولية اللسانية. فهي إشكالية بقدر ما يمكن أن تكون المستلزمات عرضة لمختلف أشكال "المناورات"، وبقدر ما لا تتصرف كل أنماط المستلزمات بنفس الطريقة بالضبط. ذلك أن مجموعة المستلزمات واسعة تشمل أقساماً فرعية كثيرة تتقابل بحسب:

- طبيعة المحتوى الاستلزامي: استلزامات وجودية (العبارات المعرفية المستلزمة لوجود مرجعها)، مستلزمات فعلية أو ضد فعلية (بطرس يعرف أن "ق" تستلزم صدق "ق"، بينما يتخيل بطرس أن "ق" تستلزم على العكس كذب "ق")، مستلزمات تداولية (مرتبطة بشروط نجاح فعل اللغة، مثال ذلك: "أغلق الباب" تستلزم أن هناك باباً وأنه مفتوح زمن التلفظ بالقول)، ... إلخ .
- طبيعة الحامل الدال المسؤول عن المستلزم: دال معجمي (مثال أفعال التحويل: "توقف بطرس عن التدخين"، و"شرع بطرس في التدخين" يستلزمان على التوالي "بطرس كان يدخن في السابق"، و"بطرس لم يكن يدخن في السابق")؛ الروادف والروابط (مازال، ولكن، وحتى، ...إلخ)، بنية تركيبية (نحو الأمثلة المتفرعة: "إنما الذاهب بطرس" يستلزم أن "بعضهم ذهب"، أو استفهامات المكوّن: "متى تغادر؟" تستلزم "ستغادر"، و"لماذا لم تعد تحبني؟" تستلزم "لم تعد تحبني"، وهي قضية تستلزم هي نفسها حسب آلية مشهود بصحتها جيداً وهي الاحتضان الاستلزامي "كنت تحبني من قبل")[2].

ثانيا: الإشاريات (Deixis) :

(1) آفاق جديدة، ص38-40 بتصرف.
(2) باتريك شارودو، ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب ترجمة عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، ص155، 156.

مفهومها :

هي عنصر من عناصر التداولية، يُقصد بها كل ما يشير إلى ذات، أو موقع، أو زمن... وهي تترابط مع مفهوم المشير، إذ يُفهم عادةً من إشارية تعيين مكان وهوية الأشخاص، والأشياء، والعمليات، والأحداث، والأنشطة... بالنسبة إلى السياق المكاني والزماني الذي أنشأه وأبقاه عمل التلفظ. والواقع أن اللسانيين يتأرجحون بين ثلاثة تصورات للإشارية، كما بين ذلك "ل. دنون بوالو" :

١. الإشارية من حيث كونها ترد أشياء العالم وأحداثه إلى الموقع الذي يحتله المتكلم في المكان، وفي الزمان؛ ولأنه يوفر أمارة لمرجع قد تكوّن بعد.
٢. الإشارية من حيث كونها نمط تركيب مرجعي لا يفصل بين الجهة وحدث المرجع.
٣. الإشارية من حيث كونها عامل تناسق نصي (محورة، تبئير) تمكن من إدخال أشياء جديدة في الخطاب[1].

آراء التداوليين فيها :

تعددت المصطلحات المعبرة عنها لدى العلماء، فقد قال "براون" و"يول" نقلاً عن "هاليداي": (هي الأدوات التي نعتمد في فهمنا لها لا على معناها الخاص، بل على إسنادها إلى شئ آخر)[2]. على حين أشار "روبرت دي بوجراند" إلى أنها (الألفاظ الكنائية)[3]، وقد أطلق عليها "الأزهر الزناد" (العناصر الإحالية في اللغة) وعدّها من قبيل المعوّضات، وأشار إلى أنها تأتي تعويضًا عن وحدات معجمية (أسماء مفردة وما يضارعها من المركبات)، وهو يقصد المشار إليه أو المحيل إليه[4].

---

(١) باتريك شارودو، ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ص١٥٦، ١٥٧.
(٢) تحليل الخطاب، ص٢٢٠.
(٣) روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، ط عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٨م، ص٣٢٠.
(٤) د. الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصًا، ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م، ص١١٥، ١١٦.

وهي كلمات وتعبيرات في حاجة إلى سياق يبرز مدلولها، وبيان تفسيرها، ومعرفة ما تحيل إليه؛ ومن ثم فهي موضوعة للتواصل المباشر بين الناس لمعرفة غموضها، وما يستغلق على الفهم منها .

وتقوم على دراسة عناصر إنتاج الخطاب اللغوي التي تحصرها في :

١ ـ الأنا، ٢ ـ الهُنا، ٣ ـ الآن .

وتطلق على هذه العناصر الثلاثة الإشاريات : (Deixis) .

الأنا: المتكلم الذي يصدر عنه الخطاب.

الهُنا: المكان الذي يُنتج فيه الخطاب.

الآن: الزمن الذي يُنتج فيه الخطاب، أو اللحظة التي تتم فيها عملية التواصل.

هذه العناصر هي التي تحدد عنصر القصد في الملفوظ، ويمكن القول بأن :

ـ الأنا هي جميع الضمائر (المتكلم والمخاطب).

ـ والهُنا هي جميع أسماء الإشارة المعروفة وظروف المكان.

ـ والآن هي ظروف الزمان التي يمكن أن تكون بارزة أو مضمرة كما في الملفوظ مثلا :

(أمر) : اكتب الدرس .

التي تعد بنية سطحية تتضمن الضمائر الموجودة فيما يسمى بالبنية الضمنية أو العميقة : (أنا أقول اكتب أنت الدرس الآن هنا) .

ولكن كفاية المتكلم تحتفظ بها، لأنها لا تسمح بالتكرار، كما لا تسمح إلا بإنجاز ما هو ضروري لقيام عملية التواصل .

إذن هناك إشاريات صريحة، وهناك إشاريات ضمنية، والأكثر أن تكون الإشاريات ضمنية. لكن الخطاب اللغوي لا يتضمن دائماً هذه الإشاريات في البناء السطحي، مبقياً عليها في البناء اللغوي الضمني الموجود عند جميع المتكلمين بشكل موحد، أي تبقى في المكون البلاغي الذي يتولى تفعيلها بشكل ضمني .

لا بد من وجود مخاطب ومخاطِب في الاتجاه التلفظي، ولكننا لا نعتمد في المستوى اللغوي إلا مستوىً واحداً فقط فالاتجاه التلفظي هو حضور عيني للمتقابلين تتوافر فيه شروط اجتماعية وثقافية معينة، وفي مجموعة من الظروف والملابسات المتشابهة[1].

وتختص الإشاريات بهذه العناصر الثلاثة (الأنا، الهُنا، الآن) في الاتجاه التلفظي؛ لأنها تعني أن الخطاب الملفوظ بشكل وحدة غير قابلة للتجزيء، إذ يتم فيه البحث عن المرجع أي المكون الأساسي، الذي تُبحث فيه التداولية، فإذا غاب واحد من هذه المكونات الخطابية غاب المرجع .

وهذا المرجع لا يمكن أن يكون ثابتاً، بل هو مرتبط باللحظة التي يقع فيها الخطاب ؛ بدليل أننا نقول (الآن والهُنا) ولا نقول (غداً) .

كما أن هذه الدراسة لا تهتم بالكفاية اللغوية؛ لأنها تعدها تحصيل حاصل، ولكنها تهتم بالكفاية التواصلية، وتعضد هذه الكفاية بالمكون البلاغي؛ لأنك لا تستطيع أن تنقل معنى جملة إلى معنى آخر دون هذه الكفاية؛ فإذا فقد الإنسان المكون البلاغي سيصعب عليه إنتاج مقامات جديدة .

يجب ألا يُفهم من مصطلح (الإشاريات) أن اللغة لا تتضمن مكونات أخرى غيرها، ففي اللغة عناصر دالة، ومداخل معجمية، وعناصر إشارية، والمعوضات (الضمائر، إلخ)، وأزمنة الأفعال، وألفاظ العنوان، ...إلخ. إنه يتم تنسيب واضح لمفهوم الدلالة ومن ثم لمفهوم الحقيقة[2]. وهذا لا يعني أن (الأنا

(1) د. محمد السناني، الأساس المعرفي لمنظومة الإبداع (مقاربة لسانية - تداولية)، ص ٩١.
(2) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص: ١٣٢.

والهُنا والآن) غير معجمية أو دالة، بل هي دالة ولها مرجع، إلا أنها تبقى مضمرة في الكفاية اللغوية وتتولى الكفاية التواصلية إدراكها[1].

أنواعها :

اختلف العلماء في تصنيفها، فهناك من يُقسِّم الإشاريات إلى نوعين :

* عنصر إشاري معجمي، يشير إلى لفظ دال على ذات أو معنى مجرد مثل: علم الشخص أو الزمان أو المكان أو الصفة... إلخ .

* عنصر إشاري نصي، يشير إلى مقطع كامل، جملة أو جمل متوالية، ويمكن أن يبنى على الفضاء العام للنص، والعنصر هنا لا يدل على مدلول لفظ معجمي، بل يدل على مجموعة من المعاني العامة، والأحداث المفهومة من جمل كثيرة، ويمثل ذلك ما ورد في الإشارة الموسعة، والأمثلة الواردة من القرآن الكريم في لفظ (ذلك)[2].

وهناك من يُقسِّم الاشاريات إلى عدة أنواع تشتمل على : (الإشاريات الشخصية، والإشاريات الزمانية، والإشاريات المكانية، والإشاريات الموصولية، والإشاريات التخاطبية، والإشاريات الاجتماعية، بالإضافة إلى إشاريات الأعلام)، وسنبينها فيما يلي :

١- إشاريات شخصية : والمقصود بها تلك الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده مثل "أنا"، أو المتكلم ومعه غيره مثل "نحن"، والضمائر الدالة على المخاطب مفردًا أو مثنىً أو جمعًا، مذكرًا أو مؤنثًا[3]، وهي إما وجودية وإما ملكية .

فالوجودية تنقسم إلى : ضمائر المتكلم، أو المخاطب، أو الغائب، والملكية تنقسم إلى : ضمائر المتكلم، والمخاطب، والغائب، وهنا نلاحظ أن الضمائر وجودية أو ملكية تنقسم إلى ضمائر التكلم، أو الغياب، أو الخطاب،

---

(١) د. محمد الخطابي، الأساس المعرفي لنظرية الإبداع، ص ٩٧.
(٢) د. أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، مجلة دار العلوم، عدد خاص بعنوان العربية بين نحو الجملة ونحو النص، ٢٠٠٥م، ٢/٥٥٥، ٥٥٦.
(٣) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ١٧ ، ١٨.

فالوجودية الدالة على ذات مثل أنا، وأنت، ونحن، وهو، وهم، وهن...إلخ.
والملكية مثل: كتابي كتابك كتابهم كتابنا...إلخ.

وسواء كانت الضمائر وجودية أو ملكية، فإن الضمائر الدالة أو المحيلة إلى متكلم أو مخاطب إنما تعدّ من قبيل الإحالة خارج النص؛ أي أنها تحيل إلى شئ خارج للنص، كالضمير أنا، أو نحن، فإنه يصدق على ذات خارج النص، وكذلك عندما يخاطب الكاتب المتلقي؛ فيستخدم الضمير أنت أو أنتم أو أنتن، فإنه يحيل إلى مجموعة من الناس، هم أيضًا خارج النص[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ (طه/ ١٧/ ١٨) ففي هذه الآية نلحظ مطابقة المرجع للواقع، حيث تلك الإشارة محددة المرجع من خلال تحقيق العلاقة الوجودية بين العلامة "تلك"، وما تدل عليه "هي عصاي"، وهي تحيل إلى المستفهَم عنه[2].

ومن خلال إدراك أهمية الضمير الإشاري يمكن تفسير قول القائل (في مكتبتي بالمنزل وضعت "سيبويه" في مكان واضح. إنه مفيد للباحثين). إن الضمير في (إنه) لا يعود إلى "سيبويه"، إنما يعود إلى ما يُفهم من كلمة "سيبويه"، وهو كتابه الشهير، إذ لا يُعقل أن يكون "سيبويه" هو الموضوع في مكتبتي، وبقليل من المعرفة يتأكد لنا ذلك؛ ومن ثم فإن الإحالة إلى الأعلام بشكل مباشر، تيسر فهم الإحالة دائمًا، بحيث يمكن الاستبدال[3].

٢- إشاريات زمنية : هي الكلمات التي تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم، فزمان التكلم هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام، وإذا لم يُعرف زمان التكلم أو مركز التكلم الزماني التبس الأمر على السامع أو القارئ[4]، ومن الظروف الزمانية: الآن، غدًا، أمس، اليوم .

ومنها قوله تعالى: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ (يوسف/ ٥١) فكلمة "الآن" إشارة لزمان التكلم الذي وقع فيه الحوار بين الملك والنسوة اللاتي اعترفن

---

(١) د. أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ٢/ ٥٣٢، ٥٣٣.
(٢) السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق أحمد محمد الخراط، ط دار القلم، دمشق، د.ت، ٨ / ٢٤.
(٣) الاستبدال هو إمكانية حذف الضمير وإتيان العلم المقصود مكانه وإذا نجحت عملية الاستبدال دلت على سهولة الإحالة، د. أحمد عفيفي الإحالة في نحو النص، ٢/ ٥٤١.
(٤) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٩.

بطهارة يوسف عليه السلام وتنزيهه من كل ما نسب إليه، وقد يأتي زمن الحدث مغايراً لزمن التكلم فيُستدل بالمضي على الاستقبال مثلا وذلك لإفادة تحقق وقوعه، كما في قوله تعالى: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)(النحل/١)، ففي هذه الآية نلحظ زمان التكلم قد جاء وقت بعثة النبي ﷺ، إلا أن الزمن النحوي رغم كونه في صيغة المضي إلا أنه دالٌّ على المستقبل، وهذا في علم الغيب، وهو المقصود من مراد الله تعالى في سياق الآية متمثلاً في يوم القيامة[1].

٣- إشاريات مكانية : وهي عناصر إشارية تشير إلى مكان، يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان التكلم، أو مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربًا أو بعدًا أو جهة[2]، فإذا قال شخص "أحب أن أعمل هنا"، فهل هو يعني: في هذا المكتب، أو في هذه المؤسسة، أو في هذا المبنى، أو في هذا الجزء من المدينة، أو في هذه الدولة أو في غير هذا جميعا. فكلمة "هنا" تعبير إشاري لا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه.

وأكثر الإشاريات المكانية وضوحا هي كلمات الإشارة نحو "هذا وذاك" للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية وهو المتكلم، وكذلك "هنا وهناك" وهما من ظروف المكان التي تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم، وسائر ظروف المكان مثل "فوق وتحت"، و"أمام وخلف" ... إلخ، كلها عناصر يشار بها إلى مكان لا يتحدد إلا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه[3]. وتتفق أسماء الإشارة مع ضمائر الغياب في وظيفتها الإشارية، إذ إنها عادة ما تشير إلى مكان الحدث، وهي تختلف قربًا وبعدًا[4]، ومنه قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) (البقرة/ ٢) فإن قلت: لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد؟ قلت: وقعت الإشارة إلى الم بعد ما سبق التكلم به وتقضى، والمتقضي في حكم المتباعد، وهذا في كل كلام. يحدث الرجل بحديث ثم يقول : وذلك ما لا شك فيه. ويحسب الحاسب ثم يقول :

---

(١) السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ٢ / ١٨٧.
(٢) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٢١.
(٣) السابق نفسه ص٢٢.
(٤) د. أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ٢/٥٢٣، ٥٢٤.

فذلك كذا وكذا؛ ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسَل إليه ، وقع في حد البعد ، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئا: احتفظ بذلك. وقيل معناه: ذلك الكتاب الذي وعدوا به[1].

٤ـ إشاريات موصولة : وهي الإشارة بالاسم الموصول، وقد أضافها "روبرت دي بوجراند"[2]، كما أشار إليها "الأزهر الزناد"[3]، من حيث إنها من الألفاظ الإشارية التي لا تملك دلالة مستقلة، بل تعود إلى عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب، وهي أيضًا تقوم على مبدأ التماثل والتطابق فيما هو موجود، يظهر ذلك جليًا في ذلك القسم المعروف باسم الموصول الخاص أو المختص مثل: الذي، التي، اللذان، اللتان، الذين، اللاتي...إلخ، ومنه قوله تعالى : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ) (الأعراف/ ١٥٧)، فالاسم الموصول (الذي) قد قوى المعنى؛ وذلك بإحالته السابقة إلى (الرسول النبي)؛ لكون المراد وصف الرسول بأنه مكتوب في التوراة[4]. كما أحيل إليه بالضمير العائد في (يجدونه)؛ وبذلك يكون للموصول إحالتان قبلية وبعدية.

وتشارك الأسماء الموصولة بقية الإشاريات الإحالية في عملية التعويض، فهي ألفاظ كنائية لا تحمل دلالة خاصة، وكأنها جاءت تعويضًا عما تشير إليه، وهي أيضًا تقوم بالربط الاتصالي من خلال ذاتها، ومرتبطة بما يأتي بعدها من صلة الموصول التي تصنع ربطًا مفهوميًا بين ما قبل "الذي" وما بعده، حيث يشير النحويون إلى أن تلك الصلة ينبغي أن تكون معلومة للمتلقي (السامع) قبل ذكر اسم الموصول، كما لو قلنا :

جاء الذي كان معنا بالأمس .

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ ١ /٣٢.
(٢) مقدمة مترجم الكتاب النص والخطاب والإجراء، ص٣٢.
(٣) نسيج النص، ص١١٨.
(٤) د. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٣م، ص٣١ ـ ٣٦.

فإنه ينبغي أن يكون المتلقي -حسب اعتقاد المتكلم- على علم بمن كان مع المتكلم بالأمس[1].

٥- إشاريات خطابية : قد تلتبس إشاريات الخطاب بالإحالة الشخصية؛ ولذلك أسقطها بعض الباحثين من الإشاريات. ولكن منهم من ميز بين النوعين، فرأى أن الإحالة يتحد فيها المرجع بين ضمير الإحالة وما يشير إليه مثل "زيد كريم وهو ابن كريم أيضاً"، فالمرجع الذي يعود إليه زيد وهو واحد. أما إشاريات الخطاب فهي لا تحيل إلى ذات المرجع، بل تخلق المرجع.فإذا كنت تروي قصة ثم ذكرتك بقصة أخرى فقد تشير إليها، ثم تتوقف قائلاً: "لكن تلك قصة أخرى"، فالإشارة هنا إلى مرجع جديد. على أن هذا التمييز بين إشاريات النص والإحالة إلى عنصر فيه ليس حاسماً، ذلك بأن الإحالة في قصاراها ضرب من إشاريات النص، أو هي أساس فيها.

وقد يبدو طبيعياً أن تستعار إشاريات الزمان، وإشاريات المكان؛ لتستعمل إشاريات للخطاب فكما يقال: الأسبوع الماضي يمكن أن يقال: الفصل الماضي من الكتاب، أو الرأي السابق، وقد يقال: هذا النص للإشارة إلى نص قريب، أو تلك القصة إشارة إلى قصة بعد بها القول.

لكن هناك إشاريات الخطاب تعد من خواص الخطاب، وتتمثل في العبارات التي تُذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم، فقد يتحير في ترجيح رأي على رأي أو الوصول إلى مقطع اليقين في مناقشة أمر، فيقول: "ومهما يكن من أمر"، وقد يحتاج أن يستدرك على كلام سابق أو يضرب عنه فيستخدم لكن أو بل، وقد يعن له أن يضيف إلى ما قال شيئاً آخر، فيقول: "فضلاً عن ذلك"، وقد يعمد إلى تضعيف رأي فيذكره بصيغة التمريض قيل، وقد يريد أن يرتب أمراً على آخر فيقول من ثم ... إلخ، وهذه كلها إشاريات خطابية خالصة[2].

٦- إشاريات اجتماعية : وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقات الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين، من حيث هي علاقة رسمية، أو علاقة ألفة

---

(١) د. أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ٢/٥٣٥.
(٢) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٢٤، ٢٥.

ومودة[1] ويمثلها الضمير "أنتم" في اللغة العربية للمفرد المخاطب، و"نحن" للمفرد المعظم لنفسه. وهي تشمل أيضًا الألقاب مثل فخامة الرئيس، الأمام الأكبر، جلالة الملك، سموّ الأمير، فضيلة الشيخ، كما تشمل أيضًا السيد، والسيدة، والآنسة. ويدخل فيه أيضًا: حضرتك، وسيادتك، وسعادتك، وجنابك، وقد يقتصر استعمال بعضها على الرجال مثل معالي الباشا، وقد يقتصر بعضــها على النساء مثل الهانم. ومن ذلك في اللغة العربية استعمال حامل، وحُبلى، وكنيف، ومرحاض، ودورة مياه، وحمام، وتواليت، ومنها استخدام عقيلته، وقرينته، وحرمه، وزوجته، وامرأته[2].

وظاهر أن الإشاريات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي[3].

٧- إشاريات أعلام : غدت الإحالة، منذ "فريجة" Fregh ، المشكل المركزي في فلسفة اللغة، أعني بالإحالة (...) العلاقة بين عبارات مثل الأوصاف وتلك الأسماء بالإحالة إليه، من جهة أخرى.

إذا كان "سيرل" يذكر اسم العلم، فلأنه مثل موضوع اهتمام مخصوص لدى التداوليين الذين رأوا فيه خير ممثل لمشكلة الأسماء (nomination)، ويقصد "بالأسماء" «تمثيل المرجع بواسطة العلامة». وإنّ القول بأن الاسم يمثل الشيء هو قول «ذو بداهة مخادعة»، ذلك أنّ مفهوم "التمثيل" مفهوم هش. وهل تقوم الأسماء الأعلام بالإحالة بالطريقة ذاتها التي تقوم العبارات المرجعية بالإحالة بها؟. يصوغ "سيرل" المشكل بطريقة مثيرة شيئًا ما، متسائلا عما إذا كانت الأسماء الأعلام ذات معنى.

أما أشد الإجابات كلاسيكية على ذلك المشكل، فتلك التي أتى بها ج. س. ميل (J.S.Mill) المنطقي البريطاني، إذ بين في كتابه "نظام المنطق" (لندن ١٩٤٩) أن الأسماء الأعلام ليس لها معنى. فهي تصرح ولا تدل دلالة حافة، أي أنها تُحيل إلى الموضوع دون أن تقول عنه شيئًا، ودون أن تصف أي مظهر من مظاهره، مثلما كان "فيتجنشتاين" (Wittgenstein) يؤكد

(١) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٢٥.
(٢) د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط٥، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٣١.
(٣) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٢٥، ٢٦.

ذلك. وعندما تستعمل أسماء الأعلام في الإسناد؛ فإنها تصبح أسماء جنس، ويمكنها بذلك أن تدل على خصيصة، كما في قولك "إنه عنترة" وبشكل من الأشكال، فإننا نقع هنا في النظرية التقليدية التي تمثل فيها العلامة المرجع مباشرة[1].

تبقى ثمة مشكلة تتمثل في إمكانية استعمال قضية مرجعية، أو اسم علم "خارج استعمالها العادي" قيمة أخرى غير القيمة للمرجعية الخاصة. ويقارب "سيرل" المثالين التاليين :

١ ـ كان سقراط فيلسوفًا .
٢ ـ "سقراط" خمسة حروف .

ففي المثال الثاني، لا نحيل إلى الشيء الذي يمثله "سقراط"، بل نحيل إلى الكتلة التي تمثل الشيء. ويتعلق الأمر بقدرة أساسية للسان تسمى "الطابع الانعكاسي" تسمح باستعمال اللسان للحديث عن اللسان. إنه "ما وراء اللغة"[2]. وهنا لم يعد المرجع خارجًا عن عالم العلامات. ولقد اهتممنا ـ تقليديًا ـ باختلاف استعمال "سقراط" في الحالتين (١، ٢)، وذلك بالتمييز بين الاستعمال (الإحالة إلى الشيء) وبين الذكر (الإحالة إلى الكلمة، أو ما يسمى "الدلالة الذاتية"[3].

خصائصها :

هذه الألفاظ الإشارية التي تُستعمل للإحالة، لها سمات يمكن حصرها فيما يلي :

١ ـ إنها خالية من الدلالة، فلا تحتوي على شئ بذاتها، وإنما بما تشير إليه من صفة، أو ذات، أو شئ مفرد، أو أشياء متعددة، ومتنوعة؛ وعلى هذا فهي مفرغة من الدلالة، أو أنها غير ذات معنى، ما لم يتعين ما تشير إليه، فهي أشكال فارغة في المعجم الذي يمثل المقام المصفر، وهي تقوم بوظيفة

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص:١٢٥: ١٢٧.
(٢) السابق نفسه ص:١٢٩: ١٣٠.
(٣) نحو قولك "زيد كلمة تتكون من ثلاثة أحرف"، فزيد في هذا المثال ذات دلالة ذاتية.

تعويض الأسماء وتتخذ محتوى ما تشير إليه[1]، وهي ضرورية أيضًا في صنع ذلك الاتساق المعنوي.

٢- يتسع مداها عند التطبيق، فتارة يشير اللفظ الإشاري إلى شئ سابق، وأخرى تشير إلى شئ لاحق، وتارة يشير إلى ما هو قريب، وأخرى يشير إلى ما هو بعيد، وتارة يشير إلى معنى، وأخرى يشير إلى ذات، وتارة يشير إلى جملة، وأخرى يشير إلى مجموعة من الجمل...إلخ.

٣- اللفظ الإشاري أقصر غالبًا، مما يدل عليه أو مما يشير إليه من الألفاظ فالمتأمل يلاحظ قصر الألفاظ الإشارية بشكل واضح عما يشير إليه من الألفاظ في الإحالة[2].

وتتفق فكرة الاختصار مع قانون "زيف"، الذي أشار إليه "روبرت دي بوجراند"[3] حيث يقول القانون: "كلما كثر استعمال الكلمة تعرضت لأن تكون أو أن تصبح أقصر" وهذا ليس ببعيد عن العربية، فالعربية سبقت هذا القانون، لأن الاختصار مذهب مهم من مذاهب العربية، ولهذا قال "السيوطي"[4]: "إن الاختصار هو جُلّ مقصود العرب، وعليه مبني أكثر كلامهم"، وقد تحدث عن الضمائر قائلا: "هي أخصر من الظواهر حيث وقع عنصر لغوي محل عنصر لغوي آخر؛ بحيث يتضمن الأول معنى الثاني، مع اختلافه عنه في قلة عدد حروفه"[5].

٤- لابد من إخضاع هذه الألفاظ لمجموعة من الضوابط عند استعمالها، حتى لا تتحول دلالاتها إلى إشكالية لا فائدة من ورائها غير الغموض، فعندما تتعدد المرجعيات التي يمكن أن يشار إليها بلفظ واحد؛ فإن ذلك يمثل إشكالية؛ ومن ثم فلابد من الوضوح.

٥- لابد من التأكيد هنا على كفاءة الألفاظ الإشارية، حيث يشير "روبرت دي بوجراند" إلى أن تلك الكفاءة تظهر حين تستعمل تلك الألفاظ للدلالة على

---

(١) نسيج النص، ص١١٦.
(٢) د. أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ٢/٥٣٦، ٥٣٧.
(٣) النص والخطاب والإجراء له ص٣٢٠.
(٤) الأشباه والنظائر، ط دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ ١/٢٨.
(٥) د. أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٥١.

قطع طويلة من الخطاب الذي ينشط مساحات كبيرة من المعلومات، وقد مثل لذلك د. تمام حسان بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ (ص/ ٥٥) حيث إن الإشارة في "هذا" تشير إلى ما سبق وتستوعب جزءًا كبيرًا من الخطاب[1].

٦- يمكن أن يعطي اللفظ الإشاري معطى جديدًا ليس في النص، فالمتكلم بإمكانه صياغة نصه بشكل يمكن أن يقدم فيه معلومات جديدة تفهم من طريقة الإشارة. وفي هذه الحالة يكون المتلقي مضطرًا لإضافة هذه المعلومات الجديدة إلى ذهنه لتسوية الدلالة بين اللفظ المشير والمشار إليه[2].

ثالثًا: الافتراض السابق (presupposition) :

مفهومه :

هو أحد عناصر التداولية، حيث يوجه المتكلم حديثه إلى السامع على أساس مما يُفترض سلفًا أنه معلوم له، وقد لوحظ أن الافتراض السابق قد يكون مرتبطًا ببعض العبارات اللغوية دون بعض. فإذا قال رجل لآخر: أغلق النافذة، فالمفترض سلفًا أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مبررًا يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة، وأن المتكلم في منزلة الآمر، وكل ذلك موصول بسياق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب؛ من أجل ذلك كانت دراسة الافتراض السابق مثار اهتمام الباحثين منذ أوائل العقد السابع من القرن العشرين؛ لما سببه من مشكلات حقيقية لكل النظريات التحويلية، فضلاً عن أنها شغلت جانبًا أساسيًا من اهتمام علماء الدلالة، ثم برزت إلى موقع الصدارة من اهتمام الباحثين في أوائل العقد الثامن، حين أصبحت الوجهة التداولية في دراسة المعنى بديلاً لا غنى عنه للوجهة الدلالية في هذا الجانب[3].

أنواعه :

---

(١) مقدمة كتاب النص والخطاب والإجراء، ص٣٢.
(٢) د. أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ٢/٣٨، ص٢٧.
(٣) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٢٦، ٢٧.

يميز التداوليون بين الاستعمال العام للفظ الافتراض السابق في لغة الحياة اليومية، والاستعمال الاصطلاحيّ في الدرس التداولي الذي هو أضيق مدى من الاستعمال العام. فمن الاستعمال العام أن يقال : (كتب زيد رسالة إلى عمرو) فيفترض السامع سلفًا أن عمرًا يقرأ، وكذلك إذا قيل : (إما أن يكافأ زيد وإما أن تكافأ زوجته) فيفترض السامع سلفًا أن لزيد زوجة، وأما الاستعمال الاصطلاحي فهو مقيد باستدلالات تداولية بعينها، تحملها تعبيرات لغوية معينة، ويمكن الوصول إليه ببعض الاختبارات اللغوية[1].

كما ميز بعض الباحثين منذ وقت مبكر من العقد السابع من القرن العشرين بين نوعين من الافتراض السابق: المنطقي أو الدلالي، والتداولي، فالأول مشروط بالصدق بين قضيتين، فإذا كانت (أ) صادقة كان من اللازم أن تكون (ب) صادقة، فإذا قلنا مثلاً: (إن المرأة التي تزوجها زيد كانت أرملة)، وكان هذا القول صادقًا أي مطابقًا للواقع، لزم أن يكون القول: (زيد تزوج أرملة) صادقًا أيضًا، إذ إنه مفترض سلفًا، وأما الافتراض التداولي السابق فلا دخل له بالصدق والكذب، فالقضية الأساسية يمكن أن تُنفى دون أن يؤثر ذلك في الافتراض السابق، فإذا قلت مثلاً (سيارتي جديدة) ثم قلت (سيارتي ليست جديدة) فعلى الرغم من التناقض في القولين فإن الافتراض السابق وهو أن لك سيارة لا يزال قائمًا في الحالين[2].

الفرق بين الافتراض السابق والاقتضاء :

.وقد ميَّز بعض الباحثين أيضًا بين الافتراض الدلالي السابق والاقتضاء. علاقة بين جملتين أو قضيتين يقتضي صدق الأولى منهما صدق الثانية، فإذا كانت الجملة: "أرى حصانًا" صادقة، لزم أن تكون الجملة : "أرى حيوانًا" صادقة أيضًا، فأنت لا تستطيع أن تقبل الأولى وترفض الثانية، وقد أصبح الاقتضاء في الدراسة الدلالية المتأخرة مقابلاً للافتراض الدلالي السابق على أساس من أن كذب إحدى الجملتين يؤدي إلى نتيجة مختلفة، فإذا كان قولك "أرى حصانًا" كاذبًا فإن مفهوم الاقتضاء يوجب أن يكون قولك "أرى حيوانًا" إما صادقًا وإما كاذبًا، لكن مفهوم الافتراض الدلالي السابق يقتضي أنه إذا كانت

---

(1) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٢٧، ٢٨.
(2) السابق، ص٢٨، ٢٩.

الجملة الاولى كاذبة فإن الثانية يجب أن تكون صادقة فقولك مثلاً: "توقف زيد عن ضرب عمرو" يفترض سلفًا أن زيدًا كان يضرب عمرًا، وتظل هذه الجمل صادقة إن كذبت الأولى. وظاهر أن الالتباس بين المفهومين لا يكون إلا في الجمل الخبرية المثبتة، فالاقتضاء مقيد بها، في حين أن الافتراض السابق لا يتقيد بذلك، فضلاً عن أنه قد يكون إنشاءً أمرًا، أو استفهامًا، أو تعجبًا، أو غير ذلك[١].

الفرق بين الافتراض السابق والقول المضمر يتلخص في :

١ـ يكون الافتراض يكون آنيًا سابقًا على القول. أما القول المضمر فيُستنبط من الفعل الكلامي، ويكون متفرعًا عنه[٢].ومثال ذلك قول القائل : "إن السماء تمطر" .

إن السامع لهذا الملفوظ قد يعتقد أن القائل أراد أن يدعوه إلى :

- المكوث في بيته .

- أو الإسراع إلى عمله حتى لا يفوته الموعد .

- أو الانتظار والتريث حتى يتوقف المطر .

- أو عدم نسيان مظلته عند الخروج .

وقائمة التأويلات مفتوحة مع تعدد السياقات والطبقات المقامية التي ينجز ضمنها الخطاب.

والفرق بينه وبين الافتراض السابق، أن الأول وليد السياق الكلامي، والثاني وليد ملابسات الخطاب.

خصائص الافتراض السابق :

(١) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٢٩، ٣٠.
(٢) د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٣٢.

وقد لحظ بعض الباحثين أن الافتراض السابق قد يرتبط بألفاظ وتراكيب تدل عليه، ولفتوا إلى أن هذا الأمر لم ينل ما يستحقه من عناية الدارسين، فلم يظفر بعد بدراسة شاملة، ومما أوردوه من ذلك مما له نظير في العربية الأزواج الآتية من الجمل التي يكون الافتراض السابق فيها مرتبطاً ببعض العناصر اللغوية دون بعض، ولنتأمل الأمثلة الآتية :

(١) أ ـ زيد اغتيل سنة ١٨٦٨.

ب ـ زيد قتل سنة ١٨٦٨.

فاستعمال الفعل اغتيل في الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا بأن زيداً كان شخصية سياسية بارزة، لكن هذا الافتراض غير متحقق في الفعل قتل في الجملة (ب).

(٢) أ ـ هل توقفت عن التدرب على المصارعة؟

ب ـ هل حاولت أن تتدرب على المصارعة؟

فاستعمال الفعل (توقفت عن) في الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا بأن المخاطب كان يتدرب على المصارعة، وهو غير متحقق في الفعل حاول في الجملة (ب).

(٣) أ ـ لم يتمكن أحد من حمل الصخرة حتى زيد.

ب ـ لم يتمكن عمرو ولا زيد من حمل الصخرة .

ففي الأولى يتضمن استعمال الحرف (حتى) افتراضًا مسبقًا بأن زيدًا أقوى من غيره ممن حاولوا حمل الصخرة وأشد، أو أنه متميز دونهم بقدرته على رفع الأثقال، وهذا غير متحقق في استعمال الحرف العاطف (الواو)، ورغم ذلك إلا أن زيدًا في الجملتين لم يتمكن من حمل الصخرة[1].

---

(١) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٣٠، ٣١.

العوامل المؤثرة في الافتراض السابق :

- المعلومات المختزنة في ذهن كل من المتكلم والسامع : وتخص هذه الافتراضات السابقة معلومات عن خلفيتهم، وخصائص الموقف، وسير المحادثة عند تلك اللحظة والمنظورات والأراء المسبقة المشتركة وما إلى ذلك. والنتيجة هي عبارة يعتمد تفسيرها على المصادر الثنائية في اللغة والافتراضات السابقة. ويركز نهج "جومبان" في دراسة التفاهم التواصلي على مجال من المصادر التفسيرية التي تم تجاهلها في المحاولات السابقة لتفسير التواصل، وكونه مسألة معرفة باللغة المشتركة واستعمال تلك اللغة[1]؛ ومن ثم حرص التداوليون على ضرورة الاهتمام بسياق التلفظ بما فيه من افتراضات منطقية وأخرى تداولية، كما يتضح من المثال التالي :

أ- نقل محمد سكنه إلى القرية.
ب- ما زال محمد حيًا.

إذ لا يمكن التلفظ بالجملة الأولى، ولا تكون مقبولة، إلا بالافتراض التداولي المعبر عنه في الجملة الثانية[2].

- الإطار المتصل بالافتراض السابق : ويرتبط بالافتراض السابق مصدر تواصلي آخر —وهو الإطار- الذي يراه "جومبان" بالدرجة نفسها من الأهمية في تفسير كيف يتمكن المتحدثون من فهم بعضهم بعضًا، على الرغم من الخصائص الغامضة التي تبدو ظاهرة على عباراتهم. والإطار مخطط تفسيري يحدد هوية المتكلم وسامعيه في حديث معين، من حيث كونه مثالاً على النوع المحدد من الحدث (التواصلي). والإطار هو الذي يفسر إدراكهم المتبادل أنّ ما يجري في لحظة معينة في المحادثة هو —مثلاً- إلقاء نكتة أو تقديم شكوى أو إرشادات إلى مكان ما، أو سرد قصّة أو تقديم اقتراح، أو تفسير ما حدث، أو المضايقة بالمزاح، وغيرها. فإذا اتفق المتكلم والسامع على الإطار التفسيري لمحادثة

(1) د. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص215.
(2) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص17، 18.

جارية، عندئذ سيحدد على وفق ذلك مدى المعنى المحتملة التي يعزونها إلى عبارة معيّنة، وبذلك تزداد فرصة أنهم سيفهمون العبارة بالطريقة نفسها[1]، بيد أن هذا لا يعد كافياً؛ إذ إن بعض الجمل تكون مناسبة في سياق ما، في حين لا تكون كذلك في سياق آخر، مثل :

أ- من يريد برتقالاً؟
ب- من يريد شيئاً من البرتقال؟

إذ لا يتلفظ المرسل بخطابه، إلا عند انتفاء يقينه بالرغبة في البرتقال، من عدمها، ولعله يخمن أنه غير مرغوب فيه مطلقاً. أما في الخطاب الثاني فهو يفترض رداً بالإيجاب، لوجود الرغبة .

٣. تذكر "لاكوف" أن الجمل هي التي تعكس توجه المرسل نحو سياقه الاجتماعي في الحالات المعقدة تلك، وبالتحديد افتراضاته نحو :

١- الناس الذين يتواصل معهم، من حيث شعورهم نحوه، ورتبتهم الاجتماعية مقارنة برتبته.
٢-موقفه الحقيقي في المحيط الذي يتواصل فيه، من حيث مدى أهمية المعلومات التي يريد تبليغها، وهل يريد تبليغها؟ ودرجة رسمية موقف التلفظ.
٣-قراراته المبنية على الافتراضين (أ،ب)، حسب الأهداف التي يريد تحقيقها من خلال فعله التواصلي: هل يريد تعزيز الفروق التراتبية بينه وبين المرسَل إليه؟ أم يريد محوها؟ أم إن كل ذلك لا يهمه مطلقاً. وهل يريد أن يضفي على المرسَل إليه شيئاً من الأهمية، أو أنْ يتملق له، أو أن يسمّه بالظرف؟ أو هل يريد تغيير العالم الحقيقي؟ أم لا؟ وغير ذلك من الأسئلة[2].

أهميته :

---

(١) أعلام الفكر اللغوي ص٢٤٦.
(٢) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ص٩٨.

يبين "جوفمان" أن المتكلمين يدركون (في اللاوعي) أن سامعيهم يعتمدون على الافتراضات السابقة في محاولتهم فهم ما يقال لهم، ويعتقد أن للمتكلمين بدورهم يدركون أن من مسؤوليتهم – تلك المسؤولية التي أطلق عليها "جوفمان" مصطلح (شرط اللباقة) – تقديم مساهماتهم في المحادثة الدائرة بطريقة تمكن سامعيهم من فهم المعنى المقصود، بالاعتماد على الافتراضات السابقة المتوافرة لديهم. (ومهما يكن من أمر فيجب توجيه نشاطنا إلى عقل الآخر أيْ إلى مقدرة الآخر على قراءة كلماتنا وأفعالنا؛ لتكون دليلاً على مشاعرنا وأفكارنا وقصدنا. وهذا يقيد ما نقول ونفعل، بيد أنه يسمح لنا أيضًا أن نجعل الآخر يقبل بالعالم الذي يقتبس منه ما شاء من التلميحات[1].

رابعاً : الحجاج Argumentation .

مفهومه :

لغةً : تذكر المعجمات العربية أن "حج" تأتي لمعان: أولها معنى "القصد" ويظهر من قولنا: "حج البيت الحرام" أي قصده بأعمال مخصوصة، وثانيها معنى "الاستدلال"، كما في قولنا: "حاجه فلان، فحجّه" أي "غلبه بالحجة"، وثالثها "المحجة" أي "الطريقة الواضحة"، ومنه "الحجة" أي "البرهان"[2].

اصطلاحاً : الحجاج هو كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها[3]؛ ومن ثم فالحجة عنصر دلالي، متضمن في القول، يقدمه المتكلم على أنه يخدم ويؤدي إلى عنصر دلالي آخر، والذي يُصيرها حجة، أو يمنحها طبيعتها الحجاجية هو السياق، فما يمكن أن يكون حجة في هذا السياق قد لا يكون كذلك في سياق آخر، حتى لو تعلق الأمر بالمحتوى القضوي نفسه، أو بالحدث نفسه المعبر عنه داخل القول.

وقد تتحقق الحجة على شكل لفظة، أو قول، أو خطاب بأكمله. ولنتأمل المثال التالي :

---

(١) أعلام الفكر اللغوي، ص٢٤٥.
(٢) أبو البقاء الكفوي، الكليات، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م، ص٤٠٥، ٤٠٦.
(٣) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٢٦، البعد التداولي في الخطاب القرآني، ص٣٦.

- لقد وجدنا الآلة التي قُتِلَ بها الضحية عند زيد.

فهذا القول يتضمن حجة، ووجود الآلة عند زيد، حجة على أنه هو القاتل، ويكفي أن يتلفظ المتكلم بهذه العبارة التي هي في الوقت ذاته حجة لغوية؛ ليكون بذلك قد حدد وجهة الخطاب، وحدد المسار الذي ينبغي أن يسير الحوار فيه، بل ومسار البحث الذي يقوم به رجال الشرطة. وإذا سلم المخاطب أو المستمع بهذه الحجة، فهو ملزم بقبول النتيجة التي يمكن أن تُستنتج منها، ومعلوم أن النتائج الممكنة أو المحتملة تتعدد بتعدد السياقات التي ترد فيها الحجة المقصودة[1].

ويُستنتج مما سبق أن الحجاج بمعناه الاصطلاحي، يدل على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب، والمدرجة في اللسان، ضمن المحتويات الدلالية. والخاصية الأساسية للعلاقة الحجاجية أن تكون درجية أو قابلة للقياس بالدرجات، أي أن تكون واصلة بين سلالم .

ويرتبط الحجاج بمفاهيم أساسية نحو السلم الحجاجي والتوجيه الحجاجي، فهما يختصان إذن بالعلاقة الحجاجية، سواء أحُددت هذه العلاقة لسانيا أم اندرجت تداوليا .. مثال :

- العشاء تقريبا جاهز .

هذه الجملة تعني أن العشاء ليس جاهزاً عند التلفظ بها، فلو كان جاهزاً لما احتيج إلى المُعدل (تقريبا)، ولكانت الدعوة إلى الأكل أولى من الإخبار عن الجاهزية؛ إذ المقام مقام ضيافة .. فإذا سمينا جاهزية العشاء (ق) وسمينا عدم جاهزيته (لا-ق)، فإن الجملة المذكورة تدل على (لا-ق) ولكن لننظر في المثال التالي:

- تقريبا أنهيتُ قراءة الكتاب .

إن سامع هذه الجملة لا يهتم بأن (تقريبا) تؤدي معنى (لا-ق)، أي (عدم إنهاء قراءة الكتاب)، بل يهتم بأن مسألة الإنهاء في حكم المحسومة، وإن لم تتحول إلى واقع. وهذا ما أشرنا إليه بالقول إن جملة لها شكل: تقريبا ق، لا

(1) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص127، 128.

تستدعي موضعاً يمكن أن تستعمله جملة لها شكل لا-ق؛ وذلك لأن العرف الجاري في المحادثات يركز على تفويت في القيمة المنطقية للقول لصالح قيمة تداولية تواصلية[1].

الفرق بين الحجاج والبرهنة أو الاستدلال :

- ولأخذ فكرة واضحة عن مفهوم "الحجاج" Argumentation ينبغي مقارنته بمفهوم البرهنة Demonstration أو الاستدلال المنطقي. فالخطاب الطبيعي ليس خطاباً برهانياً بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو لا يُقدم براهين وأدلة منطقية، ولا يقوم على مبادئ الاستنتاج المنطقي. فلفظة "الحجاج" لا تعني البرهنة على صدق إثبات ما، أو إظهار الطابع الصحيح Valide لاستدلال ما من وجهة نظر منطقية. ويمكن التمثيل لكل من البرهنة والحجاج بالمثالين التاليين :

  - كل اللغويين علماء .

    زيد لغوي إذن زيد عالم .

  - انخفضت درجة الحرارة .

    إذن سينزل المطر.

يتعلق الأمر في المثال الأول ببرهنة أو بقياس منطقي، أما في المثال الثاني، فإنه لا يعدو أن يكون حجاجاً أو استدلالاً طبيعياً غير برهاني .

واستنتاج أن زيداً عالم، في المثال الأول حتمي وضروري، لأسباب منطقية، أما استنتاج احتمال نزول المطر في المثال الأخر فهو يقوم على معرفة العالم، وعلى معنى الشطر الأول من الجملة، وهو استنتاج احتمالي[2].

---

(1) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص21، 22.
(2) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص14، 15.

- إن الأقوال التي يتكون منها استدلال ما مستقلة بعضها عن بعض ، بحيث إن كل قول منها يعبر عن قضية ما، أي يصف حالة ما، أو وضعا ما من أوضاع العالم، باعتباره وضعا واقعيا أو متخيلا، ولهذا فإن تسلسل الأقوال في الاستدلال ليس مؤسّسًا على الأقوال نفسها، ولكنه مؤسس على القضايا المتضمنة فيها، أي على ما نقوله بشأن العالم[1]. أما الحجاج فهو مؤسس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها، واشتغالها داخل الخطاب. ونوضح هذا بالمثال الآتي :

- أنا مُتعَب ، إذن أنا بحاجة إلى الراحة .

إذا نظرنا في الجملة السابقة سنجد أنها تتكون من حجة ونتيجة، والحجة يتم تقديمها لتؤدي إلى نتيجة معينة. التعب يستدعي الراحة، فالتعب دليل وحجة على أن الشخص المعني بالأمر بحاجة إلى أن يرتاح .

إن الحجة عبارة عن عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر ، والحجة قد ترد في هذا الإطار على شكل قول، أو فقرة، أو نص، أو قد تكون مشهدا طبيعيا، أو سلوكا غير لفظي إلى غير ذلك. والحجة تكون ظاهرة كما تكون مضمرة بحسب السياق، والشيء نفسه بالنسبة إلى النتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما، ويمكن أن نبين ذلك بهذه الأمثلة :

- أنا متعب إذن أنا بحاجة إلى الراحة .

تم التصريح بالحجة والرابط والنتيجة في هذا الملفوظ .

- أنا متعب ، أنا بحاجة إلى الراحة .

أضمر الرابط في هذا المثال .

- أنا متعب .

(1) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص17، د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص27، 28.

لم يصرح هنا إلا بالحجة وُضمرت النتيجة التي يتم استنتاجها من السياق .

ـأنا بحاجة إلى الراحة .

ذكرت النتيجة وأضمرت الحجة .

يبقى أن نشير إلى أن العلاقة التي تربط بين الحجة والنتيجة هي التي تُدعى "العلاقة الحجاجية"، وهي تختلف بشكل جذري عن علاقة الاستلزام أو الاستنتاج المنطقي[1].

تاريخ الحجاج :

(١) عند المحدثين :

كان ميدان الحجاج يعتمد أساسا قبل "ديكرو" على البلاغة الكلاسيكية لـ"أرسطو"، أو للبلاغة الحديثة لـ"بيرلمان"، أو يعتمد على المنطق الطبيعي لـ"جرايس"، أما نظرية الحجاج في اللغة فقد وضع أسسها اللغوي الفرنسي ديكرو" منذ سنة ١٩٧٣م، وهي نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانيات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤداها: أننا نتكلم عامة بقصد التأثير[2].

كما خصص "أ.ديكرو" تحليلا تداوليًا "للحجاج" بما أنّ المقاربة التداولية تركز على استراتيجيات العمل. لقد اشتغل تحديدًا على ظواهر مرتبطة مباشرة بالملفوظ الحجاجي. ويبين "ديكرو" أن بنية الملفوظ اللسانية الداخلية، وأنّ استعمال الروابط الإشارية والمُوجّهات تحديدًا، كل ذلك يمنح أدوارًا مخصوصة لعناصر الملفوظ الأخرى. من ذلك مثلا "لم..." و"بعض" في الملفوظين: «زيد لم يقرأ كلّ كتب الجاحظ» و«قرأ عمرو بعض كتب الجاحظ». فالملفوظان يخبراننا بأمر متطابق ("زيد وعمرو كلاهما قرأ بعض كتب الجاحظ ولم يقرأها

(١) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص ٢٠، د. قدور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، ص ٣٨، ٣٩.
(٢) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ص ٢٢٦، د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص ١٤.

كلها"). لكن الملفوظ الأول يؤدي بنا إلى تأويل سلبي (مثل قولنا: «... إذن فهو غير قادر على كتابة مقال عن آثار الجاحظ»)، في حين يؤدي بنا الملفوظ الثاني إلى تأويل إيجابي (مثل قولنا: «فهو أهلٌ لأن يكتب مقالا في المسألة»)[1]. وبالطريقة ذاتها درس "ديكرو" عن قرب الاشتغالات التداولية لمختلف المفردات الجارية في الخطاب الحجاجي (لكن، ولأنّ، وبما أن ....)[2].

(٢) عند القدماء :

إن اعتبار القدماء وبعض المحدثين الحجاج مرادفا للجدل، واستعمالهم أحدهما معطوفا على الآخر؛ باعتبارهما مترادفين، من شأنه أن يضيق مجال الحجاج ويخرقه في الجدل ، والحال أن الحجاج أوسع من الجدل، فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدل . فإذا كان الجدل يمثل القسم الإقناعي من الخطاب، كما قال "أوليفيي روبول" فإنّ الحجاج هو جوهر الخطابة من حيث كونها فنّ الإقناع. والأهم من كل ذلك أن الحجاج لا يقتصر على الاستدلال العقلي، بل يتجاوز ذلك ليشمل الحجاج اللغوي الخالص ، ذاك الذي ينبع من اللغة باعتباره خاصيّة كامنة فيها فيلتبّع به نسيج النص .

فالحجاج هو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة، من حيث إن الجدل والخطابة قوتان لإنتاج الحجج. ومعنى هذا إنه يوجد على الأقل حجاجان : جدلي وخطابي. أما الحجاج الجدلي فهو من قبيل ما عرض له "أرسطو" في كتابه "الطوبيقي" ومداره على مناقشة الأراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد، وتمثله في التراث العربي الإسلامي مناظرات "علم الكلام"، فالحجاج الجدلي فكري خالص، وعادة ما يكون بين شخصين يحاول كل منهما إقناع صاحبه بوجهة نظر معيّنة .

أما الحجاج الخطابي فهو من قبيل ما عرض له أرسطو في كتاب "الخطابة"، وهو حجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة في مقامات خاصة، والحجاج هنا ليس لغاية التأثير النظري العقلي فحسب، وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات، وإلى إرضاء الجمهور

---

(١) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص ٢٤، ٢٥.
(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص ١٦٦.

واستمالته، ولو كان ذلك بمغالطته وإيهامه بصحة الواقع على نحو تبدو معه الخطابة من هذه الناحية من قبيل التخييل. والحجاج الخطابي مجاله توجيه الفعل، وتثبيت الاعتقاد أو صنعه، وهو حجاج موجّه للجماهير[1].

وقد تنبه القدماء إلى هذا التأثير الذي يُحْدِثُه الخطاب اللغوي في المتلقي ، فقد أورد "الجاحظ" في "البيان والتبيين" خبراً مفاده أنّ شيخاً من الأعراب تزوّج جارية من رهطه، وطمع أن تلد له غلاماً فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها وصار يأوي إلى غير بيتها، ومرّ بخبائها بعد حَوْلٍ وإذا هي ترقّص بنيّتها وهي تنشد :

ما لأبي حمزة لا يأتينا	يَظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا	تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا

فلما سمع الأبيات مرّ الشيخ نحوهما حتى ولج عليهما الخباء وقبّل ابنته وقال: ظلمتكما وربّ الكعبة[2].

والشعر في هذا الخبر باعتباره خطاباً ،كان الباث فيه امرأة تزوّجت شيخاً من الأعراب لم يلبث أن هجرها حين رُزِقَت بنتاً ، أما المتلقي فإنه لم يحضر ساعة الخطاب، أو على الأقل، لم يوجّهْ إليه الباثُ الخطابَ مباشرة، وإنْ كان يستحضره ساعة إنشاء الشعر، فكانت عملية التلقي صدفة لا اتفاقاً، وإذا بالخطاب يقوم بوظيفته الإقناعية فيغيّر المواقف ، وتتجلى بذلك قدرة الخطاب على النهوض بوظيفة براجماتية (نفعية) صرفة. إنّ المرأة وقد أنشدت هذه الأبيات تكون قد أنجزت فعل التلفظ. هذا الفعل أنتج ملفوظاً شعرياً، كانت له وظيفة حجاجية إقناعية[3].

(1) د. أنور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، ص ٣٢.
(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ص١/ ٤٧، ٤٨.
(3) د. أنور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، ص ٣٦، ٣٧.

أنواع الحجج:

عند القدماء:

١- حجة التبرير: وأداتها "بما أن".
٢- حجة الاتجاه: وغرضها التحذير من انتشار شيء ما.
٣- الحجة التواجدية: تبنى على علاقة الشخص بعمله، ويمكن أن نمثل لها بقوله ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" إذ يمكن أن نقول إن المتعلم بوصفه شخصاً في جوهره ليس فضولياً، وعمل ترك ما لا يعنيه من تجليات حسن الإسلام.
٤- الحجة الرمزية: للرمز قوة تأثيرية في الذين يقرون بوجود علاقة بين الرامز والمرموز إليه، كدلالة العلم في نسبته إلى وطن معين. والهلال بالنسبة إلى حضارة الإسلام، والصليب بالنسبة إلى المسيحية، والميزان إلى العدالة.
٥- حجة المثل: إن الغاية من اعتماده حجاجياً، هو التأسيس للقاعدة والبرهنة على صحتها.
٦- حجة الاستشهاد: غايتها توضيح القاعدة، وتكثيف حضور الأفكار في الذهن، وربما كان الاستشهاد أداة لتحويل القاعدة من طبيعة مجردة إلى أخرى محسوسة، ولعل القرآن الكريم فيما يقدم لنا من أمثلة حجاجية أهم مصدر لهذه الأشكال الحجاجية، على أن العناية بالاستشهاد القائم على التمثيل، مقيد بجملة من القيود لعل أهمها: عدم إطنابه، ومن الحجج المعتمدة أيضاً المعطيات العددية الناتجة عن الإحصاء[1].

عند المحدثين:

أ- الحجاج التجريدي:

هو الإتيان بالدليل على الدعوى على طريقة أهل البرهان، علماً بأن البرهان هو الاستدلال الذي يُعنى بترتيب صور العبارات بعضها على بعض بصرف النظر عن مضامينها واستعمالاتها.

---

(١) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص٤٨، ٤٩.

فيتبين أن الحجة المبنية على التجريد، أو قل "الحجة المجرّدة" (بفتح الراء المشددة) ليست إلا مظهراً قاصراً من مظاهر الاستدلال في الخطاب الطبيعي أو رتبة دنيا من مراتب هذا الاستدلال، إذ لا يقع التوسل بها إلا عند إرادة تقليد الأمر الصناعي، وتنبني أصلاً على اعتبار الصورة وإلغاء المضمون والمقام.

ب- الحجاج التوجيهي:

هو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، علماً بأن التوجيه هو هنا فعل إيصال المستدل لحجته إلى غيره؛ فقد ينشغل المستدل بأقواله من حيث إلقاؤه لها، ولا ينشغل بنفس المقدار بتلقي المخاطب (بفتح الطاء) لها ورد فعله عليها، فتجده يولي أقصى عنايته إلى مقاصده وأفعاله المصاحبة لأقواله الخاصة، غير أن قصر اهتمامه على هذه المقاصد والأفعال الذاتية، يفضي به إلى تناسي الجانب العلائقي من الاستدلال، هذا الجانب الذي يصله بالمخاطب ويجعل هذا الأخير متمتعاً بحق الاعتراض عليه، كما يفضي به إلى تقديم وحدة الجملة على وحدة النص وجَعْل الأولى مستتبعة للثانية[1].

فيتضح أن الحجة المبنية على التوجيه أو قل "الحجة الموجَّهة" (بفتح الجيم المشددة)، وإن زادت علىَ الحجة المجردة درجة بفضل اعتبارها لمقام المدعي، قصداً وفعلاً، فإنها لا ترقى إلى مستوى الوفاء بموجبات الاستدلال في الخطاب الطبيعي، إذ تنبني أصلاً على اعتبار فعل المخاطِب وإلغاء رد فعل المخاطَب.

ج- الحجاج التقويمي:

هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتاً ثانية يُنزلها منزلة المعترض على دعواه؛ فها هنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل إلقاء الحجة إلى المخاطب، واقفاً عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط بل يتعدى ذلك إلى النظر في فعل التلقي، باعتباره هو نفسه أول متلق لما يُلقي، فيبني أدلته أيضاً على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن

---
(1) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٢٦، ٢٢٧.

يقوم به، مستبقاً استفساراته واعتراضاته ومستحضراً مختلف الأجوبة عليها، ومستكشفاً إمكانات تقبلها واقتناع المخاطب بها[1].

السلم الحجاجي والقوة الحجاجية :

السلم الحجاجي هو علاقة ترتيبية للحجج يمكن أن نرمز لها كالتالي :

ن
د
ج
ب
ن= النتيجة

"ب" و "ج" و "د" : حجج وأدلة تخدم النتيجة "ن".

فعندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما، علاقة ترتيبية معينة، فإن هذه الحجج تنتمي إذاك إلى السلم الحجاجي نفسه، فالسلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجهة. ويتسم السلم الحجاجي بالسمتين الآتيتين :

أ- كل قول يرد في درجة ما من السلم، يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه بالنسبة لـ"ن".

ب- إذا كان القول "ب" يؤدي إلى النتيجة "ن"، فهذا يستلزم أن "ج" أو "د" الذي يعلوه درجة يؤدي إليها، والعكس غير صحيح، فإذا أخذنا الأقوال الآتية :

١- حصل زيد على الشهادة الثانوية.
٢- حصل زيد على شهادة الإجازة.
٣- حصل زيد على شهادة الدكتوراه.

---

(١) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٢٨.

فهذه الجمل تتضمن حججا تنتمي إلى الفئة الحجاجية نفسها، وتنتمي كذلك إلى السلم الحجاجي نفسه، فكلها تؤدي إلى نتيجة مضمرة، من قبيل "كفاءة زيد" أو "مكانته العلمية". ولكن القول الأخير هو الذي سيرد في أعلى درجات السلم الحجاجي، وحصول زيد على الدكتوراه هو أقوى دليل على مقدرة زيد، وعلى مكانته العلمية. ويمكن الترميز لهذا السلم كما يلي :

ن= الكفاءة العلمية

د ـــ الدكتوراه

ج ـــ الإجازة

ب ـــ الشهادة الثانوية[1].

وننتقل الآن إلى مفهوم القوة الحجاجية، فنقول إذا كانت البراهين المنطقية والرياضية متكافئة ومتساوية من حيث قوتها، ومتماثلة من حيث طبيعتها، فإن الحجج التي يتضمنها الخطاب الطبيعي ليست كذلك، إنها متفاوتة من حيث قوتها الحجاجية، فهناك الحجج القوية، والحجج الضعيفة، وهناك الحجج الأكثر قوة، والحجج الأكثر ضعفا.

ويرتبط مفهوم القوة الحجاجية بمفهوم السلم الحجاجي، وهذا الأخير هو علاقة ترتيبية للحجج تحدد بموجبها مراتب الأقوال، ودرجاتها باعتبار وجهتها وقوتها الحجاجيتين. ولنبين هذا نورد البيت الشعري التالي :

قهرناكم حتى الكماة فأنتم تهابوننا حتى بنينا الأصاغرا

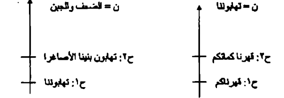
فالشطر الأول من البيت يشتمل على حجتين هما: "قهرناكم" و "قهرنا كماتكم"، وهما تخدمان معا النتيجة الواردة في الشطر الثاني من البيت : "أنتم تهابوننا". ولكن السؤال الذي نطرحه هنا هو الآتي: هل سترد هاتان الحجتان في الدرجة نفسها من درجات السلم الحجاجي؟ هل لهما قوة حجاجية متماثلة؟ إن الجواب سيكون بالنفي طبعاً، فالحجة التي جاءت بعد "حتى" هي الحجة الأقوى،

(1) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص٢٠، ٢١.

"وقهرنا كماتكم" وهم الأبطال الشجعان، هو الدليل القوي على شجاعتنا وبسالتنا في الحروب. وإذا كان الشطر الأول من البيت قد اشتمل على حجج تؤكد قوتنا وبطولتنا، فإن الشطر الثاني منه تضمن حججا تؤكد ضعف الخصوم وهوانهم. فالحجتان الواردتان في الشطر هما: "أنتم تهابوننا" و "تهابون بنينا الأصاغرا"، وهما تؤديان إلى نتيجة ضمنية مضمرة من قبيل "أنتم ضعفاء" أو "أنتم جبناء" أو غيرهما من النتائج المحتملة. وقد لاحظنا أن العبارة "أنتم تهابوننا" التي شكلت النتيجة بالنسبة للعلاقة الحجاجية الواردة في الشطر الأول، ستصبح، هي نفسها، الحجة الأولى في العلاقة الحجاجية الثانية في الشطر الثاني[1].

وهذا ولد نوعاً من التعالق والترابط بين الحجج والنتائج، وجعل الاستدلال الحجاجي الذي تضمنه البيت الشعري كله متسلسلاً ومتماسكاً ومتنامياً، وحفظ له وحدته وانسجامه.

إن الحجة الأخيرة "تهابون بنينا الأصاغرا" هي الحجة الأقوى، والدليل الناصع على ضعف الخصوم وهوانهم. ويمكن أن نرمز لهاتين العلاقتين بواسطة السلمين الحجاجيين التاليين:



وإذا كان كل قول يرد في درجة ما من درجات السلم الحجاجي، فإن القول الذي يعلوه في هذا السلم، يكون دليلاً أقوى منه بالنسبة للنتيجة المقصودة[2].

---

(١) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص١٣٠، ١٣١.
(٢) السابق نفسه ص١٣٢.

المبادئ الحجاجية :

إذن فالمبادئ الحجاجية هي مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة، والكل يسلم بصدقها وصحتها، فالكل يعتقد أن العمل يؤدي إلى النجاح، وأن التعب يستدعي الراحة، وأن الصدق والكرم والشجاعة من القيم النبيلة والمحببة لدى الجميع، والتي تجعل المتصف بها في أعلى المراتب الاجتماعية، والكل يقبل أيضاً أن انخفاض درجة الحرارة يجعل سقوط المطر محتملاً، وبعض هذه المبادئ يرتبط بمجال القيم والأخلاق، وبعضها الآخر يرتبط بالطبيعة ومعرفة العالم .

وإذا كانت المبادئ الحجاجية ترتبط بالايدولوجيات الجماعية، فإنه من الممكن أن ينطلق استدلالان من المقدمات نفسها، وأن يعتمدا الروابط والعوامل نفسها، ومع ذلك يصلان إلى نتائج مختلفة، بل متضادة. ولن يفسر هذا إلا باعتماد مبادئ حجاجية تنتمي إلى إيدولوجيات متعارضة، لكن إلى جانب هذه المبادئ المحلية المرتبطة بإيدولوجيات الأفراد داخل المجموعة البشرية الواحدة، هناك مبادئ أخرى أعم، وهي مشتركة بين جميع أفراد المجموعة اللغوية، ومؤشر لها داخل اللغة[1].

العوامل الحجاجية والروابط الحجاجية :

لما كانت اللغة وظيفة حجاجية، وكانت التسلسلات الخطابية محددة بواسطة بنية الأقوال اللغوية، و بواسطة العناصر والمواد التي تم تشغيلها، فقد اشتملت اللغات الطبيعية على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج. فاللغة العربية مثلاً، تشتمل على عدد كبير من الروابط والعوامل الحجاجية التي لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة إلى قيمتها الحجاجية . نذكر من هذه الأدوات : لكن، وبل ، وإذن، وحتى، ولاسيما ، وإذ ، ولأن، وبما أن، ومع ذلك، وتقريبا، وما....وإلا....، وينبغي أن نميز بين صنفين من المؤشرات والأدوات الحجاجية[2].

أ- العوامل الحجاجية :

---

(1) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص٣٢.
(2) السابق نفسه، ص ٢٠، د. قدور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، ص ٢٦.

هي مورفيمات إذا وُجدت في ملفوظ تحول وتوجه الإمكانات الحجاجية لهذا الملفوظ. فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية أي بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل : ربما، تقريبا، كاد ، قليلا، كثيرا، ما...إلا....وجل أدوات القصر. ولنوضح أكثر مفهوم العامل الحجاجي نتأمل المثالين الآتيين[1] :

-الساعة تشير إلى الثامنة .- لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة .

فعندما أدخلنا على المثال الثاني أداة القصر" لا...إلا "...وهي عامل حجاجي لم ينتج عن ذلك أي اختلاف بين المثالين في القيمة الإخبارية، ولكن الذي تأثر هو القيمة الحجاجية للقول، أي الإمكانات الحجاجية التي يتيحها، فإذا أخذنا القولين الآتيين :

-الساعة تشير إلى الثامنة، أسرع .

-لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة ، لا تسرع .

فنلاحظ أن القول الأول صحيح، وله إمكانات حجاجية كثيرة، كالدعوة إلى الإسراع، والتأخر والاستبطاء، وهناك متسع من الوقت، وموعد الأخبار، ومن ثم؛ فهو يخدم نتيجة من قبيل (أسرع))، كما يخدم النتيجة المضادة لها (لاتسرع). لكن عندما أدخلنا عليه العامل الحجاجي" لا.....إلا"...، فقد تقلصت إمكاناته الحجاجية وأصبح الاستنتاج الممكن هو: لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة ، لا داعي للإسراع[2].

(1) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص ٢٧، د. أنور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، ص٤٢، ٤٣.
(2) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص ٢٨، ٢٩.

ب- الروابط الحجاجية :

الرابط الحجاجي هو مورفيم من صنف الروابط (حروف العطف - الظروف) فهو يربط بين وحدتين دلاليتين أو أكثر ، في إطار استراتيجية حجاجية واحدة.

وللروابط وظيفتان :

١- تربط بين وحدتين دلاليتين أو أكثر .

٢- تخدم دورًا حجاجيًا للوحدات الدلالية التي تربط بينها .

فالروابط تربط بين قولين أو بين حجتين أو أكثر، وتسند لكل قول دورًا محددًا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة . ويمكن التمثيل للروابط بالأدوات الآتية :

بل، ولكن، وحتى ، ولاسيما، وإذن ، ولأن ، وبما أن ، وإذ .

فإذا أخذنا المثال الآتي :

- زيد مجتهد، إذن سينجح في الامتحان .

فسنجد أنه يشتمل على حجة هي (زيد مجتهد) ونتيجة مستنتجة منها (سينجح) وهناك الرابط (إذن) الذي يربط بينهما.

ونميز بين أنماط عديدة من الروابط :

أ - الروابط المدرجة للحجج (حتى ، وبل ، ولكن ، ومع ذلك ، لأن)......

ب - الروابط المدرجة للنتائج (إذن ، لهذا ، بالتالي)....

ج - الروابط التي تدرج حججًا قوية (حتى ، بل ، لكن)

د - روابط التعارض الحجاجي (بل ، لكن ، مع ذلك)

• - روابط التساوق الحجاجي (حتى ، لاسيما)[1]

فقولنا :

- جاء زيد. - حتى زيد جاء .

القولان يخدمان نتيجة واحدة ، ولكن في المثال الثاني (حتى زيد جاء) يقدم معلومة جديدة (مجئ زيد غير متوقع) فدور الرابط تمثل في إدراج حجة جديدة أقوى من الحجة المذكورة في المثال الأول ، فالحجتان وإن كانتا تخدمان نتيجة واحدة إلا أن درجة القوة الحجاجية متفاوتة بينهما[2].

العلاقات الحجاجية :

إن بناء القول الحجاجي يتشكل عن طريق تفاعل مكوناته الداخلية من استدلال وآليات ومفاهيم، ومكوناته الخارجية من واقع إنسانية وتجربة وأسباب ومسببات، وهي عناصر ضرورية، لكنها غير كافية لفهم وتحليل القول الحجاجي[3] ، بالإضافة إلى كلمات حجاجية نحو: أجد أن، ولكن، وحتمًا، وزد على... حيث الوظيفة الأولية حسب "ديكرو" هي خدمة التوجيه الحجاجي للملفوظات. لكن استعمال هذه الكلمات أو العبارات ليس بضروري حتى نتحدث عن الحجاج. جاء في مقال لديكرو صدر في ١٩٧٩م: خلاصته أن التوجيه الحجاجي لازم لمعظم –على الأقل- الجمل التي دلالاتها تحتوي على توجيه مثل : بتلفظنا لهذه الجملة نحن نحاجج في صالح استنتاج معين[4]. وتتمثل علاقات التتابع في :

١. علاقة التتابع :

يقع التتابع إجمالاعلى مستويين ؛ أحدهما مستوى الأحداث، حيث تتغرس الحجّة في الواقع وتنتهي بداهة إلى أحد المستقين، وهما : الحجج المُؤَسَّسَة على

---

(١) د.أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص٢٩، ٣٠.
(٢) د. قدور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، ص٤٤، ٤٥.
(٣) د. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م، ص ١٥٦.
(٤) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص٤٩.

بنية الواقع والحجج شبه المنطقية. وثانيهما مستوى أعمق من الأول يتصل بالحجج فيما بينها، حيث تقتضي الحجّة حجّة أخرى وتؤكد الثانية الأولى.

٢. العلاقة السببية :

هذه العلاقة تُعدّ من أبرز العلاقات الحجاجية وأقدرها على التأثير في المتلقي، حيث لا يكتفي المتكلم فيها بربط الأفكار، والوصل بين أجزاء الكلام بل يعمد إلى مستوى أعمق، فيجعل بعض الأحداث أسبابًا لأحداث أخرى، ويَسِمُ فعلا ما بنتيجة مُتولّدة لفعل سابق، ويجعل موقفًا معيّنًا سببًا مباشرًا لموقف لاحق.

٣. علاقة الاقتضاء :

تعدّ علاقة الاقتضاء ذات طاقة حجاجية عالية، حيث تجعل الحجّة تقتضي النتيجة اقتضاءً، فتغدو العلاقة ضربًا من التلازم، وهو ما لا توفّره سائر العلاقات الأخرى حتى السببية، وأقدر الروابط الحجاجية على توفير هذا النوع من العلاقة أدوات الشرط المختلفة.

٤. علاقة الاستنتاج :

هي علاقة منطقية، مِمّا يدين به الحجاج للمنطق، وهي تؤكد أنّ الحجاج في جانب من جوانبه يُعَدّ فنًا للانتقال من فكرة إلى أخرى بشكل منظم وبيسر.

٥. علاقة التناقض :

بواسطة هذه العلاقة ندفع أمرًا بإثبات تناقضه مع نتيجة الخطاب، وإن كان التناقض ليس شكليًا خالصًا، وإنما أقصى ما يمكن الحديث عنه هو انعدام التوافق بين الحجّة والنتيجة[1].

(١) د. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٨م، ص٣٦١، د. أنور عمران، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، ص٥٠،٥١.

خصائص الحجاج :

تتسم الحجج اللغوية بعدة سمات، نذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر :

١. إنها سياقية : فالعنصر الدلالي الذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي إلى عنصر دلالي آخر، فإن السياق هو الذي يصيره حجة، وهو الذي يمنحه طبيعته الحجاجية، ثم إن العبارة الواحدة، قد تكون حجة أو نتيجة، أو قد تكون غير ذلك بحسب السياق.
٢. إنها نسبية : فلكل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى بكثير منها، وبعبارة أخرى هناك الحجج القوية والحجج الضعيفة والحجج الأوهى والأضعف.
٣. إنها قابلة للإبطال : وعلى العموم، فإن الحجاج اللغوي نسبي، ومرن، وتدريجي، وسياقي بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي[1].

هدف الحجاج :

يتمثل هدف الحجاج في التأثير في الجمهور، والمعيار الأول الذي نقيس به خطابًا ما هو نجاعته، بيد أنه ليس معيارًا كافيًا؛ لأننا لا يمكن أن نهمل نوعية الجمهور الذي يتوجه إليه الخطاب. إننا نستطيع التمييز بين خطابات رجل السياسة، والمحامي، والعالم، والمتكلم (نسبة إلى علم الكلام)، والفيلسوف. لا فقط بمواضيعها، بل نميّزها أيضًا وخاصة بالجمهور الذي تتوجه إليه تلك الخطابات. وفي الواقع، فإن نجاعة الحجاج تكون بحسب ملاءمته للجمهور، وبحسب التقنيات المستعملة فالإقناع سامع مخصوص تستعمل آليات لا تصلح لإقناع جمهور كوني. ويتسم الحجاج العقلاني بكونه قادرًا على إقناع جمهور كوني. فمن الأساسي إذن أن نعرف الأطروحات التي يسلم المستمع بها، كما يجدر بنا معرفة درجة القوة التي بها يعتنق الأطروحات؛ وذلك من أجل اختيار

(١) د. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص١٩، ٢٠.

تلك التي تساعد الحجاج، ويمكن اتخاذها نقطة ارتكاز، من خلال عرضها من حيث كونها مسلمات[1].

---

(١) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص٧٠، ٧١.

الفصل الرابع

معايير تصنيف إستراتيجيات الخطاب

(١) معيار العلاقة بين طرفي الخطاب :

لا يخلو المجتمع من علاقات بين الناس، فقد تكون علاقات اجتماعية، أو وظيفية، أو غيرها. وتتصف العلاقة بأسبقيتها على إنتاج الخطاب ذاته؛ ولذلك فهي من عناصر السياق المؤثرة؛ مما يحفز عمل بعض القوالب، خصوصًا القالب الاجتماعي؛ فينعكس ذلك على تشكيل الخطاب، باختيار الاستراتيجية الملائمة التي تعبّر عن قصد المرسل، وتعكس اعتباره لهذا العنصر، باعتبار نوع العلاقة من العناصر المؤثرة؛ فاختيار هذه الصورة وليس تلك يتعلق بالسياق في عمومه، أي يتعلق بالمتخاطبين (المتحاورين)، وبعلاقتهما داخل السياق، بل ويتعلق بما هو خارج السياق، أي يتعلق بما يعرفه هذا المتخاطب عن الآخر، وما يعرفه المتخاطبان عن المقام، وعما يريدان قوله أو سماعه وهما يعرفان معرفة تامة المدى الذي يمكن أن يبلغاه في الخطاب. فأحد المخاطبين يمكن أن يكون خطيبًا أو معلمًا، والآخر يمكن أن يكون جمهورًا أو مستمعًا. فالعلاقات تظل هي ذاتها، والصور يجب أن تكون مضبوطة حتى تناسب المقام بالشكل الأقرب[1].

والمعرفة المشتركة في قسط منها هي نتيجة من نتائج تلك العلاقة؛ مما يفضي إلى اضطلاعها بدور في افتراضات المرسل المسبقة. والمعرفة المشتركة، والافتراضات المسبقة من العناصر التي تسهم في اختيار إستراتيجية الخطاب؛ فعلى هذين العنصرين وغيرهما، ينبني مزيد من العلاقات التي تؤثر في المرسل لانتقاء استراتيجيات الخطاب .

(١) جيرار دولودال وجوزيف ريطوري، التحليل السيميوطيقي للنص الشعري، ترجمة عبد الرحمن بو علي، مطبعة المعارف الجديدة، ط١، ١٩٩٤، ص٧٤.

وإن لم تكن العلاقة بين طرفي الخطاب موجودة سلفًا، فإن المرسل يسعى إلى إيجادها بخطابه، فقد يكون إقامة علاقة بين طرفي الخطاب، هو الهدف الرئيس من الخطاب. وهذا ما يبرر إعطاءه كثيرًا من الاهتمام، ويتم ذلك باستعمال استراتيجيات معينة في الخطاب، ليقوم بوظيفته المتوافقة مع ما يتطلبه السياق الذي يؤطر إنتاج الخطاب؛ مما يسهم في إبراز دور اللغة التفاعلي، انطلاقًا من أن القيم الدلالية للخطاب هي مدخل ممكن ومهم، لتحديد شبكة العلاقات الاجتماعية؛ لأن التعامل مع اللغة هو تعامل مع مضامينها[1].

(٢) مبادئ التخاطب :

يراعي المرسل نوع العلاقة بينه وبين المرسَل إليه في خطابه؛ ليرجّح دورها في اختيار إستراتيجية دون إستراتيجية أخرى. ومن الظواهر التي تجسّد تلك العلاقة ما يسمّى بظاهرة التأدب في الخطاب، إذ يتلفظ بخطابه وفقًا لما تقتضيه. وبهذا، تغدو نموذجًا للمرسل عند استعمال اللغة .

وينعكس اعتبار العلاقة بين أطراف الخطاب في تجسيدها وفق ما تقتضيه ظاهرة التأدب بمقادير مختلفة؛ لأن الملفوظات المؤدبة ترمز للعلاقة بيننا وبين المرسِل، بوصفنا مرسلاً إليه. وبالتحديد، قد نتوقع من شخص لا نعرفه جيدًا، أن يقول لنا :

- هل يمكنني أن أستعير قطعة صغيرة من الورق ؟

في حين يصوغها شخص آخر، وليكن الأخ الأكبر، بطريقة مباشرة مثل قوله :

- أعطني قطعة من الورق .

---

(١) عثمان بن طالب، البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، تونس، ص١٤٢.

فإذا لم نفطن إلى نوع علاقتنا بهؤلاء الأشخاص الذين خاطبونا بهذه الطرق، فإن الاستراتيجيات التي وظفوها سوف تزعجنا؛ لأن هذه الاستراتيجيات تجسد طبيعة علاقتنا كما يرونها[1].

١ - مبدأ التأدب :

١. في التراث :

حض القرآن الكريم على مراعاة بعض القواعد التخاطبية، صراحة، في أكثر من موضع، وذلك بالدعوة إلى تهذيب العقول، فقد رسم الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ بعضاً من الآليات ليتّبعها في دعوته مع كفار قريش، فقال الله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۝١٢٥ ﴾ "النحل١٢٥" ففي هذه الآية ثلاث آليات للدعوة، تتدرج في استعمال الخطاب وفقاً لمراعاة الدعوة. وعنصر العلاقة بين الرسول ﷺ وكفار قريش، هي من عناصر سياق الدعوة، بغض النظر عن نوعها؛ إذ يراعي أحوالهم بما ينعكس على اختيار آلية الخطاب المناسبة، "على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها، ويعين وسائلها وطرائقها (....) والدعوة بالحكمة، النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق (....)، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها (....) وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، (....) فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، (....) وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق (....)، وهذا هو منهج الدعوة ودستورها، ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة"[2].

(1) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص٩١.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط ١٢، ٦-١٤٠ هـ - ١٩٨٦ م، ٤/ ٢٢٠٢.

٢. عند المحدثين :

العلاقة بين طرفي الخطاب هي التي تعطي الخطاب معناه وتبرز قصد المرسل، والمثال التالي يبين ذلك :

- من فضلك، أغلق النافذة.

إذ يعد الملفوظ الأول خطاباً ثانوياً، باعتبار المرسل أدنى درجة من المرسل إليه، أو في درجة مساوية له، ولكن ليس بينهما علاقة حميمة. ولهذا فـ (من فضلك) قد تعني في هذا الملفوظ (أطلب منك أن تفعل ذلك مساعدة منك، ما دمت لا أستطيع إجبارك على ذلك)، ولكن معنى (من فضلك) يختلف فيما لو كان المرسل أعلى درجة من المرسل إليه، إذ يحكم العرف استعمالها، لتعني حقيقة ما معناه (أطلب منك فعل ذلك، وذلك لأبدو مهذباً بالرغم من أنني أملك السلطة لدفعك لعمله). والفرق بين حالتي المرسل إليه واضحة، إذ يستطيع أن يرفض الطلب في السياق الأول، أما في السياق الثاني، فالأولى ألا يرفض دون مبرر كاف، ولذلك يبدو الملفوظ التالي :

- أوه، إن الجو حار هنا.

صالحاً للرفض في السياق الأول، ولكنه ليس كذلك في السياق الثاني.

ولذلك تدعو "لاكوف" إلى توسيع مبادئ اللغة الكلية؛ من خلال إدراج القواعد التداولية للحكم بجودة صياغة الخطاب من عدمه، فتضع قاعدتين تسميهما " قواعد الكفاءة التداولية " The rules of pragmatic competence. ويبدو أنهما متلازمان، فقد تتماثلان في أثرهما، أو قد تعزز كل منهما الأخرى، بالرغم من أن إحداهما قد تهمش القاعدة الأخرى، ويعتمد كل هذا على سياق التلفظ وقد صاغت القاعدتين كما يلي :

١- كن واضحاً.
٢- كن مؤدباً.

وهدف المرسل من معايير تغليب إحدى القاعدتين على الأخرى؛ فقد يسعى المرسل جاهداً ليكون واضحاً، عندما يكون هدفه الرئيس هو التواصل المباشر مع الآخرين، بما يجعل قصده واضحا، لا يخطئه المرسَل إليه. في حين تتخذ قاعدة التأدب حضوراً أكبر، عندما يكون هدف المرسل هو التعبير عما يكنه للمرسل إليه الذي يشاركه الخطاب. بالرغم من أن الوضوح يُعد في بعض الأحيان من ضروب التأدب مع المرسَل إليه[1].

- مبادئ فرعية :

وقد فرعت "لاكوف" ثلاث قواعد عن مبدأ التأدب سمتها قواعد تهذيب الخطاب، إذ يتلفظ المرسل بخطابه وفقاً لواحد منها، أو أكثر، وهي :

- قاعدة التعفف، وهي : لا تفرض نفسك على المرسَل إليه، أي لتبق متحفظاً، ولا تتطفل على شؤون الآخرين.
- قاعدة التشكيك، وهي : لتجعل المخاطب يتخذ قراراته بنفسه، ودع خياراته مفتوحة.
- قاعدة التودد، وهي : لتظهر الود للمرسَل إليه، أي كن صديقاً.

فمقتضى قاعدة التعفف، هو تجنب الإلحاح، أو إكراه المرسَل إليه على فعل ما. ويتحقق ذلك من خلال استعمال الخطاب الذي يُبقي على البعد بين طرفي الخطاب؛ بالإبعاد عن الطلب المباشر مثلاً. وعدم التطفل على الشؤون الخاصة للمرسَل إليه إلا بعد الاستئذان[2].

- الأدوات والإشاريات المستعملة في قاعدة التأدب :

ويتبلور في هذه القاعدة الاعتراف بمكانة المرسَل إليه، بوصفه طرفاً في الخطاب، يتمتع بقدرات تؤهله للمشاركة في إنجاز الفعل. وتعد الملمحات الفعلية من أهم أدواتها، مثل: "أعتقد، وأتوقع" فقد يستعملها، بالرغم من ثقته فيما يقوله، ولكنه لا يريد إحراج المرسَل إليه، وكأنه يريد أن يطمئنه بأنه لا تثريب عليه في

(١) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ص ٢٣٩، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ص ٩٩.
(٢) السابقان نفسهما ص ٢٤٠، ٢٤١، ص ١٠٠، ١٠١.

اعتقاده. ومن أدواتها، كذلك، استعمال اسم الإشارة، للإحالة إلى تلك الأفعال التي لا يستحب ذكرها.

ويفضي استعمال هذه الأدوات إلى المواكبة بين ما تقتضيه كل من قاعدتي التعفف والتخيير؛ وذلك بتجنب التلفظ بالكلام المحرج من جهة، ومنح المرسل حريته في التأويل من جهة أخرى[1].

ب. مبدأ التودد:

أما قاعدة التودد فتقتضي: أن يتودد المرسِل إلى المرسَل إليه بخطابه، علامة على تأدبه معه، إذ يقود ذلك إلى صداقة حميمة بين طرفي الخطاب، فيعوّض بذلك ما يخلقه غياب الصداقة الحقيقية، كما يشعر المرسَل إليه بالانتعاش، لإحساسه بالتساوي مع المرسل، وذلك بشرط تكافؤ مرتبة طرفي الخطاب حقيقة، أو بأن يكون المرسل أعلى مرتبة من المرسَل إليه. أما إذا كانت مرتبة المرسل أدنى من مرتبة المرسَل إليه، فإن توسله بقاعدة التودد في خطابه ينبئ عن طلبه للحرية؛ مما يورث نتائج وخيمة على سير المحادثة.

- ويتم ذلك باستعمال أدوات لغوية مخصوصة، مثل نداء الصديق بلقبه، أو باسمه الأول.

ويغدو إشعار المرسَل إليه بالرضا، هو غاية المرسل باستعمال قواعد التأدب، إلا أن كلاً منها يؤدي إلى ذلك بطرق مغايرة، في حين تؤدي قاعدة التودد إليها بمعاملته بوصفه صديقاً مرغوباً فيه[2].

ج. مبدأ التصديق:

يقترح "د. طه عبد الرحمن" نموذجاً من التراث الإسلامي، ليأخذ بأسباب التبليغ، كما يأخذ بأسباب التهذيب، ويسمي نموذجه "مبدأ التصديق"، ويصوغه كما يلي:

---

(1) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص101، 102.
(2) السابق نفسه ص102.

- لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك .وخلاصته أنه "ينبني هذا المبدأ على عنصرين اثنين: أحدهما نقل القول الذي يتعلق (....) بالجانب التبليغي أنت المخاطبة، والثاني، تطبيق القول الذي يتعلق (....) بالجانب التهذيبي منها"[1].

ويستخرج نوعين من القواعد، هما قواعد التواصل، وقواعد التعامل. فقواعد التواصل هي قواعد مضبوطة، وجدها مجتمعة ومفصلة عند "الماوردي" في كتابه "أدب الدنيا والدين" وهي ما يسميها "شروط الكلام، (....) وهي أربعة :

- فالشرط الأول: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، وإما في دفع ضرر.
- والشرط الثاني: أن يأتي به في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته.
- والشرط الثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته.
- والشرط الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به"[2].

أما قواعد التعامل فهي[3]:

- قاعدة القصد: لتتفقد قصدك في كل قول تُلقي به إلى الغير.
- قاعدة الصدق: لتكن صادقاً فيما تنقله إلى غيرك.
- قاعدة الإخلاص: لتكن في توددك للغير متجرداً عن أغراضك.

إذ يترتب على قاعدة القصد أمران، أحدهما: أنها تصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي؛ إذ يتعين في تبين القصد نتيجتان هما : تحديد المسؤولية الأخلاقية، والأخر إفادة المرسل إليه المعنى المقصود .

---

(١) وقد صاغ د. طه عبد الرحمن هذا المبدأ بعد أن استعرض أصال الغربيين استعراضا مريحا، ونقد كل عمل لمعرفة أوجه القصور، دون بلورة مبادئ التعامل الأخلاقي وتحليلها في الخطاب مرتبا إياها حسب مقدار إسهام كل منها في تلك الطلاقة من مبدأ التعاون عند جرايس. ينظر اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٤٩.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، ص ١٣١، ١٣٥.

(٣) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ٢٥٠ -٢٥٣.

والأمر الأخر : إمكان الخروج عن الدلالة الظاهرة للقول، إذ يجوز أن يتفاوت مقصود القول عن مضمونه؛ مما يلزم عنه دخول المرسَل إليه في ممارسة العمل لمعرفة قصد المرسل، فهو لا يتبادر إليه مباشرة .

وبهذا تتميز قاعدة الصدق عن مبدأ التأدب عند "لاكوف"؛ لأنها تسقط عنصر العمل منه .. أما قاعدة الصدق، فتقتضي بممارسته في مستويات ثلاثة : الصدق في الخبر، والصدق في العمل، ومطابقة القول للفعل .

فصدق الخبر هو حفظ اللسان عن الإخبار بأشياء على خلاف ما هي عليه. أما الصدق في العمل، فهو صون السلوك عن إشعار المرسَل إليه بأوصاف هي على خلاف ما يتصف به .

وأما مطابقة القول للعمل ، فهو حفظ اللسان عما يشعر المرسَل إليه بتفاوت بين اللسان والسلوك. وما يدعم ذلك أن الدخول في عملية المخاطبة هو تشغيل لما يسمى بالكفاءة التداولية، والمخاطبة نفسها هي جزء من العمل ومن ضمنها تحديد الهدف واختيار المسلك المناسب. والصدق في هذه النواحي الثلاثة من أسباب التقارب بين طرفي الخطاب، فهو يتعلق بالجانب التهذيبي أكثر منه تعلقه بالجانب التبليغي .

أما قاعدة الإخلاص، فتقتضي تقديم حقوق المرسَل إليه على حقوق المرسِل، ومرد ذلك هو الإيثار على الذات والثقة بأن الحق ثابت، ولا تقوم على الانتزاع، وزيادة التأدب من جانب المرسِل مدعاة إلى زيادته من جانب المرسَل إليه[1].

د. مبدأ الوجه :

منذ القدم، والناس يعدون الوجه رمزًا يمثل المرسِل، رويَ عن "سعيد بن العاص"أنه قال "قبح الله المعروف إن لم يكن ابتداءً من غير مسألة؛ فالمعروف عوضٌ من مسألة الرجل إذا بذل وجهه، فقلبه خائف، وفرائصه ترعد وجبينه

---

(١) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص٩٥.

يرشح، لا يدري أيرجع بشُحّ الطلب، أم بسوء المنقلب، قد انتُقِع لونُه، وذهب دم وجهه"[1]

وامتد هذا التصور المجازي حتى العصر الحديث، فاستعمله "براون" و"ليفنسون" أساسا في عملهما التداولي "الكليات في الاستعمالات اللغوية: ظاهرة التأدب"، الذي أرادا من خلاله أن يصوغا بعض القواعد الكلية لضبط ظاهرة التأدب بين طرفي الخطاب، وقد كانت من أهم النظريات التداولية أثراً حتى اليوم.

وارتكز هذا المبدأ على عاملين، هما :

- قيمة الوجه الاجتماعية .
- نسبة تهديد الوجه .

قيمة الوجه الاجتماعية :

يجب على المرسِل أن يصون وجه غيره، ففي صيانة وجه غيره صيانة لوجهه هو أيضاً، وذلك علامة على الاحترام المتبادل والتعاون بينهما. ويقترح "براون" و"ليفنسون" هذا المبدأ، بوصف الوجه هو رغبات الإنسان الأساس؛ فيقسمانه إلى قسمين رئيسين، هما :

- الوجه الدافع"negative" [2]، وهو: رغبة الإنسان في ألا يعترض الآخرون على أفعاله.
- الوجه الجالب"positive" ، وهو: رغبة كل واحد في أن تكون إرادته محترمة على الأقل من بعض الآخرين . نظرية الأدوار هذه، تكملها نظرية "الوجوه" بمعنى "الواجهة". إذ يرى "جوفمان" أنّ كلّ شخص في الحياة الاجتماعية له "وجه سلبي". هو الذي يتكتم عليه لميدان الخاص، أو روضة الأسرار إنه مجال للعلاقات الحميمة. كما أنّ لكلّ شخص بالتوازي مع ذلك "وجهًا إيجابيًا" هو وجه الصورة التي

---

(1) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م ١/ ١٩٨.
(2) د. طه عبد الرحمن في كتابه اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ص٢٤٣.

نقدمها عن أنفسنا إلى الغير وعن علاقتنا بالآخر. ولا يتم التواصل إلا إذا انتظم هذان الوجهان، أي أن يقع تفاوض لا يكاد يتجدّد بين هاتين القوتين المتناقضتين والمتكاملتين. يتمثّل كل تواصل إذن في إيجاد توازن إجمالي بين الوجوه الإيجابية والسلبية من جهة، و حقل التبادلات والأحياز الخاصة من جهة اخرى، وذلك بشكل أني بالنسبة إلى السياق الاجتماعي. ولا ينبغي أخذ لفظي "إيجابي" و"سلبي" على أنهما حكم، ولكن هما معتبران مصطلحين رياضيين، أو فيزيائيين مثل وجهي مغناطيس. ونظرية الأدوار والوجوه تذكرنا بدورها بـ"مبدأ القطع" الذي أبرزه بعض علماء الأنثروبولوجيا نحو باستيد (R. Bastide)[1].

نسبة تهديد الوجه :

يبتغي الباحثان "براون" و"ليفنسون" تصنيف عدد من استراتيجيات التخاطب لضمان الاحترام المتبادل؛ مما لزم عنه تصنيفاً للأفعال التي تهدد الوجه، وتحديد أثر كل منهما. ولهذا يربطان بين الأفعال اللغوية وبين نسبة تهديدها للوجه، وأثر كل صنف منها، إذ يتضح لديهما أنه من البدهيّ أن بعض الأفعال اللغوية تهدد الوجه حقيقة، خصوصاً الأفعال التي تتعارض طبيعتها مع إرادات طرفي الخطاب؛ ومن ثم يمكن تصنيف الأفعال التي تهدد الوجه السلبي، وكذلك الأفعال التي تهدد الوجه الإيجابي، وفق علاقاتها بكل من طرفي الخطاب.

المرسَل إليه :

يهدد وجهه الدافع كل تلك الأفعال التي لا يحرم المرسِل فيها حرية المرسَل إليه، ويحاول أن يعترضها، ومنها :

١- تلك الأفعال التي تتطلب من المرسَل إليه إنجاز بعض الأفعال في المستقبل، مثل: الأوامر، والنصائح والاقتراحات، والتذكير، والتهديد

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى جوفمان، ت. صابر الحباشة، ص٨٩، ٩٠.

والتحذير؛ لأنها تمارس بعض الضغوط عليه، إما بالإقدام وإما بالإحجام.

٢. الأفعال التي تتطلب منه ردة فعل إيجابية في المستقبل، باعتبارها دَيْناً عليه أن يفي به لاحقاً، مثل: العرض، والوعد. فهي تسبب له إحراجاً، إما بقبول ذلك، وإما برفضه.
٣. الأفعال التي تعبر عن أطماع المرسل فيه، أو في بعض ممتلكاته، بما يدعوه إلى الاعتقاد إما بوجوب حمايتها، وإما بمنحها إياه، ومنها: المدح، تعبيرات الحسد والإعجاب، وتعبيرات العواطف السالبة، مثل تلك الدالة على البغض، والغضب، والشفقة.

أما الأفعال التي تهدد وجهه الجالب، فهي تلك الأفعال التي تدل على عدم اكتراث المرسل بمشاعره، أو رغباته، ومنها :

١. التقييمات السلبية لبعض أفعاله، مثل : تعبيرات الاستهجان، والنقد، والمعارضة، والسخرية، إذ يعبر المرسل بهذا عن عدم حبه، أو عن عدم احترامه لبعض رغبات المرسَل إليه، أو أفعاله، أو خصاله الشخصية، أو قِيَمه. ومنها أيضاً تعبيرات الاعتراض، أو عدم الموافقة، أو التحدي، إذ يشير المرسل بها إلى خطئه.
٢. الأفعال التي تعبر عن عدم اكتراث المرسل بوجه المرسَل إليه الجالب، مثل: إخافته، أو عدم توقيره، أو التلفظ ببعض الموضوعات المستهجنة أمامه، أو إعلامه بأخبار غير سارّة، أو تباهي المرسل بما يسرّه هو أمام المرسَل إليه .

بيد أن هناك تداخلاً بين بعض الأفعال من خلال تهديدها لصنفي وجه المرسَل إليه، مثل: التهديد الحقيقي، أو طلب المعلومات الشخصية[1].

المرسل :

اختص التصنيف الأخر بالأفعال التي تهدد وجه المرسل بشقيه. فمن الأفعال التي تهدد وجهه الدافع: التعبير عن الشكر، قبول شكر المرسَل إليه، أو

---

(١) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ص١٠٣، ١٠٤.

اعتذاراته، وقبول عرض المرسَل إليه، عدم الرغبة بقطع الوعد، أو التقدم بعرض.

أما الأفعال التي تهدد وجه المرسِل الجالب مباشرة، فهي الأفعال التالية: الاعتذارات، وقبول المدح، والندم، والإقرار بالذنب[1].

استراتيجية الخطاب لدى المرسل :

ويُنتِج المرسِل خطابه وفقاً لإحدى هذه الاستراتيجيات طبقاً لبعض المعايير السياقية التي ترجّح انتقاء إحدى الاستراتيجيات دون غيرها، إذ "يتحدد الاختيار من بين هذه الاستراتيجيات في السياق من خلال ثلاثة متغيرات سياقية، هي :

- البعد الاجتماعي بين المتكلم والسامع (العلاقة التماثلية (Symmetric relation.

- علاقة السلطة بينهما (Assymetric relation).

- القيود التي تفرضها ثقافة معينة على المرسل ونوعية تلك القيود".

ويعد كل عنصر من هذه العناصر متغيراً، نظراً لتنوع السياقات وتغيرها، فالعلاقة الاجتماعية تتنوع بين قريب وبعيد، وكذلك علاقة السلطة تتفاوت من درجة إلى درجة أخرى، كما أن لكل مكان وزمان قيوداً معينة.

ويسهم كل متغير من هذه المتغيرات الثلاثة الرئيسية، في تحديد المرسِل لاستراتيجية خطابه المناسبة، بما يمكّنه من حفظ ماء وجهه ووجه المرسَل إليه في الوقت نفسه، ويتم تحديد الاستراتيجية من خلال عملية ذهنية تقوم على كفاءة المرسِل التداولية، ليوازن فيها بين العناصر[2].

(١) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص١٠٤، ١٠٥.
(٢) السابق نفسه، ص١٠٥، ١٠٦.

مثال على مبدأ الوجه :

ويمكن أن يتضح نسبة تهديد الوجه أو حفظ ماله في السياق التالي(بين "معاوية بن أبي سفيان"، و"خريم الناعم". لـ"معاوية" أمير المؤمنين، وخليفة الأمة، ذو المنازل العديدة؛ الاجتماعية والدينية. وللطرف الآخر له مكانته، ويتمتع بعلاقة وثية مع "معاوية"، بالرغم من أن درجته الاجتماعية أدنى من درجة "معاوية"). وذلك في حوارهما التالي :

– "دخل "خريم الناعم" على "معاوية بن أبي سفيان"، فنظر "معاوية" إلى ساقيه، فقال: أي ساقين! لو أنهما على جارية! فقال له "خريم": في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين! قال: واحدة بأخرى، والبادئ أظلم"[1].

لقد استعمل "معاوية" الاستراتيجية الصريحة في خطابه، بمدح ساقي "خريم" ووصفهما بالجمال، ففي ذلك انتقاص من وجه "خريم" الدافع؛ بالربط بين صفاته وبين صفات الأنثى، فالجمال عامة وجمال الساقين خاصة، من أبرز السمات الدلالية التي تميز الأنثى عن الذكر. وفي ذلك إهانة له. وبالرغم من احتمال الإهانة، إلا أن المبرر لخطاب "معاوية" هو قوة العلاقة بينهما؛ مما جعل "معاوية" يتلفظ بخطابه غير عابئ بمشاعر "خريم".

وقد أحرج الخطاب "خريم الناعم"؛ مما وضعه في موقف يتطلب منه حفظ ماء وجهه مع عدم إغفال حق وجه "معاوية" الدافع، فكان أمامه إحدى الاستراتيجيتين، إما الصمت، أو التلفظ بخطاب ما؛ فاختار أن يتلفظ باستعمال الاستراتيجية الصريحة كما فعل "معاوية"، فكان خطابه :

– "في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين" .

وينتقص "خريم" من وجه "معاوية" الدافع؛ بمجرد رده عليه؛ لأن رده هو اعتراض على خطاب معاوية أولاً كما أن خطابه يتضمن بعض عبارات السخرية؛ مما يدل على أنه لم يعد يعبأ بمشاعر "معاوية" كما كان قبل الخطاب.

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٢/١٥٢.

بيد أن خطاب "خريم" ينطوي على بذل بعض ماء وجهه الجالب، لتلفظه بما يدل على شبه الاعتذار المسبق، وهو نداء "معاوية" بلقبه: يا أمير المؤمنين.

كما تلفظ "معاوية" بخطابه، الذي أهدر به شيئاً من وجه "خريم" الجالب، بقوله:

- "واحدة بأخرى، والبادئ أظلم".

إذ أنجز أفعالاً لغوية هي الاعتراف الضمني والاعتذار مع الندم على مبادرته بذلك الخطاب، كما أنه ينتقص شيئاً من وجه "خريم" السالب؛ لأنه لحرجه بقبول اعترافه واعتذاره أو برفضه إياه، وبقاء ذلك ديناً في عنقه يدل على تواضع "معاوية" معه مما يجعله يفكر في مجاملته في المستقبل[1].

هـ مبدأ التأدب الأقصى مع معيار اللباقة:

أما المبدأ التداولي الرابع، فهو "مبدأ التأدب الأقصى" الذي يورده "ليتش" في كتابه (مبادئ التداوليات) والذي يعده مكملاً لمبدأ التعاون، ويصوغ مبدأه في صورتين اثنتين:

إحداهما سلبية هي:

- قلل من الكلام غير المؤدب،

والثانية إيجابية هي:

- أكثر من الكلام المؤدب[2].

وبما أن مبدأ التأدب معيار مشترك بين طرفي الخطاب في لحظة التلفظ فإنه ذو وجهين متباينين، فالتأدب مع المرسل إليه يُفضي إلى عدم التأدب مع الذات، والعكس أيضاً، لذا يغدو المبرر لصياغة قواعد التأدب الفرعية، هو

---

(١) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ص١٠٨، ١٠٩.
(٢) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢١٦.

تفسير هذه التباينات، وآثارها المنعكسة في استعمال المرسل للتعبيرات غير المباشرة.

والتلفظ وفقاً لما يقتضيه هذا المبدأ، من شأنه أن يحول دون النزاع بين طرفي الخطاب، كما يؤكد حضور التعاون بينهما. وبذلك يترجح حضوره على مبدأ التعاون، وهذا ما يفسر التلفظ بالخطاب حسب الاستراتيجية غير المباشرة، إذ إن التلفظ حسب مبدأ التعاون يخل بالعلاقات الاجتماعية، عند الأمر أو النهي لما يقتضيه من مباشرة في الخطاب. وهذا ما يحدو بالمرسل إلى التلفظ بما تقتضيه قاعدة اللباقة، باستعمال التعابير غير المباشرة، كما في التدرج الآتي:

- اعرني سيارتك.
- أريد أن تعيرني سيارتك.
- هل يمكن أن تعيرني سيارتك؟
- لعلك تعيرني سيارتك.

إذ يعبر المرسل عن قضية واحدة هي استعارة السيارة في المستقبل، ولكن تعابيره تتدرج في اعتبار اللباقة في خطابه، فأولها أقلها لباقة؛ لأنه أمر صريح؛ مما قد يثير بعض المعارضة والرفض. وأكثرها لباقة هو آخرها، إذا كان ضمنياً لم يتبين فيه إلحاح المرسل أو محاولة إكراه المرسل إليه.

ولذلك شدد بعض الباحثين الآخرين على توظيف مبدأ التأدب، إذ يرى "باخ" و"هارنيش" ضرورة إضافته إلى قاعدة العلاقة في قواعد مبدأ التعاون عند "جرايس"، كما يريان ضرورة اعتبار قانون الأخلاق في الخطاب، خصوصاً عند إنجاز الأفعال اللغوية؛ فالسلوك الأخلاقي مطلب ضروري من وجهة نظريهما، وبهذا فهما لا يبعدان كثيراً عما يذهب إليه "ليتش"[1].

قواعد التخاطب المتفرعة على مبدأ التأدب الأقصى:

تتفرع على مبدأ التأدب الأقصى قواعد ذات صورتين: سلبية وإيجابية:

(1) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص١١٢، ١١٣.

١ـ قاعدة اللباقة، وصورتاها هما على التوالي :

أ- قلل من خسارة الغير،
بـ- أكثر من ربح الغير.

٢ـ قاعدة السخاء، وصورتاها هما :

أ- قلل من ربح الذات،
بـ- أكثر من خسارة الذات.

٣ـ قاعدة الاستحسان، وصورتاها هما :

أ- قلل من ذم الغير،
بـ- أكثر من مدح الغير.

٤ـ قاعدة التواضع، وصورتاها هما :

أ- قلل من مدح الذات،
بـ- أكثر من ذم الذات.

٥ـ قاعدة الاتفاق، وصورتاها هما :

أ- قلل من اختلاف الذات والغير،
بـ- أكثر من اتفاق الذات والغير.

٦ـ قاعدة التعاطف، وصورتاها هما :

أ- قلل من تنافر الذات والغير،
بـ- أكثر من تعاطف الذات والغير [1].

نقد مبدأ التأدب الأقصى :

---

(١) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٤٦، ٢٤٧.

لما كانت قاعدة اللباقة هي السبب الرئيسي في استعمال المتكلم للتعابير غير المباشرة، فيبدو أن "ليتش" يرُد إليها قواعد التأدب لـ"لاكوف" وخطط التواجه لـ"براون" و"ليفنسن"، ذلك أنه جعل اللباقة درجات، وبنى هذه الدرجات على سُلم الاختيار المستمد من "لاكوف"، وسلّم السلطة وسُلم التضامن المستمدين من "براون" و"ليفنسن"، مضيفاً إليهما سلّم الربح والخسارة الذي أتى به من عنده. أما القواعد الأخرى، وهي قاعدة السخاء، وقاعدة الاستحسان، وقاعدة التواضع، وقاعدة الاتفاق، وقاعدة التعاطف، فتقضي بسلوكات مؤمّنة للمتكلم تفيد حصول عمل تهذيبي متصف بوصف التقرب؛ وعلى هذا، فإن مبدأ التأدب الأقصى الذي تتولد منه هذه القواعد يَمثّل مبدأ التواجه من جهة اعتباره للبعد التقربي من العمل التهذيبي الخاص بالمخاطبة.

بيد أننا نلاحظ أن هذا التقرب يشوبه الميل إلى التظاهر، والنزعة إلى الغرضية؛ بمقتضى أمرين اثنين: أحدهما، الخاصية اللاتناظرية لمفهوم التأدب الأقصى؛ والثاني، خاصية الربح والخسارة لمفهوم اللباقة والسخاء.

أما الخاصية اللاتناظرية لمفهوم التأدب الأقصى، فمقتضاها أن كل ما كان مؤدباً بالنسبة للمخاطب فهو غير مؤدب بالنسبة للمتكلم والعكس بالعكس، وقد جاءت قواعد التأدب الأقصى كلها آخذة بهذه الخاصية، بحيث إن كل ما حَسُنَ في حق أحد المتخاطبين قَبُح في حق الآخر؛ فإذا كان المدح مثلاً حسناً في حق المخاطب، فإن المتكلم يتضرر به، بل الذم هو الحسن في حقه. لكن هذا التصور للتأدب الأقصى يجعل من التأدب محل تنازع بين المتكلم والمخاطب، فإذا أفاد منه أحدهما، لا يفيد منه الآخر؛ والملاحظ أن ما كان من التأدب لا يتم إلا إذا انتفع به طرف واحد، لا يمكن أن يكون تأدباً صادقاً، ذلك لأن التأدب الصادق من شأنه أن ينتفع به المتخاطبان معاً ولا يتضرر به أي منهما[1].

أما خاصية الربح والخسارة لمفهوم اللباقة والسخاء، فمقتضاها أن الأقوال والأفعال التي يأتي بها المتكلم والمخاطب تقدّر بحسب الفائدة التي تدرها، لكن هذا التصور للأقوال يجعل من العمل التهذيبي للتخاطب عملاً أشبه بـ" المعاملة التجارية" منه بالتعامل الأخلاقي، إذ يصير متقوماً بـ"الخدمات" التي يقدمها كل

---

(١) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٤٨.

من المتكلم والمخاطب، بعضهما إلى البعض، إن لم يكن متقوماً بأصناف من "المصالح" تنزل فيها علاقة المتكلم بالمخاطب منزلة علاقة المدين بالدائن؛ فالذي يطلب من غيره أمراً يكون كمن حصل على "خدمة" منه، والذي يكون قد وقع منه أذى لغيره يكون كمن عليه دَيْن الاعتذار، حتى إذا عفا عنه هذا الغير، كان عفوه بمنزلة إلغاء لهذا الدَّيْن. ومتى صار العمل التهذيبي قائماً على مفهوم الخدمات والمصالح، فلا يمكن أن يكون عملاً تهذيبياً خالصاً، ذلك لأن العمل التهذيبي الخالص من شأنه أن يقوم على القيم والمعايير المعنوية، فيرتقي الداخل فيه عن النظر إلى علاقته بالغير من جهة ما يحققه من أغراض.

ولما كان مبدأ التأدب الأقصى، وإن انبنى على التقرب، ذهب فيه مذهباً يجعله قائماً على التظاهر وعلى تحصيل الأغراض، لزمنا طلب مبدأ يأخذ بالتقرب، لكنه يرفع عنه التظاهر، فيكون تقرباً صادقاً، كما يجرده من الغرضية، فيجعله تقرباً خالصاً[1].

و مبدأ القصد :

مفهومه لغةً :

يطلق القصد على معانٍ كثيرة منها:

الأول : الاعتماد، والأمُّ، وإتيان الشيء، والتوجه تقول: قصده، وقصد له، وقصد إليه إذا أمّه، ومنه أيضاً : أقصده السهم ، إذا أصابه فقُتِل مكانه[2]. .

الثاني : استقامة الطريق، ومن ذلك، قوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) (النحل/ ٩)، قال ابن جرير : « والقصد من الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه » [3].

الثالث : العدل، والتوسط وعدم الإفراط[4]، فمنه قول الله تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (لقمان/ ١٩)،

---

(١) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٤٩.
(٢) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ٥/٩٥.
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ١٧/ ١٧٤.
(٤) ابن منظور، لسان العرب ٣/ ٣٥٣.

ومنه ما رويَ عن جابر بن سمرة ﷺ انه قال : « كنت أصلي مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا»[1] أي : وسطا بين الطويلة والقصيرة .

الرابع : القرب ، يقال : بيننا وبين الماء ليلة قاصدة: أي هينة سهلة ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ (التوبة/ ٤٢)، «أي : موضعًا قريبًا سهلا » [2]

اصطلاحاً

القصد فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم ، أو هو دراسة معنى المتكلم[3].

آراء المحدثين فيه :

فقد « جعل كل من أوستن Austin وسيرل searl المقاصد مركزًا في التفريق بين المعنى التعبيري " معنى الكلمات في الملفوظ "، و قوة الأفعال الغرضية أي : النتيجة التي يقصد المرسل نقلها »[4].

ولقد بنى (ديبوجراند) مفهومه للنص على مفهوم القصد , إذ يقول: « إن النص تحول لعمل إنساني ينوي به شخص أن ينتج نصا ويوجه السامعين به إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة» .

وواضح من كلام (ديبوجراند) أنه لابد من توفر إرادتين للمرسل ؛ هما : إرادة التكلم باللفظ اختيارًا، وإرادة موجبه ومقتضاه[5].

كما تناول "جرايس" مفهوم القصد من خلال تعريفه للدلالة غير الطبيعية موضحًا أنه المعني بالاهتمام وأن القائل إذا قصد شيئًا ما من خلال جملة معينة، فذلك يعني أن هذا القائل كان ينوي وهو يتلفظ بهذه الجملة إيقاع التأثير في مُخاطبه بفضل فهم هذا المخاطب لنيته. ويرتبط مفهوم الدلالة غير الطبيعية ارتباطًا وثيقًا بمعنى القصد. وهكذا يشدد "جرايس" في التواصل اللغوي على نوايا القائل وعلى فهم المخاطب لهذه النوايا[6].

---

(١) أخرجه مسلم في (صحيحه) من حديث جابر بن سمرة تحقيق : عبد الرزاق محمود الراتب، الطبعة الأولى المركز الثقافي العالمي، حديث رقم٨٦٦.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٣/ ٣٥٢.

(٣) د.محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٢.

(٤) د.محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص١٨٩.

(٥) النص والخطاب والإجراء، ص٩٢.

(٦) آن روبل، وجاك موشلار، التداولية اليوم(علم جديد في التواصل)، ص٥٢.

آراء القدماء فيه :

فقد ذهب بعض الأصوليين إلى تعريف النية بالقصد والعزم , قال النووي : «النية هي القصد إلى الشيء، والعزيمة على فعله، ومنه قول الجاهلية : نواك الله بحفظه، أي قصدك به »[1].

وقال القرافي : « هي قصد الإنسان بقلبه ما يريده بفعله »[2].

وتعريف النووي والقرافي النية بالقصد والعزم من باب التوسع في الاستعمال؛ وذلك لتقاربها في المعاني. وأكد القرافي ذلك في موضع آخر، قائلاً: « النية والقصد والعزم متقاربة المعاني »[3].

والأصوليون مُجمعون على أن العبرة بالمقاصد والنيات، لا بالألفاظ والأفعال المجردة. ومن اعتبر بالأفعال والأقوال دون النظر إلى النية والقصد يكون قد جنى على الشريعة ؛ لذلك يقول ابن القيم : « إياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه فتجني عليه وعلى الشريعة وتنسب إليها ما هي بريئة منه[4].

دلالات مفهوم القصد :

وقد تعددت دلالات مفهوم القصد في المعالجات النظرية، فهو دال على أحد ثلاثة :

دال على الإرادة، أو دال على معنى الخطاب، أو دال على هدف الخطاب.

١ ـ القصد بمفهوم الإرادة : يؤثر القصد بمعنى إرادة فعل الشيء في الحكم على الفعل نفسه، فتصبح الأفعال تابعة للمقاصد الباطنة لدى فاعلها، لا تابعة لشكلها الظاهري فقط وذلك مثل بعض الأفعال المتعلقة بالصداق، فعندما

---

(١) الحطاب الرعيني، مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل، تحقيق: زكريا عميرات، دار عالم الكتب ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م، ١/ ٢٣٠، النووي، المجموع شرح المهذب، طبعة كاملة معها تكملة السبكي والمطيعي، دار الفكر، د.ت، ١/ ٣١٦.

(٢) القرافي، الذخيرة، تحقيق: محمد حجي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ١/ ٢٤٠، ومواهب الجليل، ١/ ٢٣٠.

(٣) القرافي، الأمنية في إدراك النية، تحقيق ودراسة : د. مساعد بن قاسم الفالح، ط١، مكتبة الحرمين، الرياض، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص١٢٦.

(٤) ابن القيم، إعلام الموقعين، ٣/ ٤٧.

ينوي المتزوج أن يدفع الصداق إلى المرأة، فإنه يأخذ حكم الزوج، أما عند ورود النية بعدم الوفاء فإنه يتصف بحكم آخر. وكذلك من استدان دينًا ولم ينو الوفاء به، فإنه يُعدّ سارقًا.

وما يمارسه الناس في عمل بعض العقود التي ظاهرها البيع وباطنها الربا، ليس إلا حيلاً ظاهرية لا تشفع لهم لأن "الأعمال بالنيات". وما هذه الحيل إلا إستراتيجيات عملية يمارسها الناس للوصول إلى غايات يبتغونها؛ وعليه فإن هذه الإستراتيجيات لا تقف حائلاً دون معرفة مقاصدهم منها.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن قصد المرسل باعتباره إرادة ليؤثر في خطابه بدرجة أقوى، خاصة في إنجاز الفعل اللغوي؛ لاعتماده على توفر الإرادة من عدمها. وكذلك في ترتيب الخطاب للتدليل عليه[1].

إننا نستطيع القول بأن البحث في كيفية الوقوف على مراد المتكلم، والخلل الذي يقع في ذلك يتأثر بثلاثة أشياء، هي :

الأول : الألفاظ وما تحتمله من دلالات :

وذلك لأن الألفاظ قد تحتمل أكثر من دلالة، وقد يعتورها احتمالات تؤدي إلى الخلل في فهم مراد المتكلم .

الثاني : المتكلم نفسه :

إن معرفة مدى صدق المتكلم ورغبته في توصيل مراده إلى المخاطب، وعادته في كلامه، والطرق التي يسلكها في توصيل مراده، كل ذلك يؤثر في الوقوف على مراده[2].

الثالث : المتلقي :

إن قدرات المتلقين على فهم مراد المتكلم من كلامه تختلف اختلافًا كبيرًا؛ وهذا يرجع إلى أمرين؛ الأول : التفاوت في الأذهان، والثاني : التفاوت في تحصيل الوسائل التي تعين على معرفة مراد المتكلم، وهي لا تتوقف على الألفاظ وحدها، فإن « دلالات الألفاظ ليست لذواتها؛ بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته »[3].

---

(١) استراتيجيات الخطاب، ص١٨٩ .

(٢) ينظر لنا العناصر غير اللغوية للتواصل بين القدماء والمحدثين، مجلة اللغات والترجمة، عدد خاص لفعاليات المؤتمر الدولي الثالث لكلية الألسن، جامعة المنيا، ٢٠٠٦م ص٨٠٢.

(٣) الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ص١٢.

ولفهم بنية الحالات القصدية، كالاعتقاد، أو الرغبة، أو الرجاء، أو الخوف، أو الإدراك البصري، أو بنية أداء فعل ما- نحتاج أن نجري تمييزا بين محتوى الحالة ونمط الحالة الذي توجد عليه. هكذا، على سبيل المثال، يمكنك أن ترجو أن تمطر، أو تخاف أن تمطر، أو تعتقد أنها ستمطر. في كل حالة من هذه الحالات، لدينا المحتوى نفسه – وهو أنها ستمطر- غير أن المحتوى يُقدَّم لنا في أنماط قصدية مختلفة. وهذا التمييز بين المحتوى والنمط يُرحل إلى الإدركات والأفعال القصدية. تستطيع أن ترى أنها تمطر، بمجرد أن تعتقد أنها تمطر، وتستطيع أن تنوي الذهاب إلى السينما بمجرد أن ترغب لو أنك ذهبت إلى السينما. في جميع هذه الأمثلة، المحتويات هي قضايا كاملة و لديها شروط الحقيقة[1].

٢ـ القصد بمعنى المتكلم : لا يتجسد القصد إلا باللغة، إذ جُعلت عليه دليلا، "لأن الله تعالى وضع الألفاظ بين عباده تعريفًا ودلالة على ما في نفوسهم، فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئًا عرّفه بمراده وما في نفسه بلفظه، ورتب على تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ ولم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من أحكامها بواسطة الألفاظ"[2].

وهذا الكلام يشبه كلام "ابن جني" في حاجة الاعتقاد إلى القول، وذلك، لأن" الاعتقاد إلى القول، يخفى فلا يُعرف إلا بالقول، أو بما يقوم مقام القول: من شاهد الحال، فلما كانت (الاعتقادات) لا تظهر إلا بالقول سميت قولاً؛ إذ كانت سببًا له، وكان القول دليلاً عليها، كما يُسمى باسم غيره، إذا كان ملابسًا له (......) فالجواب أنهم إنما فعلوا ذلك من حيث كان القول بالاعتقاد أشبه منه بالكلام؛ وذلك لأن الاعتقاد لا يُفهم إلا بغيره، وهو العبارة عنه، كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره (...) والقول قد يكون من المفتقر إلى غيره (...) فكان إلى الاعتقاد المحتاج إلى البيان أقرب، وبأن يعبر به عنه أليق"[3]؛ ولذلك، فهناك من يرى أن التعبيرات قد تفيد المقاصد التي هي المعاني نفسها، مثل "الشاطبي" الذي عقد فصلاً تحت عنوان" المعاني هي المقصودة (.........) ومنها: أن يكون الاعتناء بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها. وهذا الأصل معلوم

---

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، ترجمة سعيد الغانمي، ص١٤٩، ١٥٠.
(٢) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١١٧/٣.
(٣) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ٢٠/١، ٢١.

عند أهل العربية؛ فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى المقصود[1].

وقد قسّم ابن القيم الألفاظ بالنسبة للمقاصد إلى ثلاثة أقسام، وذكر الرازي قسمًا رابعًا لذلك .

قال ابن القيم : « الألفاظ بالنسبة إلى مقاصد المتكلمين ونياتهم وإراداتهم لمعانيها ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تظهر مطابقة القصد للفظ ، وللظهور مراتب تنتهي إلى اليقين والقطع بمراد المتكلم بحسب الكلام في نفسه وما يقترن به من القرائن الحالية واللفظية وحال المتكلم به وغير ذلك ، كما إذا سمع العاقل والعارف باللغة قوله ﷺ: (إنكم سترون ربكم عيانًا ، كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس في الظهيرة صحوا ليس دونها سحاب، لا تضارون في رؤيته إلا كما تضارون في رؤيتهما).

القسم الثاني: ما يظهر بأن المتكلم لم يرد معناه ، وقد ينتهي هذا الظهور إلى حد اليقين بحيث لا يشك السامع فيه ، وهذا القسم نوعان؛ أحدهما : أن لا يكون مريدًا لمقتضاه ولا لغيره، والثاني : أن يكون مريدا لمعنى يخالفه؛ فالأول كالمكرَه والنائم والمجنون ومن اشتد به الغضب والسكران، والثاني : كالمعرّض والمورّي والملغز والمتأول .

القسم الثالث : ما هو ظاهر في معناه ويحتمل إرادة المتكلم له ويحتمل إرادته غيره، ولا دلالة على واحد من الأمرين، واللفظ دال على المعنى الموضوع له ، وقد أتى به اختيارًا »[2].

وأما القسم الرابع الذي ذكره الرازي، فهو : أن يقصد المتكلم معنيين مختلفين، قال : « لأنه ربما لا يكون للمتكلم والقًا بصحة الشيء على التعيين إلا أنه يكون واثقًا بصحة وجود أحدهما لا محالة فحينئذ يطلق اللفظ المشترك ؛ لئلا يكذب ولا يُكذب ولا يظهر جهله بذلك فإن أي معنى يصح فله أن يقول أنه كان مرادي »[3].

(١) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة ٢/ ٢٦٦.
(٢) إعلام الموقعين، ٣/ ٨٥-٨٦.
(٣) الرازي، المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق:عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط٢، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ١/ ١٣٦.

وعليه يمكن القول إن الشكل الخطابي ليس كافياً للدلالة على قصد المرسل في فعل لغوي معين؛ مما ينتج عنه زوجاً من العلاقة بين شكل الخطاب والقصد، فقد يطابق شكل الخطاب قصد المرسل، وقد لا يطابقه. وينتج عن هذا التفاوت بين علاقة القصد بالشكل خياران، يستعمل المرسل أيهما شاء للتعبير عن قصده وفق عناصر السياق. ويتجسد كل خيار في ما يمكن تسميته باستراتيجية، يكون معيارها هو دلالة الشكل على القصد. فيتبلور طبقاً لهذا المعيار استراتيجيتان، ولا يحول هدف الخطاب الرئيس دون اختيار إحداهما دون الأخرى[1].

فالجمل والكلمات معان بوصفها أجزاءً من الجملة. ويتحدد معنى الجملة بمعاني الكلمات، والترتيب النحوي للكلمة في الجملة. غير أن ما يعنيه المتكلم بمنطوق الجملة يعتمد، ضمن حدود معينة، على مقاصده. لأنه لا يستطيع أن يقول أي شيء ويعني كل ما يحلو له. لا يستطيع مثلاً، أن يقول: "اثنان زائداً اثنين تساويان أربعة"، ليعني أن "شكسبير" كان شاعراً ومسرحياً ممتازاً. في الأقل لا يستطيع أن يقول ذلك دون مزيد من التهيئة المناسبة. ومعنى الجملة هو بالكامل مسألة أعراف اللغة، غير أن الجمل هي أدوات للتفاهم والكلام. وهكذا برغم أن للغة تمارس الإكراه على معنى المتكلم، فإن معنى المتكلم يبقى الصورة الأولية للمعنى اللغوي؛ لأن المعنى اللغوي للجمل يؤدي وظيفة تمكين متكلمي اللغة من استعمال الجمل؛ لكي يعنوا بها شيئاً في المنطوقات. ومعنى منطوق المتكلم هو الفكرة الأولية عن المعنى لأغراضنا في تحليل وظائف اللغة[2].

وقد اختلف علماء الأصول في أيهما أولى بالاعتبار القصد بمعنى الإرادة أم القصد بمعنى المتكلم؟ ففريقٌ يرى أن المقاصد ليست تابعاً، وإنما هي الأساس في الخطاب، كما في صيغ العقود مثلاً، وهذا ما يسمى بالإرادة الباطنة، إذ يجعل "ابن قيّم الجوزيّة" "قاعدة الشريعة التي لا يجوز هدمها؛ أنّ المقاصد والاعتقادات معتبرة في التصرّفات والعبارات كما هي معتبرة في التقرّبات

---

(1) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص١١٦.
(2) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، ص٢٠٦، ٢٠٧.

والعبادات؛ فالقصد والنيّة والاعتقاد يجعل الشيء حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا أو فاسدًا، وطاعة أو معصية"[1].

وفريق آخر يرى أن العبرة هي بالقصد الظاهر من صيغة العقد، أي ما يتلفظ به المرسِل، حتى لو لم تتفق مع قصده الباطن، لأنه يصعب التأكد من المقاصد عند مخالفتها لمقتضى الألفاظ وهذا ما يحدث في الإستراتيجية التضامنية، مثل قول المرسِل : نتوخى خدمة المجتمع بكل ما أوتينا من قدرة . فالمرسِل يوهم المرسَل إليه بأنه في خدمته، وقد لا تكون حقيقة الأمر كذلك، فخطابه مجرد تقرب منه ليكسب ثقته، ويميل إليه دون غيره، وليس للمرسَل إليه إلا الثقة بظاهر التلفظ[2].

٣- القصد بمعنى هدف الخطاب:

أ- مفهوم الهدف :

الهدف هو "ما يسعى المرسِل إلى تحقيقه بأفعاله"، وما هذه الأفعال إلا الأفعال اللغوية التي يجسدها المرسِل في الخطاب .

ويمثل الخطاب نشاطًا تواصليًا، موجهاً إلى تحقيق هدف؛ وقد أجمع عدد من الباحثين على هذا الأمر، بل عدوا التوجه لتحقيق الهدف هو ما يجعل من الخطاب فعلاً لغوياً، وهذا يؤدي إلى اعتبار أن لكل خطاب هدفًا؛ انطلاقًا من أن "الهدف هو القوة الدافعة التي تقف خلف التواصل الإنساني؛ ومن ثم فالهدف يؤثر في إنتاج الملفوظات كما يؤثر كذلك في تأويلها. وتساعد الأهداف على تحديد علاقة الأفعال بالملفوظ فنتلفظ بالتعبيرات التي نعتقد أنها ذات علاقة بالهدف الذي نريده" . والهدف من عناصر السياق التي تسبق إنتاج الخطاب، وله بذلك دور في التأثير على المرسِل وتوجيهه في اختيار الاستراتيجيات الخطابية؛ من حيث أدواتها وآلياتها اللغوية المناسبة التي تكفل تحقيقه[3].

---

(١) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ٣/١٠٧، ١٠٨.
(٢) استراتيجيات الخطاب، ص١٨٦، ١٨٧.
(٣) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص١٤٩.

ب- أنواع هدف الخطاب :

ويتكون الهدف من مستويين؛ نفعي، وكلي، فالمستوى النفعي يقع خارج الخطاب، وهو الغاية الفعلية التي يريد المرسل أن يحققها؛ مثل: تحقيق الأهداف الاجتماعية كالمصالحة بين متخاصمين، أو الأهداف التعليمية مثل تنمية قدرات الطلاب، أو الأهداف الاقتصادية مثل جلب رؤوس الأموال للإسهام في التنمية، أو الأهداف العسكرية مثل استسلام العدو، أو الأهداف السياسية مثل البدء في التبادل الدبلوماسي بين بلدين .

أما الهدف الكلي فيتجسّد في الفعل اللغوي الذي يمارسه المرسل من خلال عملية التلفظ بالخطاب، بغض النظر عما إذا نجح في تحقيق الهدف النفعي أم لا. وهو الخطوة الضرورية التي يتوصل بها المرسل إلى تحقيق الهدف الأول[1].

ج- أهمية هدف الخطاب :

تُولي بعض المناهج اللغوية الهدف أهمية قصوى في دراستها، إذ تُعنى "المناهج الوظيفية، في الأصل، بالمعالجة التداولية لأ ...ف مُستعمل اللغة، التي يحققها من خلال أشكال لغوية معينة (....)؛ ومن ثم تفترض أن ما تنجزه الملفوظات من وظائف، هو تجسيد لتلك الأهداف" .

ويتبوأ هدف الخطاب أهميته انطلاقا من أن "اللغة سلاح من أخطر أنواع الأسلحة النفسية للسيطرة على الأفعال والأشياء، وما أمر الدعاية بالخطب والإعلانات بالأمر الهين. وفي الانتخابات النيابية والمحاكم غالباً ما يكون الجانب الظافر أقدر الجانبين على استخدام سلاح اللغة"[2]. ولأنه من أهم عناصر السياق؛ فإن له دوراً موجِّهاً في اختيار الاستراتيجية ذاتها، بل إنه عنصر أساسي من عناصر تعريف الاستراتيجية، في نظر "فان دايك"، الذي يعرّفها "بأنها التصور عن أفضل السبل الفعلية من أجل تحقيق الهدف".

(١) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص١٤٩، ١٥٠.
(٢) د. تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة الدار البيضاء، ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م، ص١٠.

ولا تقتصر أهمية الهدف على مجال تحليل الخطاب ذاته، بل إن الهدف عنصر مهم من عناصر وصف الدروس اللغوية، وتصنيفها في بعض علوم اللغة، إذ نجده حاضراً في بعض الأبواب النحوية والصرفية والبلاغية[1]؛ ومن ذلك مادلل به ابن جني إذ عقد فصلاً في الخصائص سماه "باب في إصلاح اللفظ"، أشار فيه إلى أثر هدف الخطاب في الصناعة اللفظية، أي ما يمارسه المرسل عند إنتاج خطابه استجابة لدواع سياقية، ولأن الألفاظ على المراد من المعاني، أي على هدف الخطاب، محصلة، فإن العرب قد عنيت بها[2]، اتضح ذلك من قوله: "ومن إصلاح اللفظ قولهم: كأن زيداً عمرو. اعلم أن أصل هذا الكلام: زيد كعمرو، ثم أرادوا توكيد الخبر فزادوا فيه (إن) فقالوا: إن زيداً كعمرو، ثم إنهم بالغوا في توكيد التشبيه فقدموا حرفه إلى أول الكلام عناية به، وإعلاماً أن عقد الكلام عليه، فلما تقدمت الكاف وهي جارة لم يجز أن تباشر (إن)؛ لأنها ينقطع عنه ما قبلها من العوامل، فوجب لذلك فتحها، فقالوا: كأن زيداً عمرو"[3].

ويبين النص السابق أن هدف المرسل هو التشبيه؛ ولذلك اقتضت استراتيجية الخطاب المباشرة أن يبني المرسل خطابه في أكثر من مرحلة، ليحقق به هدفه في أوضح صورة وأقوى درجة؛ ولهذا عمد إلى استعمال آلية التقديم في الأدوات (الكاف)، بعد أن استعمل أداة التوكيد المناسبة لسياق الخطاب. فحقق الهدف، وهو إخبار المرسل إليه بالشبه بين عمرو وزيد، بل زاد على ذلك بأن بالغ في التشبيه ليقرب صورته ويصف درجته إلى أقصى حد يستطيعه[4].

د- أثر الهدف في بنية الخطاب :

يولي المرسل هدف الخطاب أولوية عند إنتاج خطابه في بعض السياقات مثلما يفعل في الخطاب التوجيهي؛ إذ يكون التوجيه أولى من إبراز ذات المرسل أو سلطته، وكذلك أولى من التركيز على إبراز ذات المرسل إليه؛ لأن المرسل

---

(1) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص152.
(2) السابق نفسه ص153.
(3) ابن جني، الخصائص 1/ 317.
(4) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ص151.

يكتني - لإدراك ذلك- ببنية الخطاب العميقة التي تعيد ظاهر الخطاب إلى أصل تركيبه اللغوي وإشارياته. فالخطاب التالي :

- ممنوع الدخول .

يبدأ بكلمة مصوغة في قالب اسم المفعول، بيد أنه يمكن للمرسل أن يصوغ خطابه في أكثر من قالب لغوي، مع المحافظة على وضوح الهدف، من خلال خطابات بديلة من حيث التركيب، من قبيل :

- أمنعك من الدخول .

بإبراز ذات المرسل والدلالة عليه بحرف المضارعة في الفعل المضارع الذي يمثل (الأنا) صاحبة السلطة، والإشارة إلى المرسل إليه، بالأداة اللغوية الدالة عليه (الضمير المتصل؛ الكاف) .

وهذه الأولوية هي التي تجعل الاستراتيجية المباشرة أكثر حضوراً في بعض أنواع الخطابات، في حين تكون التضامنية أو التوجيهية هي الاستراتيجية المناسبة في سياق آخر[1].

هـ- أثر التنغيم في تحديد هدف الخطاب :

يوظف المرسل هذه الآليات الصوتية في بعض الاستراتيجيات الملازمة لظاهرة التأدب مثلاً؛ بسبب من هدف الخطاب، الذي يوجه المرسل إلى انتقاء ما يناسب منها، فمن آداب المرسل "أن يراعي مخارج كلامه، بحسب مقصده وأغراضه، فإن كان ترغيباً قرنه باللين واللطف، وإن كان ترهيباً خلطه بالخشونة والعنف؛ فإن لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما، وتعطيل للمقصود بهما، فيصير الكلام لغواً، والغرض المقصود لهواً"[2].

---

(1) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص١٥٤.
(2) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٢٤٨.

ويمكن تحقيق الهدف بمجرد التصويت بالخطاب الشفهي، وذلك كما في الحوار التالي بين الطارق وصاحب الدار :

- الطارق: هل يوجد أحد في الدار؟
- صاحب الدار: لا، لا يوجد أحد!
- الطارق: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
- صاحب الدار: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضل بالدخول!

إذ حقق الطارق هدف الخطاب، وهو السؤال، وكان واضحاً في قصده الذي يتطابق مع دلالة الخطاب الحرفية. أما خطاب صاحب الدار لمعناه اللغوي هو النفي، ولكنه في الوقت نفسه إخبار بأنه موجود؛ لأنها ستطغى دلالة التصويت على دلالة الخطاب اللغوية؛ رغم التعارض الظاهر بينهما، لذلك اكتفى بالتلفظ لتحقيق هدفه دون الالتفات إلى ما قد يعارضه من تركيب الخطاب أو دلالته المعجمية.

أنواع القصد:

١. ميّز "سيرل" بين القصد الذي يمتلكه البشر والحيوانات جوهرياً، وذلك النوع من القصد الاشتقاقي للكلمات والجمل والصور والمخططات والكتابات، كما ميّز هذين النوعين من القصد عن نسبة القصد استعارياً، التي لا تنطوي حرفياً على ادعاء بالقصد، بل هي مجرد تشبيه بـ"كأن". وقد مثّل لذلك بالأقوال التالية :

أ. أنا جائع جداً الآن.

ب.في الفرنسية: "J'ai grand faim en ce moment" تعني أنا جائع جداً الآن.

ت.النباتات في حديقتي جائعة للمغذيات.

تحيل هذه الأقوال الثلاثة جميعاً إلى ظاهرة القصد للجوع، غير أن وضع النسب الثلاث مختلف تماماً. يبين القول الأول القصد الداخلي للمتكلم، فهو يمتلكه بصرف النظر عما يعتقده أي شخص آخر عنه. ويبين القول الثاني أيضاً القصد بالمعنى الحرفي، لكن القصد المتمثل في الجملة الفرنسية ليس داخلياً، بل هي مستمدة من القصد الداخلي للناطقين بالفرنسية. وهذه الجملة نفسها يمكن أن يستخدمها الفرنسي لكي يعني بها شيئاً آخر، أو ربما لكي لا تعني أي شيء على

الإطلاق. وبهذه الدلالة فإن معناها ليس بداخلي للجملة، بل هي مستمدة من الفاعلين الذين يمتلكون قصد داخلي. وكل معنى لغوي ممتمد من قصده .

ولا يبين القول الثالث أية قصد بالمعنى الحرفي على الإطلاق. فـ"الجوع" الذي تظهره نباتات حديقتي ليس سوى أداة تشبيه خالص "كأن". فهي تذوي لفقدان المغذيات، وأنا أصف وضعها تشبيهاً لها بالناس والحيوانات. أنا أنسب لها قصد لا تمتلكه في الواقع، وإن كانت تتصرف وكأن لديها قصداً ولذلك فهناك نوعان من القصد الأصلي، الداخلي والمستمد، ولا يُعد قصد التشبيه بـ"كأن" نوعاً ثالثاً. لأن التشبيه بـ"كأن" ليس سوى نسبة مجازية أو استعارية. والقول إن كياناً ما لديه قصد تشبيهاً بـ"كأن" ليس سوى طريقة في القول إنه يتصرف وكأن لديه قصد، بينما هو في الحقيقة لا يمتلكها[1].

٢. كما ميَّز "سبربر وولسن" بين نوعين من القصد: مقصد تبليغ محتوى، ومقصد تحقيق هذا القصد نتيجة لتعرف المخاطب عليه، ويسميان أولهما بالقصد الإخباري وثانيهما بالقصد التواصلي

أولاً : القصد الإخباري : أي ما يقصد إليه القائل من حمل مُخاطبه على معرفة معلومة معينة .

ثانيًا : القصد التواصلي : أي ما يقصد إليه القائل من حمل مُخاطبه على معرفة مقصده الإخباري .

إن تعريفات "سبربر وولسن" للمقصد الإخباري والقصد التواصلي - مع أن العديد من منظري التواصل لا يرون ضرورة إلا للمقصد الإخباري. هما من العوامل التي تجعل صاحبي نظرية المناسبة من بين ورثة "جرايس" ولو أن تعريفاتهما للدلالة الطبيعية لا تشبه التعريف الذي يقدمه "جرايس" لها. كما يصح الأمر أكثر بالنسبة إلى مفهوم آخر اقترحه "سبربر وولسن"، وهو مفهوم التواصل الإشاري الاستدلالي المرتبط مباشرة بالقصد الإخباري والقصد التواصلي[2]. وندلل على الفرق بينهما بأنه عندما تقول هند لزيد مثلاً إنها

---

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص١٣٩: ١٤١، بتصرف.
(٢) آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ص٧٩، ٨٠.

لصديقته بوعكة يوم العيد فهي أولًا: تقصد الإخبار بهذا القصد وثانيًا: تقصد شيئًا آخر خاصًا هو أن تخلق لدى زيد الاعتقاد بأنها مريضة، وإذا فرضنا أن زيدًا يعرف هذا القصد، ولكنه لا يثق في كلام هند، فإن قصدها الخاص هنا لم يتحقق، وما تحقق، هو القصد الإخباري، ولهذا لم تستطع هند إقناع زيد بقصدها الخاص رغم أنها أبلغته بما تريد[1]؛ ولذلك يذكر "سيرل" أن لقائل جملة ما مقصدًا مزدوجًا يتمثل في إبلاغ محتوى جملته، والإعلام بهذا القصد الأول، بموجب قواعد تواضعية تتحكم في تأويل هذه الجملة في اللغة المشتركة[2].

---

(١) د. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص٥١.
(٢) آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ص٥١.



الباب الثاني

الاتجاه الوظيفي



الفصل الأول

مفهوم الوظيفة وأهم أعلامها

مفهوم الوظيفة :

لغة : يقول "ابن منظور" (وظف: الوظيفة من كل شئ: ما يقدر له في كل يوم من رزق، أو طعام، أو علف، أو شراب، وجمعها الوظائف والوُظُف. ووظف الشئ على نفسه ووظفه توظيفا، ألزمها إياه، وقد وظفت له توظيفا على الصبي كل يوم حفظ آيات من كتاب الله عز وجل)[1]، فالوظيفة عمومًا هي الدور.

أما مفهومها الاصطلاحي فقد عُرِّفت بمفاهيم متعددة خلال تاريخ الألسنية، منها :

1. إقامة صلة بين المتكلم والسامع: بناءً على تصنيف لطرز الجمل، يتمّ التأكيد على أن المتكلم يريد إما نقل عنصر معرفي أو الحصول على معلومة أو إصدار أمر.
2. بلورة الفكر والتعبير عنه: يبيّن اللسان الجهد الذهني الموحّد الذي يُدخل الوحدة على التعددية في المعطى التجريبي. وهكذا تكون ماهية اللغة بالذات فعل تمثيل الفكر.
3. التواصل: استعمال نظام لنقل مرسال. يشكّل هذا المرسال تحليلا لأي تجربة إلى وحدات لسانية. فيسمح بذلك للبشر بإقامة الصلات فيما بينهم .

لا تبدو هذه التضادات دائمًا على هذه الدرجة من الحسم. فتبعًا لنحو "بور رويال" اللسان اخترع لكي يسمح للبشر بأن يتناقلوا الأفكار فيما بينهم. ولكن لكي يسمح الكلام بهذا التواصل، لا بدّ له من أن يكون صورة للفكر، مما يتطلب

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ٩/ ٣٦٠، ٣٦١.

بأن تكون البنى النحوية بمثابة نسخ للبنى الفكرية فثمة ترابط بين الوظائف التواصلية والوظائف التمثيلية، الثانية وسيلة للأولى(1)

وقد عرَّف "أندريه مارتينيه" في كتابه "عناصر اللسانيات العامة" وظيفة اللغة بأنها أداة للإيصال. كما يرى أنها مزدوجة البناء . وكذلك يرى أنها تتناسب مع تنظيم خاص لمعطيات التجربة اللسانية(2).

ويتبين مما سبق أن وظيفة التواصل تُعد أهم وظائف اللغة، وتتمثل في نقل معلومة من المتكلم إلى المتلقي، أو التعبير عن فكرة، أو إصدار أمر أو الاستفهام عن شيء؛ فجميعها وظائف تؤديها اللغة لإقامة التواصل .

وقد أسهم في نشأة الاتجاه الوظيفي كثيرٌ من الباحثين، الذين رفعوا راية الدرس اللغوي الحديث في أوروبا وأمريكا، وسنجمل أهم هؤلاء العلماء؛ موضحين أهم أفكارهم فيما يلي:

أولاً: مدرسة براغ

هي واحدة من أهم المدارس اللغوية في العالم، وظلت إسهاماتها في حالة حركة دائبة عبر عقود القرن العشرين، ومازال فاعلا في مطلع القرن الحادي والعشرين. أما الطريقة التي نشأت بها، فقد بدأت بتشكيل فريق من اللغويين التشيك والروس وغيرهم اتجاهًا وصفيًّا(1926م)، يعتمد على مبادئ و أفكار "دي سوسير" في اللغة، باعتبارها نظاماً من الرموز، وتميزت آراء أعلامها بالربط بين اللغة ووظيفتها أي تحليل اللغة بهدف الكشف عن وظائف مكوناتها البنيوية، وهو مبدأ وسمة فارقة بينها وبين المدارس الأخرى المعاصرة لها.

ويذكر لهذه المدرسة شغفها بالجوانب الجمالية والأدبية في الاستعمال اللغوي، وتجاوزهم منهج الثبات عند الوصف إلى التفسير(3). كما يذكر لهذه المدرسة أن الاتجاه الوظيفي بدأ يبرز إلى الوجود وتتكون ملامحه على يد

---

(1) بول فابر وكرستان بايلون، مدخل إلى الألسنية، ترجمة طلال وهبة، المغرب، 1992م ص88.
(2) د. منذر عياشي، اللسانيات والدلالة "الكلمة"، ط1، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1996م، ص136
(3) د. أحمد دراج، الاتجاهات المعاصرة في الدراسات اللسانية، مكتبة الأداب، ط1، 2009، ص165، 166 ، وينظر أيضا: فصول في الدرس اللغوي، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية، 2006، ص72

أعلامها الذين استفادوا من آراء "دي سوسير" بقدر ما استغلوا منطلقاتها النظرية في أعمالها، وكونوا لأنفسهم نظرية لغوية[1] على أنها لم تحدد منهجها إلا بالانطلاق من تحديد للغة من حيث كونها نظاماً وظيفياً، يرمي إلى تمكين الإنسان من التعبير والتواصل. فإذا كان دور اللغة هو توفير أسباب التواصل، فإن دراسة اللغة ينبغي أن تراعي ذلك، فكل ما يضطلع بدور في التواصل ينتمي إلى اللغة، وكل ما ليس له مثل هذا الدور فهو خارج عنها، فالأولى وحدها هي التي لها وظيفة؛ ومن ثم أطلقت الوظيفة على العمل أو الدور المؤدّى (التبليغ)، كما اتصفت "مدرسة براغ" باهتمامها بالوظيفة حيث يقول أحد الباحثين : "إن أخص شيء تمتاز به هذه الدراسة عن غيرها هو اعتمادها الأساسي على العمل (أو الدور) الذي تؤديه العناصر اللغوية في عملية التبليغ؛ ولهذا سميت النزعات المتفرعة عنها (ومنها مدرسة مارتينيه الفرنسية) بالوظيفية"[2].

وقد تجاوز اهتمام زعماء مدرسة براغ حدود الدراسات اللغوية المحضة، فخاضوا في الدراسات الأدبية والجمالية، حتى أنهم اتُّهموا أحياناً بغياب المنهجية، وإخراجهم البحث اللساني عن طابع العلمية، وهي حقيقة أكدها "سامسون"[3].

وقد تبلورت أفكار "مدرسة براغ" في مراحل هي :

١. قد اعتمدت "مدرسة براغ" هذا المنطلق لتدريس خاصة الأصوات، وتضبط منهجاً للتمييز بين ما هو وظيفي فيها وما ليس وظيفياً، وكان "تروبيستكوي Troubestkoy" هو الذي بلور في أجلى مظهر لنتائج أعمالها في كتابه: "مبادئ الأصوات الوظيفية"[4]. كما اهتمت مدرسة براغ بالتحليل الوظيفي للجملة؛ للمستويات الثلاثة للجملة: النحوي، والصرفي، والدلالي، لتفاعل

---

(١) عبد القادر المهيري ومحمد الشاوش: أهم المدارس اللسانية، ط٢، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٩٠م، ص ٤٠.

(٢) د. عبد الرحمن الحاج صالح: مدخل إلى علم اللسانيات الحديث٣، مجلة اللسانيات، الجزائر، المجلد الثاني العدد١، ١٩٧٢م، ص٥١.

(٣) جفري سامسون، مدارس اللسانيات - التسابق والتطور، ترجمة د. محمد زياد كبة، ط جامعة الملك سعود ١٤١٧هـ ص١١٥.

(٤) عبد القادر المهيري ومحمد الشاوش: أهم المدارس اللسانية ص٤١.

خلال عملية الاتصال اللغوي لتنتج الكلام الذي يقوم بالتعبير عن الوظيفة المقصودة من تفاعل هذه المستويات وهي التواصل[1].

٢. "ماثيوس" Mathesius

ثم جاء "ماثيوس" موضحًا تطور "مدرسة براغ" في تبني الاتجاه الوظيفي؛ فيذكر قائلاً: "حققت الأفكار التي أذاعتها مدرسة براغ اللغوية نجاحًا سريعًا؛ لأنها لم تكن وليدة الصدفة، وإنما كانت تفي بـ"ضرورة فكرية ملحة" لدى هذه المجموعة العلمية الدولية". وتعد بنيوية براغ خطوة في تطوير الفكر النظري الذي ساد القرن العشرين: فهي كانت بمثابة محطة من محطات النموذج المعرفي ما بعد الوضعي في اللغويات والشعرية، الذي استهله "دي سوسير" والشكلانيون الروس[2].

٣. لويس هيلمسليف "L. Hjelmsleve" (ت١٩٦٥م)[3].

أ. ثم أسهم "هيلمسليف" بفكرة تحليل المعنى، وذلك بالكشف عن الوظائف التي تحدده، مشيراً إلى أن دخول الشكل اللغوي في إطار علاقات بنية معينة، هو الذي يحدد وظيفته ويعطيه معناه[4].

ب. كما جاء "هيلمسليف" بالجلوسماتية التي عدّت الوظيفة من خلال فهم رياضي صارم، علاقة تبعية بين قطبين؛ علاقة تنشأ بين نقطتين ثابتتين في هذه العلاقة؛ الدالتين.

ج. ولم يجوّز "هيلمسليف" أن تُصنّف وحدات لغوية ما إلا طبقًا لوظيفتها وليس طبقًا لمعناها.

د. إن "هيلمسليف" لا ينفي عن اللغة وظيفتها، والدليل على ذلك ما أتى به "جون ديوبوا" في معجمه، حيث يقول إن "هيلمسليف" يهتم بالوظيفة في إطار العلاقات النحوية التي تربط بين الجمل في اللغة، لكنه يضيف قائلاً : «إن النص اللغوي يمتاز بكونه قابلاً للتحليل إلى وحدات جد صغيرة، عكس

---

(١) الطاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور "سورة البقرة نموذجًا"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية الآداب، ٢٠٠٥، ٢٠٠٦م، ص١٠.

(٢) لوبومير دولوزل، بنيوية مدرسة براغ، ترجمة حسام نايل، منشور ضمن كتاب من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، إشراف د. جابر عصفور، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٦٦.

(٣) ينظر لنا: فصول في الدرس اللغوي مدرسة كوبنهاجن، ص٧.

(٤) د. تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ط دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ت. ص ١٢١، ١٢٢.

ما نجده في بعض الأشكال من التواصل، مثل إشارات المرور الضوئية الحمراء والخضراء... فإذن تظهر اللغة كنظام من الأشكال خلافاً لأنظمة التواصل المؤلفة من علامات غير قابلة للتحليل، مثل إشارات المرور والنظام الحركي ... إلخ»

ويُستنبط من كلامه أن وظيفة التواصل قائمة في اللغة، غير أنه من الأولى والأحق أن يولي الباحث اللساني اهتمامه وعنايته لدراسة هذا النظام لا من ناحية وظيفته كوظيفة – أي الغاية منه والنفع الذي نجلبه منه- بل يجب أن يتغاضى عن هذا الجانب ليدرس اللغة، كميدان للبحث خاص ومتجرد عن باقي الجوانب التي نحتاج فيها إلى استعارة مناهج أخرى؛ لكي ندرس بها اللغة، وعلينا أن نهتم بالوظيفة التي تكمن في العلاقات اللغوية .. وبذلك اقتصر "هيلمسليف" في ميدان بحثه على اللغة[1].

٤. جاكوبسون "R. Jakobson"(١٨٩٦- ١٩٨٢م) .

أ. كان "جاكوبسون" من أبرز علماء اللسانيات الذين لفتوا الانتباه إلى وظائف اللغة، وأن مفهوم اللغة يجب أن يُدرس بوصفه نظاماً وظيفياً، وأن الكشف عن هذا النظام إنما يتم من خلال وظيفة العناصر الداخلة فيه[2].

ب. يعتمد "جاكوبسون" من جهته على وظائف الكلام (في نظرة المتكلم من كلامه)، ونظرة السامع، وعلى الرسالة، والسياق، وعلى الاتصال بين المرسل والمستقبل، وعلى معقد الكلام "code" فكلها عناصر تسهم في تحديد الوظيفة الانفعالية أو التعبيرية أو اللفظية الإنشائية أو الشعرية أو وظيفة الحد أو الربط للمعاني فيما بينها[3].

ج. أهم الملامح الوظيفية عند جاكوبسون .

١- ثنائية التفكير الألسني :

(١) د. رابص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ط١، مطبعة سايس-فاس، ٢٠٠٧م، ص١٤٧.
(٢) يُنظر: الوظائف عند جاكوبسون، ص ١٩٤.
(٣) د. محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي، ص٧٢.

يرى "جاكوبسون" أن العلاقة الثنائية تسيطر على مختلف المستويات اللغوية، فكما نجدها في الأصوات، نجدها في الدلالة وفي غيرها[1] ومن العلاقات الثنائية التي أقرها:

- التزامن والتعاقب.
- المحور الاستبدالي والمحور النظمي.
- الانتقاء والتنسيق (انتقاء الكلمات والتنسيق بينها في الجملة).
- اللغة الهدف/ وما وراء اللغة؛ فالهدف من اللغة هو التواصل، وما وراء اللغة هو شرح المبهم من الكلمات.
- الخطاب الخارجي والخطاب الداخلي بين مرسل ومستقبل، أو أن يمثل أحدهما الدورين.
- ثنائية السمات التمايزية[2].

٢ـ التفريق بين النحو والدلالة :

يرى "جاكوبسون" أن النحو يهتم بعلاقات البنية الخطية والتركيب فيما بينه، أي يهتم بمحور التتابع (التسلسل المنطقي) وتعتمد الدلالة على إبراز الفوارق بين التراكيب؛ أي يهتم بمحور الاستبدالات[3]، وهذا قد يؤدي بنا إلى اعتبار وظيفيته وظيفية ضعيفة؛ وذلك كون النحو الوظيفي لا يحصر دراسة النحو في البنية الظاهرة فقط بل يراعي ملابسات الخطاب، وحال المخاطبين، ومقاصد الكلام وأغراضه[4].

ثانياً: المدرسة الفرنسية .

لم تتبلور النظرية الوظيفية في كل مظاهرها مع مدرسة براغ، فقد تواصل بناؤها وصقلت مبادئها ومفاهيمها في فرنسا عن طريق "إيميل بنفنيست" و"أندريه مارتينيه".

---

(١) فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ١٩٩٣م، ص٣٣.
(٢) السابق نفسه، ص٤١.
(٣) السابق نفسه، ص٦٢.
(٤) الطاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور "سورة البقرة أنموذجاً"، ص٢٤.

١. إيميل بنفنيست "Emile Benveniste" (١٩٠٢-١٩٧٥م)

أ ـ التعريف به :

هو لساني فرنسي، اهتم بالنحو المقارن الهندوأوروبي، واقترح نظرية الجذر الثلاثي (صامت، صائت، صامت)، وناقش نظرية "دي سوسير" حول اعتباطية الإشارة .

كما يُعد "إيميل بنفنيست" واحداً من أقطاب المدرسة الوظيفية، ومن أهم علماء اللغة العالميين. غير أن اهتماماته تجاوزت إطار هذا التخصص الضيق نوعاً ما؛ حتى غدت فلسفة اللغة هي شغله الشاغل، والظاهر أنه تأثر في ذلك بمدرسة أوكسفورد الإنجليزية، وهو ما يبدو جلياً في كتابه (قضايا اللسانيات العامة)[1].

ب- خصائص النظام السيميولوجي عنده :

يركز "إيميل بنفنيست" ـ سواء في طرحه اللساني كما في طرحه السيميولوجي- على سمة الوظيفة التي تتصف بها جميع أنظمة التواصل، وهو القائل: «إن السمة التي تتسم بها شتى الأنظمة، التي تمثل المعيار الذي يجعلها تدخل في نطاق السيميولوجيا، هي قدرتها على الدلالة أو مدلوليتها وتكونها من وحدات دلالية أو "علامات". ويجب علينا الآن أن نصف خصائص الأنظمة المميزة .

إن النظام السيميولوجي يتميز بالخصائص التالية:

١. كيفية تأدية الوظيفة.
٢. مجال صلاحيته.
٣. طبيعة علاماته وعددها.
٤. نوعية توظيفه.

---

(١) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٢٨،١٢٩.

فأما كيفية التأدية للوظيفة، فإنها الطريقة التي يعمل بها النظام ولاسيما الحاسة (البصر، السمع ...إلخ) التي يخاطبها.

وأما مجال الصلاحية فإنه المجال الذي يفرض النظام نفسه فيه بحيث يتحتم التعرف عليه واتباعه. وأما طبيعة العلامات وعددها فهي رهن الشروط السالفة الذكر، وفيما يتعلق بنوعية التوظيف، فإن العلاقة هي التي تربط بين العلامات، وتمنح كل علامة وظيفة متميزة أو مستقلة عن الأخريات».

ويعكس "إيميل بنفنيست" هذا الرأي قائلا: « إن النظرة السيميولوجية تقلب هذه العلاقة بحيث إن اللغة وحدها هي التي تسمح بوجود المجتمع، فاللغة هي التي تجمع البشر، وهي أساس العلاقات التي تؤسس المجتمع».

وإذا نظرنا بعين الحقيقة، فإن اللغة لم تأت إلا لتعزز جانب التبادل القائم بين بني البشر، ولا سيما في المعاملات المادية. فإذا كان الإنسان قد افتقد العنصر الذي يجمع بينه وبين أخيه الإنسان، فقد ألح على نفسه أن يعبر عما يشعر به ليتبادل بذلك المنافع، سواء أكانت مادية أم معنوية أم خيالية.

ج - وظيفة اللغة في إقامة التواصل :

يذكر "بنفنيست" أن اللغة: «تتمثل في القول الذي يحيل إلى موقف ما، فإذا تكلمنا فإننا نتكلم دائماً عن شيء ما – يتكون من حيث الشكل من وحدات مستقلة تمثل كل واحدة منها علامة.

وتُنتج اللغة وتُستقبل في إطار قيم إشارية مشتركة بين أعضاء مجتمع واحد، وتمثل اللغة أيضاً التحقيق الوحيد للتواصل بين ذات المتكلم وذات المخاطب. وتمثل اللغة لهذه الأسباب مجتمعة النظام السيميوطيقي الأمثل، وتعطينا فكرة واضحة عن وظيفة العلامة، كما تنفرد بتقديم صورتها المتكاملة»[1].

---

(1) د. رابح بوحوش (نور الدين)، نظرية التواصل والسلوك المدرك، ص، ١٣ - ١٣٢.

٢. "أندريه مارتنيه A. Martinet " (١٩٠٨- ١٩٩٩م).

أ- التعريف به :

يُعد "أندريه مارتينيه" من أخلص أتباع منهج "تروبتسكوي" في مجال الفونولوجيا، وهو من أكبر المؤيدين المتحمسين لأفكار مدرسة براغ، ويُعتبر مفهوم النتاج الوظيفي للتقابل الصوتي من أهم المفاهيم الأساسية التي أعتمد عليها "مارتينيه" لتفسير التغيرات الصوتية[1]، كما أنه يعد وظيفة التواصل من أهم وظائف اللغة، حيث يقول: "من هنا نرى أنه ينبغي للغة أن تُخدَم كوسيلة تواصل بين جماعة لغوية واحدة، وعليها أن تتلاءم في كل لحظة مع متطلبات هذه الجماعة، ينبغي أن تتطور[2]".

ب- أهم أفكاره :

ويمكننا أن نستخلص مما كتبه "أندريه مارتينيه"[3] بعض القواعد الوظيفية منها :

١. وظيفة اللغة :

يعد " مارتينيه " الوظيفة التواصلية الوظيفة الأساسية للغة في المجتمع اللغوي، وهذه الوظيفة تؤديها اللغة باعتبارها مؤسسة إنسانية، رغم اختلاف بنيتها من مجتمع لغوي إلى أخر، فهي الوظيفة الجوهرية للغة عنده، ولكنه لا ينفي بقية الوظائف التي تؤديها اللغة، بل يُقرُّ بها ويعدها ثانوية، كما يرى أن اللغة ليست نسخًا للأشياء ونقلاً آليًا لها، بل هي بنى منظمة ومتراصة ومتكاملة، يتطلع المتكلم من خلالها إلى عالم الأشياء والأحاسيس، وهو ما ينتج الخبرة الإنسانية فتعلم لغة أجنبية مثلاً، لا يعني وضع علامات جديدة

---

(١) جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة د.نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، ط٢، سوريا، د.ت، ص١٧١.
(٢) أندريه مارتينيه وهنريت والتر، حوار الثلاث، ترجمة نادر سراج، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة٢٠٠٧م، ص١٣٠.
(٣) مبادئ في اللسانيات العامة (١٩٦٠م)، واللسانيات الآنية (١٩٧٠م)، واللغة والوظيفية (١٩٧٠م).

للأشياء المألوفة، وإنما هو اكتساب نظرة تحليلية مغايرة؛ بالتعرف على بنى لغوية تعكس الواقع بطريقة مختلفة عن اللغة الأم[1].

٢. ذكر "أندريه مارتينيه " ثلاثة اتجاهات رئيسية ذات علاقات حميمة فيما بينها، وهي[2]:

- اتجاه الفونولوجيا (علم الأصوات العام) ويعتني بضبط الأصوات العامة ووصف صورها (الفونولوجيا الوصفية) .

- اتجاه الفونولوجيا الزمنية (العلم بتطور الأصوات عبر الزمان) .

- اتجاه اللسانيات العامة .

٣. التقطيع المزدوج :

هذا التقطيع يظهر في ميل الإنسان إلى التعبير عن أفكاره، ورغباته الذاتية، واهتماماته الشخصية، التي تمثل تجربة في جوهرها يسعى لإيصالها للغير، ويكون ذلك إما بصيحة فرح أو صرخة ألم، وإما بحركة دالة، وهذا السلوك لا يرقى إلى مستوى الإبلاغ اللغوي؛ لذلك تفكك التجربة الإنسانية التي تيسرت صياغتها في اللغة إلى سلسلة من الوحدات الدالة، ثم إلى عدد من الوحدات الصوتية[3]. ويعد مارتينيه " التقطيع المزدوج أساس نظريته، الذي يرى فيها أن اللسان البشري يختلف عن بقية الوسائل التبليغية؛ لكونه مزدوج التقطيع، أي أن الأقوال اللسانية تتكون من مستويين مختلفين هما :

- مستوى التقطيع الأول[4]:

(١) د. ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥م، ٢٥٢، ٢٥١.
(٢) د. محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠١م، ص ٦٩-٧٠.
(٣) رونالد إيلوار، مدخل إلى اللسانيات، ترجمة بدر الدين القاسم، منشورات وزارة التربية والتعليم العالي، الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٠م، ص٨٢.
(٤) د. نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ١٠٥.

وفيه نحصل على وحدات ذات مضمون معنوي (المدلول) وصوت ملفوظ (دال)، وتسمى هذه الوحدات مونيمات، مثال : راجع/ ت /د ر س/ ي

نلاحظ أن هذا المثال يحتوي على أربعة مونيمات متتابعة، ويسمى معنى كل لفظة مدلولاً، وصيغتها الصوتية دالاً، وهي وحدات صغيرة يستحيل تحليلها إلى وحدات دالة أصغر منها، ويمكن أن نستبدل بها وحدات أخرى ضمن قائمة مفتوحة، مثل كتبت درسي، قرأت قصتي، ...إلخ .

ويمكن تقطيع المونيمات إلى وحدات دنيا ـأيضاًـ مجردة من كل دلالة، ولكنها مميزة تسمى فونيمات، وهي محدودة في كل لغة[1]، مثال: كتب عمر درسه، نزل القرآن بلسان عربي .

تقطع (كتب) إلى ست وحدات مميزة أي ستة فونيمات: ك/ / ت/ / ب/
وكذلك نزل : ن/ / ز/ / ل/ /

انطلاقا من هذا يكون التقطيع المزدوج قانونًا أساسيًا من قوانين اللغة البشرية[2].

٤. وانطلاقا من التمييز المهم بين الظواهر الصوتية والظواهر الفونولوجية (الحرفية والوظيفية) يضع " مارتينيه " في تقابل الشروط الضرورية للتواصل حيث يشترط وجود أقصى ما يمكن من الوحدات التي يشترط فيها أن تكون على جانب أكبر من الاختلاف، مقابل بذل أقل ما يمكن من الجهد بعدد من الوحدات الأقل تباينًا[3].

(١) سليم بابا عمر وباني عميري، اللسانيات العامة الميسرة (علم التراكيب)، الجزائر، ١٩٩٠م ص: ٧٤.
(٢) د. أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤م ص ١١٣.
(٣) د. محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي، ص٧٠، ٧١.

* والبحث عن الانسجام بين هذين الشرطين يؤدي إلى الاقتصاد اللغوي أو إلى تحسين المردود الوظيفي .. فكل وحدة من وحدات العبارة تصبح خاضعة إلى نوعين من الضغوط المتقابلة[1]:

- ضغط نيري ناتج عن تعاقب الألفاظ في سلسلة الكلام، وفيه (تجاذب) بين الوحدات المتجاورة وضغط عمودي تفرضه الوحدات أو الكلمات المنحدرة في المدى والتي كان بالإمكان أن تحل في ذلك الموضع .

- فالضغط الأول قائم على التماثل، والضغط الثاني على التباين، وهذا الاتجاه الوظيفي ينقل الوظيفة نفسها إلى التراكيب النحوية.

* . كما ميّز " مارتينيه " بين الكلمات الوظيفية .. فيكون التمييز بين الأدوات التي لها الصدارة، وبين الأدوات المتممة التي تأتي في آخر الكلمة أو بين الصيغ الصرفية التي تعين الهيئة، أو الجهة، أو العدد، أو أدوات التعريف والتنكير، وهو ما سيتضح فيما يلي :

٦. الدراسة التركيبية :

استطاع " مارتينيه " أن يطور التحليل التركيبي للجملة، انطلاقا من النتائج التي توصلت إليها الدراسة الفونولوجية، فوضع الخطوط الأولية لهذا التحليل الذي يقوم على أساس وظيفة العناصر اللسانية في التركيب وطرق ترتيبها[2].

ومن الملاحظ أن التحليل التركيبي في اللسانيات قد تخلى -بصفة عامة- عن مصطلح (كلمة)؛ لما قد يحدثه من اضطراب في المفاهيم؛ ولأنه يطلق على وحدات صغيرة ليتم معنى كلمة مثل: من، وعلى، وهل... ويطلق أيضًا على وحدات ليست صغيرة، وتتكون من عناصر لكل واحد منها وظيفته، مثل: خرج، واخرج، فكلاهما يتضمن الحروف الدالة على الخروج، واخرج يتضمن زيادة على ذلك الصيغة الدالة على الأمر الموجه للمخاطب المفرد المذكر، لهذا كان

(١) د. محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي، ص٧١
(٢) د. أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ص: ١١٢.

من الضروري توخي مصطلحات أكثر دقة، تفي بمفهوم الوحدة الصغيرة، وقد اصطلحت النظرية الوظيفية على هذا المفهوم بالمونيم[1].

ويرى " مارتينيه " أن العلاقة التي تربط المونيمات في النظام اللساني تتجلى في حالات، هي:

أ. اللفظة المستقلة :

هي وحدات دالة تتضمن في بنيتها دليل وظيفتها، وتتمثل في الظروف مثل : اليوم، غدًا، أحيانًا، ... والعلاقة التي تربط هذه الوحدات بغيرها من الألفاظ قائمة على أساس دلالتها الذاتية، لا باعتبار موقعها في التركيب، أو تقيدها بترتيب مثل :

كَرَّمَ الأديب أمس .

اللفظة (أمس) يمكن أن تظهر في مواقع مختلفة، إذ يمكن القول أيضًا:

أمس كَرَّم الأديب .

وكَرَّم أمس الأديب[2].

ب. اللفظة الوظيفية :

لا وظيفة لها في حد ذاتها، بل تساعد على تحديد وظيفة عناصر أخرى، كما يمكن لها أن تستقل بنفسها في السياق اللساني الذي ترد فيه، مثل: حروف الجر، وأدوات النصب والجزم في العربية، نحو: ذهب الطالب إلى الجامعة .

(إلى) لفظة وظيفية، لا وظيفة لها في حد ذاتها، لكنها تجر الاسم الذي يأتي بعدها ــالجامعةـ وَظيفة (فيكون اسمًا مجرورًا) .

---

(١) وهناك مصطلحات أخرى للفظة المونيم، منها الترجمة التونسية (اللفظم)، المدارس اللسانية المعاصرة، ص١٠٨.
(٢) نعيم بابا عمر وبالي عمري، اللسانيات الميسرة، ص ٧٤ ـ ٧٩.

ج. اللفظة التابعة :

هي اللفظة المقترنة باللفظة الوظيفية التي تحدد وظيفتها، مثل الاسم المجرور المقترن بحرف الجر، فلفظة (الجامعة) في المثال السابق هي لفظة تابعة مقترنة باللفظة الوظيفية (إلى)[1].

وهناك لفظة تابعة مقيدة بالموقع تحدد وظيفتها من خلال موقعها، فتغير الموقع يؤدي إلى تغير وظيفتها النحوية مثال: زارنا عميد الكلية: (الكلية) مضاف إليه وهي لفظة مقيدة بالموقع .

د. العبارة المستقلة :

تتألف من لفظة وظيفية مقترنة بلفظة تابعة، لا تحدد وظيفتها النحوية من خلال جزء واحد من عناصرها، بل من خلال تركيب العناصر مجتمعة، ومنه على سبيل الذكر: الجار والمجرور، والمضاف والمضاف إليه، والنعت والمنعوت،... مثال :

زرت مع صديقتي معرض الكتاب.

عبارة (مع صديقتي) تدل على المعية لا تفهم من خلال جزء واحد من العبارة، بل من خلال ارتباط العنصرين معًا، ويجوز تغيير موقعها.

هـ المركب الإسنادي[2]:

هو النواة التي تقوم على أساسها الجملة، وترتبط ارتباطًا مباشرًا أو غير مباشر بالعناصر اللسانية، مثال: اليوم تنتصر على العدو .

---

(١) عبد القادر المهيري ومحمد الشاوش، أهم المدارس اللسانية، ص: ٤٨.
(٢) المدارس اللسانية المعاصرة، ص: ١١٠.

هذه الجملة تحتوي على لفظة مستقلة (اليوم)، وعبارة مستقلة (على العدو) ولفظة (تنتصر) مكتفية بذاتها قادرة على إنشاء رسالة دون أي إضافات أو إلحاقات، ومن ثمة فهي تسمى المركب الإسنادي، وكل ما يضاف لها يسمى فضلة أو إلحاقًا؛ لأن الكلام يستقيم بدونها من الناحية الوظيفية، ولا يغير العلاقات بين العناصر السابقة؛ ولهذا فوظيفتها غير أساسية. وإذا تعلقت تعلقًا مباشرًا بالمركب الإسنادي، فهي تؤدي وظيفة أولية، وإذا تعلقت تعلقًا غير مباشر به فهي تؤدي وظيفة غير أولوية، مثال: اشترى المعلم كتابًا قيمًا فلفظة (كتاب) مفعول به مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالمركب الإسنادي، فهو يؤدي وظيفة أولية ولفظة (قيمًا) نعت، يتعلق تعلقًا غير مباشر بالمركب الإسنادي عن طريق المفعول به؛ ولذلك فوظيفته غير أولية. وقد ميز " مارتينيه " بين نوعين من الإلحاق هما :

- الإلحاق بالعطف :

هو الذي يبقي الكلام مطابقًا لبنية الجملة النواة، إذا حذف العنصر الأولي (المعطوف عليه)، مثال: حضر العظماء والأشراف، فإذا حذف العنصر الأولي (العظماء) تصبح الجملة (حضر الأشراف) مطابقة للجملة الأولى.

- الإلحاق بالتبعية :

ويختلف عن الإلحاق الأول، ففيه يتميز الملحق بوظيفة تختلف عن وظيفة العنصر الأولي (المتبوع)، مثال: كافأه بجائزة كبيرة من الكتب

لا يمكننا حذف العنصر الأولي (جائزة)؛ لأن وظيفته التركيبية تختلف عن العنصر التابع (كبيرة). ومفهوم الإلحاق عند " مارتينيه " يتضمن وظائف مختلفة: كالنعت والمضاف إليه والمفعول والمعطوف. ومن منطلق التحليل الوظيفي للبنى التركيبية، يُعرف الجملة بقوله: هي كل تركيب تتصل عناصره بركنٍ إسنادي وحيد أو متعدد عن طريق الإلحاق[1].

---

(١) د. أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ص: ١١٤، ١١٦.

٧. أشكال الوحدات التركيبية :

تتخذ الوحدات التركيبية أشكالاً مختلفة، فتارةً تكون مجرد ألفاظ بسيطة، وتارةً أخرى تطرأ عليها ظواهر تجعل منها ألفاظًا من نوع خاص، الألفاظ المميزة والعدمية، والمعروفة والمشتركة، وتارةً تكون مؤلفة من جزئين فأكثر على شكل صيغ مركبة، تعمل عمل الوحدة التركيبية الواحدة: الصيغة الاتحادية والصيغة التركيبية.

أ. اللفظة البسيطة :

هي الوحدة الدنيا للتقطيع الأول مزودة بدال ومدلول، ويمكن أن نستبدل بها وحدات أخرى على المحور الاستبدالي في المحيط نفسه، مثال :

أحمد طالب نجيب:

يمكن أن نستبدل بلفظة (نجيب) وحدات أخرى على المحور الاستبدالي، مثال:

مجتهد، كسول، ذكي، مجد.

كما يمكن للفظة البسيطة أن تقترن بوحدات أخرى على المحور التركيبي، مثل:

هذا طالب نجيب، جاءت طالبة نجيبة، التقيت بنجباء القسم.

ب. اللفظة الممتزجة :

ويكون فيها الدال منطويًا على مدلولين أو أكثر ولا يمكن فصلهما من الناحية الشكلية، مثال: صيغة جمع التكسير في اللفظة (أبطال) لها مدلولان، أحدهما يمثل معنى المفرد (بطل) والثاني يمثل معنى الجمع، ولا يمكننا التمييز الخطي بين المدلولين في أبطال حين يسهل ذلك لصيغ الجمع السالم، مثال: مسلم، مسلمون، مسلمات، فمدلول المفرد ومدلول الجمع يمثلهما في جمع التكسير دال هو الدال الممتزج (أبطال).

ج. اللفظة المطروقة :

هي عكس اللفظة الممتزجة، وفيها يتجزأ الدال إلى جزئين أو أكثر؛ لتحديد مدلول واحد غير قابل للتجزئة، مثال: ارتدت الممرضة ثوبها.

تدل على التأنيث في هذا المثال ثلاث علامات هي :

(ت) في (ارتدت)، و(ة) في (الممرضة)، و(ها) في (ثوبها)(1).

د. اللفظة العدمية أو الصفرية :

هي غياب شكلية متوقعة، ويرمز لها أثناء التحليل بعلامة تفاضلية على شكل صفر (0)، ويتضح ذلك في اللغة المكتوبة بوجود علامتين شكليتين هما الفتحة والتاء المربوطة مع المؤنث وغيابها مع المذكر، مثل:

معلم Ø معلمة

مدرس Ø مدرسة

كما تتجلى في الأفعال، مثال : كتب Ø كتبت= كتب + ت.

هـ. اللفظة المشتركة :

هي دال واحد يتقاسمه مدلولان أو أكثر، ولا يمكن استقلالها بمدلول واحد يحدده السياق، مثال: تبتسم، فصيغة المضارع نجده مع: المخاطب المفرد المذكر (أنت)، مع الغائب المفرد المؤنث (هي) .

و. الصيغة الاتحادية :

هي وحدة قابلة للتحليل شكلاً ومعنويًا إلى وحدتين دالتين أو أكثر، إلا أنها تتصرف تركيبيا كمفردة واحدة وتتحدد لأداء وظيفة واحدة، مثال : (جواز

---

(1) المدارس اللسانية المعاصرة، ص ١١٢، ١١٣.

السفر، أم كلثوم)، جملة القول... فقد تكون مضافًا ومضافًا إليه، أو صفة، وموصوف أو أسماء مركبة، أو صيغة جامدة، وهي تُعامل معاملة اللفظة الواحدة.

٨. يؤكد "أندريه مارتينيه " أهمية علم اللغة الوظيفي، بقوله عن هذا العلم، إنه "ليس فصلاً من علم اللغة، بل هو علم اللغة كله... وأن وظيفة وحدة أو بنية هي التي تسمح بالوصول إلى التفسير الكامل للواقعة اللغوية"[1]. وهذا يشير إلى أهمية الجانب الوظيفي في تحليل اللغة وفهمها، وتفسير الوقائع المرتبطة بها؛ لأن مثل هذا الجانب يمتلك القدرة على كشف المعاني التي يهدف النظام اللغوي إلى توصيلها، الأمر الذي يؤكد ارتباط الوظيفة بالمعنى، وأن كل وظيفة محددة مهما كان نوعها تؤدي معنى محدداً في سلسلة الوظائف أو المعاني التي ترتبط بالبنية اللغوية. ولذا يؤكد في موضع آخر أن «... الوظيفة الرئيسية للأداة التي تمثلها اللغة هي وظيفة الإبلاغ»[2].

نخلص من هذا التصنيف إلى أن النحو عند "مارتينيه" هو تحديد وظيفة كل عنصر، وعلاقته بباقي العناصر في الكلام. ولذ رأى "مارتينيه" أنه توجد وسائل ثلاثة لوسم العلاقات في النحو، تقوم على مبدأي العلاقة والرتبة، وهذه الوسائل هي: الاكتفاء، والرتبة، واللجوء إلى وحدات مختصة لا وظيفة لها معينة في ذاتها[3]. كما رأى أن هناك عناصر ثلاثة يمكن أن تُحال في الجملة، وهي: المسند (أي فحوى الكلام)، والمسند إليه (وهو الفاعل غالبًا في اللغات الهندية الأوروبية)، وأنماط الإلحاق (كالنعت، والعطف، والإضافة، والظرف)[4]. ويرسم "مارتينيه" مراحل ثلاثًا لعملية التحليل هي: مرحلة التقطيع (استخراج الوحدات الدالة). ومرحلة مقابلة الوحدات المستخرجة، ومرحلة إقامة تقسيم الكلمات بناءً على وظائفها .

---

(١) د. يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، ١٩٨٩، ص ٧٢.
(٢) أندريه مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة د. أحمد الحمو، ١٩٨٥م، ص١٣.
(٣) سعدي الزبير، العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية، رسالة دكتوراه، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م ص٢٥.
(٤) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م ص٢٤٦.

وبعد عملية التحليل تأتي عملية العرض، وهي عملية ذات هدف تعليمي، ولها مراحل ثلاث أيضاً، وهي على التوالي:[1]

١. مرحلة التجريد : وتتمثل في وضع قائمة للأقسام الموجودة، وتعداد الوحدات في هذه الأقسام.
٢. مرحلة التصريف : وتمكن من عرض مختلف الوجوه التي يظهر فيها الدال، وفي عرض مختلف أوضاع هذه الوجوه.
٣. مرحلة علم التراكيب : الذي يبين كيف تأتلف الكلمات لتشكل كل الأقوال الممكنة.

رغم ما كتبه "مارتينيه" وما حققه من مكانة علمية بين اللسانيين باحثين وعلماء، خاصة فيما تعلق بعلم الأصوات الوظيفي وبالدراسة التركيبية، فقد رأوا أنها بلغت مرحلة متميزة من مراحل تطورها لدى "مارتينيه". إلا أننا نجده محل انتقاد من وجهة نظر بعض الباحثين؛ وذلك في كون ما كتبه أموراً سطحية يتشبث فيها برأيه وبأفكاره بخلاف علماء اللغة المعاصرين الآخرين، من أمثال "جاكوبسون"، و"تشومسكي" فقد رأوا أنهما كتبا أموراً عميقة تشهد بعبقريتهما[2].

ثالثا: المدرسة الإنجليزية :

يتعامل المنحى الوظيفي عند مدرسة لندن مع المستويات أو الأنظمة الأربعة في التحليل اللغوي (الأصوات، والمفردات، والنحو، والدلالة)، ويبرز فيها توجهان؛ أحدهما يتزعمه "فيرث" والآخر يتزعمه "هاليداي"، وسنجمل دورهما فيما يلي :

١. أما "فيرث Firth" فقد اهتم بالمعنى وسياق الحال؛ حيث دعا إلى التركيز على المعنى في دراسة اللغة، وذلك في إطار العلاقات المتشابكة التي يُنجز فيها الكلام؛ فالكلام بمعناه ليس وليد لحظة محددة، وإنما هو حصيلة مواقف عديدة في المجتمع، فاللغة تُدرس بمراعاة

(١) سعدي الربيع، العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، ص٨٢.
(٢) الطاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور "سورة البقرة نموذجا"، ص٣٢بتصرف.

سياق الحال؛ وذلك لكونها جزءاً من حياة المجتمع، وفي هذا الجانب يبدو تأثر "فيرث" بأفكار "مالينوفسكي"[1].

٢. أما "هاليداي Halliday " فقد اهتم بما عُرف بالنحو النسقي أو النظامي فوضع أسسه النظرية، وواصل البحث في إطاره أتباعه. ويُعتبر من أكثر النظريات تكاملاً عند مدرسة لندن، ومن مبادئه:

- وظائف التراكيب تحدد إلى حد بعيد الخصائص البنيوية لها (الصرفية، والتركيبية ...).
- النحو مبني على أساس تعدد وظائف اللغة طبقًا للتركيب أو البناء اللغوي. فاللغة غنية بجد مستعملها ما يعبر به عن كل أفكاره ومشاعره[2].

يقترح النحو النسقي وظائف ثلاثة للغة، تمثلها البنية مرتبطة بالنشاط اللغوي والبيئة الاجتماعية، وهذه الوظائف تؤديها رسائل ثلاث أيضاً تسمى انساقاً، وهي :

أ. الوظيفة التمثيلية: وهي وظيفة تمثيل الواقع، ويطابقها نسق التعدية. يتضمن نسق التعدية مفاهيم دلالية كمفهومي "المتقبل، والمنفذ"، كما يشمل أيضاً ظروف الكلام الحالية وملابساته.

ب. الوظيفة التعالقية: وهي وظيفة التعالق بين المشاركين، ويطابقها نسق الصيغة. ويعبر هذا النسق عن مفهومي "الجهة، والقضية"، والقضية بدورها مكونة من "فاعل، وفضلة، وتوابع".

ج. الوظيفة النصية: وهي وظيفة تنظيم الخطاب طبقًا لمقتضى الحال ويطابقها نسق المحور ويشمل العلاقات ذات الطابع التداولي إذ يعبر عن مفاهيم تداولية (أو نصية)، كمفهوم "التعلق" ومفهومي "المعطى، والجديد". والوظائف الثلاثة تتكامل في بنية لغوية واحدة لتحقيق الوظيفة الأساسية للغة، وهي التواصل والإبداع، هذا الإبداع اللغوي يتمثل في قدرة المتكلم على خلق معانٍ جديدة، لا في قدرة المتكلم على

---

(١) يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر الألسنية، وزارة الإعلام، الكويت، م٢٠، ع٣ (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) ١٩٨٩م ص٨٢.

(٢) السابق نفسه، ص٨٦.

توليد أو خلق جمل جديدة كما يرى التحويليون (وهذا المثال يوضح الاختلاف الجذري بين اتجاه "تشومسكي" العقلاني واتجاه "هاليداي" الوظيفي، فطى حين ينظر "تشومسكي" إلى اللغة على أنها شيء نعرفه، ينظر "هاليداي" إلى اللغة على أنها شيء نفعله)[1].

رابعاً: المدرسة الهولندية :

"سيمون ديك s.c. Dik" (١٩٤٠- ١٩٩٥م).

أ- يحدد "سيمون ديك" (١٩٨٩م) القدرة التواصلية في نظرية النحو الوظيفي بأنها: "ما يمكن (مستعملي اللغة الطبيعية) من التواصل فيما بينهم بواسطة العبارات اللغوية، أي ما يمكنهم من التفاهم والتأثير في مدخرهم المعلوماتي (بما في ذلك من معارف، وعقائد وأفكار مسبقة وإحساسات) والتأثير حتى في سلوكهم الفعلي عن طريق اللغة"[2].

ب- وقد جاء "سيمون ديك" مناصراً للنحو الوظيفي، فبين أن النحو الطامح إلى الكفاية يسعى إلى تحقيق ثلاثة أنواع من الكفايات :

(الكفاية التداولية، الكفاية النفسية، الكفاية النمطية)

١. الكفاية التداولية :

تربط الكفاية التداولية بين خصائص العبارات اللغوية وكيفية استعمالها، وتتحقق هذه الكفاية في نحو ما إذا كان قادراً على كشف التفاعل القائم بين بنية اللغات الطبيعية ووظيفتها التواصلية. ويكتب "ديك" (١٩٨٩م) في معرض تعريفه للكفاية التداولية: "نريد من النحو الوظيفي أن يكشف لنا عن خصائص العبارات اللغوية التي لها علاقة بالكيفية التي تستعمل بها هذه العبارات، وأن

(١) يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص٨٩.
(٢) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي، دار الأمان، الرباط، المغرب، ١٩٩٥م، ص١٦.

بفعل ذلك بالطريقة التي تمكن من ربط هذه الخصائص بالقواعد والمبادئ التي تحكم التفاعل اللغوي"[1].

٢. الكفاية النفسية:

يسعى النحو الوظيفي إلى تحقيق الكفاية النفسية، و"يكون النحو كافياً نفسياً إذا لم يتعارض مع الفرضيات النفسية حول إنتاج اللغة وفهمها"[2]. ويتم ذلك بالاستفادة من نتائج أبحاث علم النفس، وعلم اللغة النفسي، ومتابعة تطورات النماذج النفسية، ومطابقتها سواء منها "نماذج الإنتاج" أي إنتاج المتكلم العبارة اللغوية وصياغتها، أو "نماذج الفهم" أي تحديد الطريقة التي يحلل بها المخاطب العبارة اللغوية ويؤولها التأويل الملائم. وبذلك تطابق قواعد هذا النحو العمليات القائمة في ذهن المتكلم/ والمستمع أثناء إنتاج الخطاب وفهمه، فالنحو الوظيفي يلغي من نموذجه القواعد التي شكك في واقعيتها النفسية كالقواعد التحويلية[3].

٣. الكفاية النمطية :

يحقق النحو الكفاية النمطية إذا استطاع أن يضع نحواً للغات طبيعية متباينة نمطياً، وأن يصف ما يؤالف وما يخالف بين هذه اللغات المختلفة (ديك ١٩٧٨م) [4]، وتقتضي الكفاية النمطية في لغة ما أن تظل قواعد وصف ظواهرها لاصقة بخصائص هذه اللغة، وأن تتميز بدرجة عالية من التجريد؛ لتستطيع وصف الظاهرة نفسها في أكبر عدد ممكن من اللغات الطبيعية، ويصعب تحقق هذا النوع من الكفاية، بل قد يستحيل ومرد هذا أن كل لغة تتميز بخصائص إبستمولوجية، ومقومات فكرية وانتماء حضاري. وإلى هذه الصعوبة يشير "المتوكل" بقوله: "فإذا اقتربت كثيراً من الوقائع اللغوية للغات معينة كان من العسير انطباقها على لغات أخرى، وإذا كانت موغلة في التجريد أصبحت عاجزة عن رصد الوقائع اللغوية كما تحقق في لغات معينة. وهكذا، يتعين على النظرية الرامية إلى الحصول على درجة مقبولة من الكفاية النمطية أن تصوغ

(١) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص١٩.
(٢) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة نصوص ودراسات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص٢٢٥.
(٣) أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص١١.
(٤) أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة الوظيفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦م، ص٢٦، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص٢١.

مبادئها وقواعدها وتمثيلاتها متوخية توسطاً بين التجريد والملموسية؛ يؤهلها لوصف أكبر عدد ممكن من اللغات الطبيعية"[1].

خامساً: المدرسة الأمريكية :

كذلك أسهمت المدرسة الأمريكية البنيوية في الاتجاه الوظيفي، ونال هذا المفهوم عندهم اهتماماً أكثر من غيره، نظراً لأهميته؛ لكونه يعنى بالقيمة الاتصالية للغة، وما يمكن أن تشتمل عليه من مستويات نتعرف من خلالها، على مختلف الوظائف التي تضطلع بها علاقات هذه اللغة داخل أنظمتها المختلفة. وقد برز من علمائها :

١. إدوارد سابير Edward Sapir (ت ١٩٣٩م)[2]:

أ. وقد وعى "إدوارد سابير" مسألة التفاعل بين مفهومين أساسيين من مفاهيم اللغة، هما مفهوم الشكل ومفهوم الوظيفة، وتنبه إلى استحالة قيام علاقة وحيدة الاتجاه بين الوظيفة والشكل "إن نظام الأشكال" شيءٌ، واستعمال هذا النظام (التحديد الوظائف) شيء آخر... إن الوظيفة (أن يكون لدينا شيء نقوله) تسبق الشكل (قول هذا الشيء بطريقة ما)"[3]. وهكذا ربط "سابير" القول بالقصدية التي تعمل على تشكيل العملية اللغوية بما ينسجم مع هذه القصدية وأهدافها الإبلاغية، وبما يسمح للمرسل بتوصيل ما يرغب فيه للآخر.

ب. رأى "سابير" أنه من الممكن دراسة الشكل اللغوي من حيث كونه نظاماً تركيبياً من أنظمة اللغة، دون أن يعني ذلك دراسة الوظائف المتصلة به؛ ومن ثم فإن مفهوم (الوظيفة) ظل حاضراً لديه، يفرض عليه مرتكزاته بشدة عند كل دراسة له للأشكال اللغوية واستعمالاتها المختلفة. مع العلم أن أي شكل لغوي سيؤدي وظيفة مغايرة للوظيفة التي يمكن أن يؤديها شكل لغوي آخر. كما يمكن للشكل نفسه أن يحتوي مجموعة وظائف تكشف عنها عناصر هذا الشكل وعلاقاته بالاستناد إلى البنية القواعدية لهذا الشكل. وقد

---

(١) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص٢١.

(٢) ينظر أنا لمسول في الدرس اللغوي، ص ٨١.

(٣) جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة د.نجيب غزاوي، ص ١٦٦.

يعود بعض هذه الوظائف إلى وظيفة مركزية يكون منوطاً بها هدف مركزي، يتولى الإفصاح عن هذه الوظيفة. إذ نرى/ مثلاً، داخل شكل لغوي معين: وظيفة للصوت يكشف عنها علم الأصوات، ووظيفة للمقطع يكشف عنها علم التشكيل الصوتي، ووظيفة للصيغة واشتقاقاتها وتصريفها يكشف عنها الصرف[1] وهكذا.

ج. بيّن "سابير" أن النظام المثالي للغة يحتوي في مستواه الصوتي على العناصر، والعلاقات ووظائفها، وأن هذه العناصر هي التي تكوّن اللغات وتباين بينها.

د. يرى "سابير" أن كل لغة ذات نظام مثالي، تحلل الواقع، وتفرض هذا المنهج (أي التحليل) على كل الأشخاص الذين يتكلمونها، قصد تحقيق تواصلهم الاجتماعي، وبذلك تكون قد أسست فكرهم.

هـ. يذكر "سابير" أن اللغة وسيلة لتكوين الفكر: فالأشخاص الذين ينطقون بألسن مختلفة، فإنهم يرون العالم بكيفيات متباينة؛ ولذلك فإنه يصر على ضرورة عدم فصل اللغة عن الثقافة[2]. فيذكر أن النماذج اللسانية عالقة بالنماذج الثقافية- الاجتماعية، والأنماط السلوكية للأفراد (داخل المجتمع). (فاللغة جزء أساسي من هذه الثقافة، بل أحد مكوّناتها الأساسية)[3]. وانطلاقاً من هذه الحيثية، فإن اللغة لا تخرج عن كونها رموزاً صوتية، وضعت لأجل التواصل بين بني البشر. وقد اكتسبها الإنسان أثناء نموه اللغوي في بيئته؛ ولذلك فإن "سابير" يذهب للاعتقاد، بأن اللغة تسهم- بالضرورة في تكوين ثقافة المجتمع.

و. يميّز "سابير" بين التواصل الكلامي والتواصل غير الكلامي، فيوضح أن حدث التواصل الكلامي يكون مقروناً عادة بحركات جسدية معبرة، وبتنغيمات في الصوت، وبإيماءات وإشارات لا تخفى أهميتها في التواصل على الراقي والمرئي.

---

(١) جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين: ص٨٨.
(٢) د. ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، ص٢٢٠.
(٣) جاري ملمسون، المدارس اللسانية ص٧٩.

ولقد نعت التواصل الكلامي بأنه نسق شعوري، والتواصل غير الكلامي بأنه «نسق لا شعوري... ويمكن أن نؤول حدسياً الترميز المنسوب للحركة من وجهة النظر النفسية كمعطى في السياق ذي أهمية على الكلمات المستعملة حقيقة». ثم قال: «إننا نجد أنفسنا أمام نزاع بين التواصلات الظاهرة والخفية (أو المضمرة) أثناء تطور التجربة الاجتماعية للفرد». فمحاكاة السلوك الخارجي يبقى الشرط الأول الذي يمكننا من الترابط في مجتمع ما – كما قال "ادوار سابير"- رغم أن هذه المحاكاة لا تنبثق من قصد التواصل، إن لها دائماً قيمة الانفعال أو رد الفعل التواصلي.

ويعطينا "سابير" مثالاً على ذلك يشرح به هذه الظاهرة قائلاً: "إننا حينما نعتاد على الذهاب إلى الكنيسة، فإن أفراداً آخرين من المجتمع يعطوننا مثالاً على صنف من هذا النشاط ونستطيع أن نقول أننا استقبلنا رسالة أثرت في طريقة سلوكنا".

ز. إن وظيفة اللغة عند "ادوار سابير" هي النطق وتمثل المحتوى كله في مثل هذا النوع من التواصل المشكل أثناء تطور التجربة الاجتماعية للفرد. وتأتي أنواع السلوك الأخرى (الحركية منها والنغمية...إلخ) لتعزز السلوك الكلامي.

ويرى "ادوار سابير" أن التواصلات تختلف فيما بينها، وذلك ناتج عن الاختلاف في معاني الرسائل، الناتج بدوره عن اختلاف الأشخاص واختلاف علاقتهم الاجتماعية. وذلك طبقاً للإطار العائلي أو الفئة الاقتصادية أو الأمة بأجمعها[1].

ح. ويظهر جلياً مما كتبه "سابير" في الفصل الذي خصصه للتواصل أنه قد أحاط جل العناصر – وإن لم تكن كلها- بالدراسة والتفصيل بحيث تناول في تحليله المرسل، والمستقبل، والرسالة، والنظام، والقناة، والمقام، والتشويش، والإطناب، والفعل العائد (Feed–back)، وكذا مفهوم الاقتصاد في الطاقة اللغوية. وفي ذلك تتجلى إحاطته بعملية التواصل الكلامية منها وغير الكلامية. وفي المسار نفسه نجد "سابير" يضع مع صديقه "وورف" نظرية تدعى

(1) د. رابح بو حوش، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١١٧-١١٨.

باسمهما وهي "نظرية وورف وسابير" ومغزاها أن اللغة هي التي تفرض على المجتمع كيف ينظر إلى العالم[1].

٢. "جون جمبرز John jumpers "

وهو عالم متخصص في اللسانيات الاجتماعية الإثنولوجية، قام بتطوير تحليل التفاعلات اللغوية في اتجاه واحد بشكل خاص. وقد تأثر هذا الباحث الأمريكي تأثيرًا عميقًا بمدرسة "بالو ألتو" وبـ "جوفمان" وبالمنهجية الأثنولوجية (عبر مدرسة شيكاغو)، من جهة، كما تأثر من جهة أخرى باللسانيات الاجتماعية "لابوف"، وبالإثنولوجيا اللسانية "سابير". وشهدت أعمال "جمبرز" المنشورة في الولايات المتحدة منذ سبعونيات القرن العشرين، أصداء واسعة ابتداء من الثمانينيات. والخلاصة التي خرج بها من هذه التيارات العلمية المختلفة تسمى "إثنوغرافيا التواصل" وبشكل أدق هي "لسانيات اجتماعية تفاعلية" أو كما يقول هو "مقاربة تأويلية للمحادثة". وهذه التسميات المختلفة تشير إلى زاوية الدراسة المعتبرة.

يتعلق الأمر بتحليل:

- الطريقة التي يستعمل فيها المتخاطبون تنويعات مختلفة من لسان واحد أو من ألسنة متعددة، أثناء التخاطب (مبادئ تبادل السنن والتنويع المشترك الذي يقيمه علم اجتماع اللسان).
  - كيف تسهم هذه الاختيارات في استراتيجيات التفاعل.
  - كيف تنشئ هذه الاختيارات أطرًا ثقافية لتأويل الملفوظات.
  - فيما تعد هذه الاختيارات دالة.
  - أي استدلالات تتأسس على المؤشرات، وأي مؤشرات تقع.
- كيف تشتغل توجيهات التفاعل في الحالة المتواترة للاتصالات بين متصلين ينتمون إلى مجموعات لسانية إثنولوجية ولسانية اجتماعية مختلفة[2].

---

(١) د. رابح بو حوش، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٧١.
(٢) د. صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ص١٢٩، ١٣٠.

الفصل الثاني

تصنيف الوظائف اللغوية

العناصر الوظيفية

للسان الطبيعي البشري هو أداة تواصل بموجبها تُحلل التجربة الإنسانية، بشكل مختلف عند كل جماعة، إلى وحدات ذات محتوى دلالي وتعبير لفظي، يتمثل في المفردات. ويتجزأ التعبير اللفظي بدوره في وحدات تمييزية متعاقبة هي في كل لسان ألفاظ محدودة العدد. تختلف طبيعتها وروابطها فيما بينها طبقًا للسان الذي تنتمي إليه[1]. يسمح مفهوم الملائمة اللغوي بأن يميز من بين المعطيات المتوفرة لديه ما يندرج في صلب دراسته مما يندرج في مجالاتها الهامشية. فهو يقود إلى تحليل دقيق للوقائع اللسانية، وحصر محكم لمختلف المستويات الصوتية والوظيفية والصرفية والتركيبية والنحوية والمعجمية، وحصر محكم للتعيين والتضمين في ما يخصّ الدلالة والأسلوب. مبدأ الملاءمة هو أساس الألسنية الوظيفية، التي ترى أن دراسة لسان ما تعني البحث عن الوظائف التي تؤديها العناصر والأصناف والأولويات الداخلة فيه. ويسمح هذا المنظار بتمييز الواقعة الملائمة من غيرها في مجموع الوقائع التي تقع تحت الملاحظة. لا يختلط الكلام إذًا، وهو الحقيقة الملاحظة، بالحقيقة اللسانية؛ لأن بعض العناصر فقط هي ملاءمة. وقد أقام "دي سوسير" تضادًا بين اللسان والكلام. الأمر الذي منعه من التنبه إلى أن التمييز الأساسي يجب أن يكون بين الوقائع الكلامية الملائمة (لأنها تسهم في التواصل) والوقائع الكلامية غير الملائمة. فلم يصل إلى التمفصل المزدوج؛ لأنه لم يعِ أنّ الألفاظ حقيقة لسانية مثلها مثل الإشارات، التي هي وحدات ذات وجهين[2].

١) المعنى الوظيفي للكلمة :

لقد كان جهد الوظيفيين منصباً على إدراك المعنى الوظيفي الذي يُؤديه أيّ عنصر في البناء اللغوي، ودوره في عملية التبليغ، فأخذوا يُصنّرون العلاقات

(١) بول ليركريستيان بلايون، مدخل إلى الألسنية، ترجمة طلال وهبة، ص٥٦.
(٢) مدخل إلى الألسنية، ترجمة طلال وهبة، ص٥٧.

النحوية التي تربط مكونات الجملة أو عناصرها، أو بين التراكيب، ذلك أن "الكلمات الوظيفية تتميز عن الكلمات المعجمية، بأنّها غير مستقلة، وهي لا تكتسب معناها إلا بالنسبة للبنى النحوية التي تدخل فيها"[1].

فكان الوظيفيّ يسعى إلى اكتشاف الوظيفة التبليغية للعناصر اللغوية، فيبحث عن العناصر التي تقوم بدور التمييز بين المعاني وتفسير المعنى النحوي للكلمة بُغية إدراك معنى الجملة يُظهر ببيان موقعها فيها ونوع علاقتها بغيرها من الكلمات المستعملة معها في التركيب، فربط المعنى بالنحو مرده إلى هدف اللغة المتمثل في تبليغ معنى أو فكرة في ذهن المتكلم إلى المُخاطب، حتى كان النحو لتأمين هذه المهمّة، والحرص على أدائها على أفضل وجه ممكن[2].

فالتحليل الوظيفي يعمل على ربط انتظام اللغوي بالوظائف التي يمكن لهذا النظام أن يؤديها من خلال التراكيب المختلفة التي تشكل بنية هذا النظام وأساسه. مع النظر إلى أن كل تركيب أو بناء لغوي يمكن أن يؤدي وظيفة مختلفة[3]؛ ومن ثم، لا يمكننا بأية حال من الأحوال أن ننظر إلى الوظيفة بمعزل عن النظام الذي تتدرج فيه. فالنظام هو تنظيم لعلاقات البنية وضبطها، وليس هذا التنظيم سوى علاقات قواعدية محكمة للعناصرَ المتشكلة والمتفاعلة فيه، والتي هي وظائف ذاتها، نتمكن بالكشف عنها من معرفة طرق الاستعمال اللغوي وغاياته.

و هناك من يقول بوظيفتين للصوت: واحدة تسهم في تحديد الدلالة، والثانية تأتي من وجوده داخل إيقاع معين. وفي الحقيقة، فإن كلاً من الوظيفتين تؤكد الوظيفة الدلالية للصوت. ربما لا تقتصر هذه الوظيفة على اتصالها بالأصوات بشكل مباشر، بقدر اتصالها بالطريقة التي تتداخل بها هذه الأصوات. ويبقى المعنى هو المرتكز الذي تسعى إليه مختلف الوظائف التي يتم الكشف عنها في هذا الإطار.

أ- أهمية المعنى الوظيفي للكلمة :

---

(١) د. أحمد عزوز، المدارس اللسانية، دار الأديب، وهران، ٢٠٠٥م، ص ١٠٩.
(٢) السابق نفسه، ص٧٤.
(٣) فردينان دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي، مجيد النصر، دار النعمان للثقافة، جونية، لبنان، ١٩٨٤م، ص ٨٨.

فغدا الباحثون يسمون لتحديد المعنى الذي تكشف عنه المباني التحليلية للغة وهو ما أطلقوا عليه "المعنى الوظيفي"، الذي يتسم بالتعدد والاحتمال؛ فالمبنى الواحد صالح لأن يُعبِّر عن أكثر من معنى وظيفي، كالاسم المرفوع الذي يصلح لمعان عدة، كالفاعل أو نائبه أو المبتدأ أو الخبر ...إلخ، و"الظروف التي تكون للظرفية المحضة، وقد تتحول إلى أدوات للشرط أو الاستفهام أو التعليل[1].
و هذا التعدد والاحتمال في المعنى الوظيفي يقف بإزائه تعدد في المعنى المعجمي، "فتعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد يجعل الناظر في النص يُحاول جهده واستثارة بقرائن مختلفة أن يُحدد أيُّ المعاني المتعددة لهذا المبنى هو المقصود"[2] و يتبدّى هذا المعنى الوظيفي على مستوى النظام الصوتي والصرفي والنحوي معاً؛ أي هو في الواقع وظيفة المبنى التحليلي، ثم يأتي المعنى المعجمي للكلمة مفردة، و ما الفصل بين مستويات النظام اللغوي إلا على سبيل التحليل فقط أمّا الاستعمال فيكون فيه مندمجٌ، "وإذا اتضح المعنى الوظيفي أمكن إعراب الجملة دون حاجة إلى معجم أو مقام"[3].

ب- أمثلة للاختلافات الوظيفية في اللغة العربية :

- مثال لاختلاف الوظيفة الصوتية: إن (الفونيم) يتكون من مجموعة علامات مميزة، وبتغيرها يتغير المعنى، كما هو الحال بين (تين)، و(طين)، < ت > له علامات مميزة تختلف عما يوجد في < ط > من سمات مميزة؛ ومن ثمّ كان لكل منهما معنى يخالف الآخر. وكذلك لنتأمل الفرق بين فونيمي "السين والصاد" في معاني الكلمات مثل (سار، وصار)، فـ < س > يختلف عن < ص > حيث التفخيم والترقيق؛ ومن ثمّ اختلفت الدلالة[4].

- مثال لاختلاف الوظيفة الصرفية: هناك صيغة واحدةً قد تفيد أكثر من معنى كصيغة (افتعل) تدل على المشاركة كما في (استبقا زيدٌ وعمرو)، كما تنقل الفعل المتعدي إلى لازم نحو: (جمعت القوم فاجتمعوا).

(١) ابن هشام مغني اللبيب تحقيق الشيخ محمد محيي الدين، ط المدني القاهرة ٢٨١/٢.
(٢) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، ط٣، عالم الكتب القاهرة ١٩٩٨م ص ١٨٠.
(٣) السابق نفسه ص ١٧٧.
(٤) ينظر لنا: اللغة وعلم اللغة قديما وحديثا، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠١٠، ص١٦١.

- مثال لاختلاف الوظيفة النحوية: كما في (أنْ، وأنَّ) فهما متفقان خطًا وصوتًا، ومختلفان معنىً وأصلاً، فالأولى حرف توكيد ولا ينصرف، والثانية صيغة الماضي من الفعل يئن أنينًا، أي تألم[1].

- مثال لاختلاف الوظيفة الدلالية: ويحدث ذلك عندما يدل اللفظ الواحد على معانٍ متعددة لا يفرق بينها إلا السياق نحو: (لفظة عين) فهي تدل على عين الماء، وعين الركبة، وعين الميزان، والعين الباصرة[2].

- مثال لاختلاف الوظيفة المعجمية: فمردّها إلى الأعراف اللغوية التي نسلت من الجذع الفصيح المشترك مرادفاتٍ مختلفة ومتباينة، وفق مختلف البلدان العربية، للدلالة على المفهوم عينه. إنّ ما يعرف بـ"جاتوّ" في المشرق العربي يُعرف بـ "نهج" في المغرب العربي. وال"ملحمة" المشرقية الاستعمال، هي "مجزرة" في الاستعمال اللغوي المغربي، وهو استعمال لا يروجُ البتة، بهذه الدلالة، في بلدان المشرق العربي؛ لأنه قد يرتبط في أذهانهم بمفهوم المجازر البشرية، والأمر ينطبق أيضًا على كلمة "العافية" التي تعني لدى المشرقيين "الصحة" ومنها تعبير "الله يعطيك العافية"؛ في حين أنها لا تقع موقعًا حسنًا في أسماع المغاربة لأن دلالاتها ترتبط في مجتمعهم بـ "النار" أو "جهنم".

إن تنوعات الاستعمال اللغوية هذه التي توقف عندها مختلف اللسانيين لا يمكنها أن تتخذ شكلاً صارمًا وثابتًا، فهي تتكامل وظيفيًا في مختلف وجوهها وفق الرؤية التزامنية الديناميكية، فالتنوعات اللغوية التي نُظر إليها في مراحل سابقة، من حيث كونها متميزة، لم تعد تتمتع بهذه الحظوة حاليًا. فقد خسرت بعضًا من "حظوتها" أو "تميزها" لإقامة الاستعمال الدارج المتداول بشكل مطرد. وفي المقابل، فالتنوعات اللغوية التي كانت أقل حظوة تتقدم حاليًا وتكتسب مواقع جديدة وتروج في مقامات تواصلية، كانت في السابق حكرًا على تنوعات لغوية أخرى[3].

(1) د. أحمد نعيم الكراعين: علم الدلالة بين النظر والتطبيق، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م، ص١١٨.
(2) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٩١٠م ص٢٠١، والسيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار إحياء التراث، د.ت، ١/٣٧٢-٣٧٥.
(3) أندريه مارتينيه وهنرييت فالتر، حوار اللغات ص٨٥، ٨٦.

٢) المعنى الوظيفي للجملة :

تعد النظرة الوظيفية للجملة امتداداً للمناقشة التقليدية العلمية التي كانت تحدث في نهاية القرن التاسع عشر حول ثنائية الموضوع subject والمحمول predicate، وكان لأستاذ الفلسفة في براغ "أنتون مارتي" الذي كانت أفكاره مؤثرة في نشأة مدرسة براغ نشاط بارز في هذه المناقشة. وقد عبر "ماثيوس" عن أفكاره في شكل ثنائيات متمايزة، تتعلق بالطرفين الأساسيين للجملة، وتأثير كيفية ترتيبها في الوظيفة التي تؤديها الجملة. وهذه الثنائيات هي ثنائية الموضوع topic والتعليقcomment، أو البؤرة focus، وثنائية المتقدم Theme والمتأخر rheme، وثنائية المسلمة given والإضافة new فالمتقدم هو الشيء المتحدث عنه الذي يفترض المتكلم معرفة المخاطب له، والمتأخر هو الجزء المتمم للجملة الذي يضيف إلى معلومات المخاطب السابقة معلومات جديدة تتصل بالمتقدم، والمسلمة هي ما يقدمه المتكلم من معلومات يدركها السامع من مصدر ما في المحيط (أي المقام أو النص السابق)، والإضافة ما يقدمه المتكلم من معلومات لا يدركها السامع من مصادر أخرى[1]، ففي الجملتين :

١- مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان .
٢- معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية .

نجد أن المعنى الإسنادي (أو النسبة الخارجية كما يقول المناطقة والبلاغيون) واحد فيهما، إذ كلاهما يفيد أن تأسيس الدولة الأموية كان على يد "معاوية بن أبي سفيان"، وبناء على ذلك فهما مترادفان تقريبًا، ولكن من الواضح أنهما يستعملان في سياقين مختلفين واختلاف السياقين يفسر بما يعتقده المتكلم بشأن ما يعرفه المخاطب حول موضوع الجملتين، فكل جملة من الجملتين تفترض أن أحد الطرفين يعرفه المخاطب وهو "معاوية بن أبي سفيان" في الجملة الأولى، وتأسيس الدولة الأموية في الثانية، وأن الطرف الثاني غير معروف، وهو من أسس الدولة الأموية في الجملة الأولى؟ ومن هو "معاوية بن أبي سفيان" في الجملة الثانية؟ فالمعلومات التي يفترض المتكلم أن المخاطب

(١) Halliday, M.A.K. & R. Hasan, Cohesion in English, London: Longman, 1976, p. 45.

يعرفها تُسمى مسلمة given information والمعلومات التي يضيفها تُسمى إضافة أو معلومات جديدة new information، وكما هو واضح فإن بنية كل جملة من الجملتين السابقتين محكومة بالوظيفة التي يريد المتكلم أن يؤديها خطابه، ففي ١ كانت الوظيفة (أي الغرض الإبلاغي) هي الإعلام بمن أسس الدولة الأموية، وفي ٢ كانت الوظيفة هي التعريف "بمعاوية بن أبي سفيان". إن الفرق الأساسي في معالجة البنيويين والوظيفيين لهذه الجملة يتمثل في أن البنيويين يصفونها كما هي في حين أن الوظيفيين يتساءلون عن سبب كونها كذلك، أي أن البنيويين يحاولون الإجابة عن كيف أو ماذا وأن الوظيفيين يحاولون الإجابة عن لماذا[1].

أ- معايير تحديد وظيفة الجملة :

يرى "أندريه مارتينيه" أن وظيفة اللغة في التواصل ترجع إلى مراعاة تنوع الاستعمالات اللغوية التي تمثل العنصر الأساسي في تطور الألسن عمومًا. هذه المسلمة اللسانية تتصل بمسألة معاينة الألسن في اشتغاليتها؛ أي في تعبيرها الدائم عن الحراك الاجتماعي. وهي مبدأ أثير عند اللسانيين يعتمدونه في رصدهم اليومي لمختلف الاستعمالات اللغوية التي تعكس عقلية الفرد المتكلم وحسّه التداولي؛ فضلاً عن روحية الجماعة الحاضنة له والمحفزة لوعيه اللغوي. ومن باب أولى القول إن التبادلات والانتعاشات التي تشوب الألسن عمومًا تُعَد نتيجة طبيعية للسيرورات والتحولات الاجتماعية؛ بيد أن التطور أو الانفتاح الذي يلحق باللغة الإنسانية في مختلف أوضاعها، أو بمستويات اللسان عينه، يعود في الواقع إلى عوامل مؤثرة تتصل بعوالم متداخلة منها الثقافة والتعليم والوسائطية والمعلوماتية[2].

١. معيار الرتبة :

تختلف اللغات في حرية الرتبة، فاللغة العربية تتسم بالحرية لكونها تعتمد على قرينة الإعراب، التي تميز المعلومات المسلمة من المعلومات الجديدة.

---

(١) د. محمد محمد يونس، أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، الكويت، مجلة عالم الفكر، ع١، م٣٢، ٢٠٠٣م، ص١٤٧.

(٢) أندريه مارتينيه وعربيت فاطمة، حوار اللغات، ص٨١.

مثال: (منح المتفوقين المدرسون جوائز تقديرية) فنصب "المتفوقين" دل على مفعوليتها، ورفع "المدرسون" دل على فاعليتها، على حين تعد الإنجليزية من اللغات التي تكون فيها الرتبة مقيدة إلى حد كبير؛ ولذا فهي تلجأ إلى قرينة التنغيم، أكثر من غيرها، في تحديد المعلومات المسلمة والمعلومات الجديدة، وكذلك المبني للمجهول.

٢. معيار المطابقة:

يُعتمد على المطابقة لتعيين وظيفة الجملة؛ فإذا قولنا في العربية ضربت موسى يسرا، دلت تاء التأنيث في الفعل على كون الفاعل (يسرا)، وموسى (المفعول) وهي قرينة المطابقة[1].

٣. أداة التعريف:

فيمكن من خلال (ال) في العربية تعيين العنصر الجديد في الجملة من العنصر المضاف، فوجودها يدل على أن هذا العنصر معلوم لدى المخاطب، في حين يكون غيابها دالًا على تنكيره وعدم معرفته، ومن ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ (المزمل/١٥، ١٦) فقد أشارت كلمة "رسولا" الخالية من أداة التعريف إلى مرجع غير معروف، في حين كان دخول (ال) على كلمة رسول الثانية سببا في تحديد المقصود بالرسول[2].

٤. دور المتكلم:

ويرى اللسانيون الوظيفيون أن المخاطب هو الذي يقرر أيا من المعلومات ينبغي أن يعد من المسلمات، وأيها ينبغي أن يعد جديدًا، وقد أكد "هاليدي" هذه الحقيقة عندما ذهب إلى القول بأن الذي يحدد وضع المعلومة ليس بنية الخطاب بل المتكلم[3].

---

(١) ابن جني، الخصائص، ١/٣٥ بتصرف.

(٢) د. محمد محمد يونس، أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، ص ١٤٨.

(٣) ج.ب براون، ج يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق د. محمد لطفي الزليطني ود. منير التريكي، ص ٢٢٥.

• الاعتماد على المعنى الدلالي :

وذلك من خلال جعل قولة ما جوابًا لسؤال نسأله، انظر كيف يمكن أن نعرف المعلومة الجديدة من خلال طرح الأسئلة في المقولات الآتية :

س١- ماذا فعل القط؟ ج١- لقد أكل الفأر.

س٢- ماذا حدث للفأر؟ ج٢- لقد أكله القط.

س٣- هل الكلب أكل الفأر؟ج٣- لا، بل القط هو الذي أكل الفأر.

س٤- هل الفأر أكل القط؟ج٤- لا، بل الفأر هو الذي أكله القط.

لا حظ أن المعلومة المسلمة يشار إليها بالضمير، كما في الجواب رقم ١، حيث أشير إلى القط بالضمير المستتر في "أكل".

ويُقسِّم الوظيفيون ما تُعورف عليه بالمتقدم ثلاثة أقسام : المتقدم الموضوعي، والمتقدم الشخصي، والمتقدم النصي. فمثال المتقدم الموضوعي القط في نحو "القط أكل الفأر". ومثال المتقدم الشخصي بصراحة في نحو "بصراحة، أداتك لا يعجبني". ومثال المتقدم النصي على أي حال في نحو "على أي حال، حاول أن تعيد النظر في أداتك وسترى"[1].

تصنيف الوظائف اللغوية :

مما لاشك فيه أن اللغة تتدخل بصورة فعّالة في حياتنا، فنكيف تعاملنا وتفاعلنا مع الآخرين. إننا نستعملها كي نأمر، وكي نستفهم ونسأل، وكي نشكر بعضنا بعضًا، وكي نتجادل ونتناقش ....إلخ؛ ويتفق أكثر علماء اللغة المحدثين على أنّ وظيفة اللغة هي: التعبير والتواصل والتفاهم، رغم أنّ بعضهم يرفض تقييد وظيفة اللغة بالتعبير والتواصل؛ فالتواصل إحدى وظائفها إلا أنّه ليس الوظيفة الرئيسة؛ ومن ثم أسمت الوظيفة اللغوية إلى قسمين هما الوظيفة المعرفية cognitive والأخرى الوظيفة الانفعالية emotive.

---

(١) د. محمد محمد يونس، أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، ص ١٤٨، ١٤٩.

فأولاهما : الوظيفة المعرفية التي عُني بها اللسانيون وفلاسفة اللغة، وتنحصر في كونها وسيلة لأداء المعلومات، مثلما يحدث في الأمر والنهي والاستفهام؛ ومن ثم يذكر "بهت": (أن وظيفة التواصل تتمثل أساسًا في سعي المتكلم إلى إبلاغ المتلقي بأمر ما أو إلى نسبة عمل ما إليه)[1]. وهذه الوظيفة يرجع إليها الفضل في تطوير الثقافات والحضارات بين الشعوب على اختلاف أجناسها ولغاتها وموروثاتها، كما يرجع إليها الفضل في ظهور الفلسفة والعلم والأدب، وانتقالها من موطنها الأصلي إلى غيرها من الثقافات الأخرى.

وثانيتهما : الوظيفة الانفعالية وهي التي عُني بها علماء اللسانيات الاجتماعية، وفيها تقوم اللغة بدور التواصل بين أفراد المجتمعات البشرية؛ لإقامة العلاقات الاجتماعية وتثبيتها، كـ(الشكر، والتحية، والمجاملة)؛ ولذا عُني محللو لغة الخطاب كـ"براون ويفنسون" (١٩٧٨م) باللغة المستعملة لتنسيق الأدوار والعلاقات، وتضامن الأقران، وتحديد التبادل في الأدوار عند المحادثة، وإسعاف كل من المتكلم والمتلقي. ومن أوضح ما يمثل هذا الجانب من الاستعمال اللغوي أن قدرًا كبيرًا من المعاملات اليومية بين الناس إنما تقوم على اللغة؛ بوصفها بالدرجة الأولى أداة اتصال بين الأفراد أكثر من قيامه على اللغة بوصفها أداة تعامل[2]. وقد حاول فلاسفة الوضعية المنطقية التمييز بين الوظيفتين بجعل أولاهما المنوطة بالاهتمام؛ لأن اللغة فيها تُستعمل كأداة رمزية تشير إلى الوقائع الموجودة في العالم الخارجي، ولا يزيد فعل اللغة بذلك على أن يكون تصويرًا لهذه الوقائع. وعبارات اللغة في هذا المجال – على الأكثر - هي العبارات الخبرية. أما الوظيفة الانفعالية فجعلوها وظيفة ثانوية؛ لكونها تُستعمل في إخراج الانفعالات التي تضطرب بها نفس المتكلم كما يفعل الشاعر مثلاً. وغالبًا ما تكون الجمل الإنشائية هي المعبرة عن هذه الوظيفة[3]، وهذا الإجمال لم يُرضِ كثيرًا من الوظيفيين؛ فذهبوا مذاهب شتى في تصنيف هذه الوظائف وسنبينها فيما يلي :

١. تصنيف مالينوفسكي (ت ١٩٣٤م) :

(١) ج. ب براون، ج يول: تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق د.محمد لطفي الزليطني ود. منير التريكي، ص٦.
(٢) تحليل الخطاب، ص٣.
(٣) جون جوزيف: اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٧م، ص٣٦، ٣٧.

● الاعتماد على المعنى الدلالي :

وذلك من خلال جعل قولة ما جوابًا لسؤال نسأله، انظر كيف يمكن أن نعرف المعلومة الجديدة من خلال طرح الأسئلة في المقولات الآتية :

س١- ماذا فعل القط؟ ج١- لقد أكل الفأر.

س٢- ماذا حدث للفأر؟ ج٢- لقد أكله القط.

س٣- هل الكلب أكل الفأر؟ج٣- لا، بل القط هو الذي أكل الفأر.

س٤- هل الفأر أكل القط؟ج٤- لا، بل الفأر هو الذي أكله القط.

لا حظ أن المعلومة المسلمة يشار إليها بالضمير، كما في الجواب رقم ١، حيث أشير إلى القط بالضمير المستتر في "أكل".

ويُقسّم الوظيفيون ما عُورف عليه بالمتقدم ثلاثة أقسام : المتقدم الموضوعي، والمتقدم الشخصي، والمتقدم النصي. فمثال المتقدم الموضوعي القط في نحو "القط أكل الفأر". ومثال المتقدم الشخصي بصراحة في نحو "بصراحة، أداتك لا يعجبني". ومثال المتقدم النصي على أي حال في نحو "على أي حال، حاول أن تعيد النظر في أداتك وسترى"[1].

تصنيف الوظائف اللغوية :

مما لاشك فيه أن اللغة تتدخل بصورة فعّالة في حياتنا، فتكيف تعاملنا وتفاعلنا مع الآخرين. إننا نستعملها كي نأمر، وكي نستفهم ونسأل، وكي يشكر بعضنا بعضًا، وكي نتجادل ونتناقش ....إلخ؛ ويتفق أكثر علماء اللغة المحدثين على أنّ وظيفة اللغة هي: التعبير والتواصل والتفاهم، رغم أنّ بعضهم يرفض تقييد وظيفة اللغة بالتعبير والتواصل؛ فالتواصل إحدى وظائفها إلا أنّه ليس الوظيفة الرئيسية؛ ومن ثم أضحت الوظيفة اللغوية إلى قسمين هما الوظيفة المعرفية cognitive والأخرى الوظيفة الانفعالية emotive.

---

(١) د. محمد محمد يونس، أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، ص ١٤٨، ١٤٩.

فأولاهما : الوظيفة المعرفية التي عُني بها اللسانيون وفلاسفة اللغة، وتنحصر في كونها وسيلة لأداء المعلومات، مثلما يحدث في الأمر والنهي والاستفهام؛ ومن ثم يذكر "يول": (أن وظيفة التواصل تتمثل أساسًا في سعي المتكلم إلى إبلاغ المتلقي بأمر ما أو إلى نسبة عمل ما إليه)[1]. وهذه الوظيفة يرجع إليها الفضل في تطوير الثقافات والحضارات بين الشعوب على اختلاف أجناسها ولغاتها وموروثاتها، كما يرجع إليها الفضل في ظهور الفلسفة والعلم والأدب، وانتقالها من موطنها الأصلي إلى غيرها من الثقافات الأخرى.

وثانيتهما : الوظيفة الانفعالية وهي التي عُني بها علماء اللسانيات الاجتماعية، وفيها تقوم اللغة بدور التواصل بين أفراد المجتمعات البشرية؛ لإقامة العلاقات الاجتماعية وتثبيتها، كـ(الشكر، والتحية، والمجاملة)؛ ولذا عُني محللو لغة الخطاب كـ"براون ويفنسون" (١٩٧٨م باللغة المستعملة لتنسيق الأدوار والعلاقات، وتضامن الأقران، وتحديد التبادل في الأدوار عند المحادثة، وإسعاف كل من المتكلم والمتلقي. ومن أوضح ما يمثل هذا الجانب من الاستعمال اللغوي أن قدرًا كبيرًا من المعاملات اليومية بين الناس إنما تقوم على اللغة، بوصفها بالدرجة الأولى أداة اتصال بين الأفراد أكثر من قيامه على اللغة بوصفها أداة تعامل[2]. وقد حاول فلاسفة الوضعية المنطقية التمييز بين الوظيفتين بجعل أولاهما المنوطة بالاهتمام؛ لأن اللغة فيها تُستعمل كأداة رمزية تشير إلى الوقائع الموجودة في العالم الخارجي، ولا يزيد فعل اللغة بذلك على أن يكون تصويرًا لهذه الوقائع. وعبارات اللغة في هذا المجال – على الأكثر- هي العبارات الخبرية. أما الوظيفة الانفعالية فجعلوها وظيفة ثانوية؛ لكونها تُستعمل في إخراج الانفعالات التي تضطرب بها نفس المتكلم كما يفعل الشاعر مثلاً. وغالبًا ما تكون الجمل الإنشائية هي المعبرة عن هذه الوظيفة[3]، وهذا الإجمال لم يُرض كثيرًا من الوظيفيين؛ فذهبوا مذاهب شتى في تصنيف هذه الوظائف وسنبينها فيما يلي :

١. تصنيف مالينوفسكي (ت ١٩٤٢م) :

---

(١) ج. ب براون، ج يول: تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق د.محمد لطفي الزليطني ود. منير التريكي، ص٢.
(٢) تحليل الخطاب، ص٢.
(٣) جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٧م، ص٣٦، ٣٧.

وضع "مالينوفسكي" تصنيفاً للوظائف اللغوية مرتبطاً بعمله عن الموقف والمعنى (١٩٢٣م). وقد جعل وظائف اللغة – في هذا التصنيف – في مقولتين اثنتين واسعتين، هما: الوظيفة التداولية Pragmatic function، والوظيفة السحرية Magical function. ولما كان "مالينوفسكي" أنثربولوجيا، فقد عنى بالاستعمالات العملية أو التداولية للغة من ناحية (وهي التي فرّعها – بعد ذلك – إلى الاستعمالات الفاعلة والاستعمالات السردية). ومن ناحية أخرى، عني بما للغة من استعمالات طقوسية، أو سحرية. وهي تلك الاستعمالات التي ترتبط بالنشاطات الاحتفالية الرسمية، أو الدينية في ثقافة بعينها[1].

٢. تصنيف كارل بوهلر (ت١٩٣٤م) :

وقد كان "بوهلر" قد حصر الوظائف اللغوية في ثلاثة[2]:

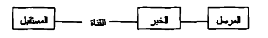
أ. وظيفة تمثيلية: ترجع إلى موضوع الحديث أي إلى المحتوى الإرجاعي، ويمكن أن نطلق عليها (الوظيفة الوصفية).

ب. وظيفة تعبيرية: وهي ترجع إلى المتحدث وتشير إلى حالته الفكرية والعاطفية بالنسبة لموضوع الحديث.

ج. وظيفة ندائية: وترجع إلى المخاطب ومشاركته في التواصل كطرف مرتبط ومعني بالمرسلة.

٣. تصنيف شانون/ ويفر (ت١٩٤٦م) :

وضع الأمريكيان "شانون" و"ويفر" نموذجاً مؤسساً على النظرية الإعلامية ومكوناً من: المرسل، والخبر، والشفرة، والقناة، والمستقبل. وينطبق هذا النموذج على المعالجة التوضيحية لتوصيل النصوص أيضاً :



(١) د.محمد العبد، العبارة والإشارة، ط٢، مكتبة الآداب، ٢٠٠٧م، ص٣٣.
(٢) جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، ص٦٥.

وقد راق لـ"سوونسكي" أن يربط هذا النموذج بالاتصال النصي؛ لمع حدث الاتصال – حينما يكون نقل الأخبار في هيئة نصية. يؤدي المؤلف دور المرسل ويوضع النص ذاته في شفرة؛ أي في صيغة لغوية، يطمئن إليها المرسل والمستقبل وتناسب النقل عبر قناة (سمعية أو بصرية) مختارة. وقد تستلزم خصوصيات القصد، والموقف تغييرات في مكونات الشفرة والصيغة النصية[1].

٤. تصنيف ديسموند موريس (١٩٦٧م) :

قدَّم "موريس"- في دراسة له عن الأجناس البشرية من وجهة النظر إلى سلوكية الحيوان- تصنيفاً آخر لوظائف اللغة، فيما أسماه بـ"الحديث الإعلامي information talking"، و"الحديث المزاجي mood talking"، و"الحديث الراوي (الثرثرة) grooming talking".

أما الأول، فهو تبادل المعلومات تبادلاً مشتركاً. وكأن "موريس" يرمي إلى إظهار هذا النوع أولاً، بالرغم من أن تاريخ حياة الإنسان والطفل – كما يقول "هاليداي"- يبين أنه يأتي في آخر ما حدده من أنواع. وأما الثاني، فيشبه الوظيفة التعبيرية عند "بوهلر"، وكذلك عند "جاكوبسون". وقد عرف النوع الثالث بأنه من أجل الحديث؛ كأن له وظيفة جمالية ووظيفة التلاعب.

كذلك، فقد عرف النوع الأخير بأنه الثرثرة المهذبة التي لا معنى لها في مناسبات اجتماعية. وهذا ما أشار إليه "مالينوفسكي" في حديثه عن المخالطة الاجتماعية؛ أي الاشتراك في المعنى أثناء الحديث، على نحو ما نجد في استعمال الناس تعبيرات مثل: يوم جميل، أليس كذلك؟؛ فمثل هذه التعبيرات، تُعد – بعبارة "هاليداي"- طريقة لتزييت التفاعل الاجتماعي[2].

٥. تصنيف ليتش (١٩٧٦م) :

يتصل تصنيف "ليتش" اتصالاً محكماً بملامح جوهرية خمسة في أي موقف اتصالي، وهي :

(١) د.محمد العبد، العبارة والإشارة، ص٣٤، ٣٥.
(٢) السابق نفسه، ص٣٦، ٣٧.

١. الموضوع subject- matter.
٢. المبتكر Originator (كالمتكلم أو الكاتب).
٣. المستقبل Receiver (كالمستمع أو القارئ).
٤. قناة الاتصال Cannel of Communication.
٥. الرسائل اللغوية ذاتها Linguistic Message.

وتطابق كل وظيفة من الوظائف الخمس توجه اللغة إلى عامل من العوامل السابقة :

الوظيفة	توجه اللغة إلى عامل
الإعلامية :	الموضوع
التعبيرية :	المتكلم/ الكاتب
التوجيهية :	المستمع/ القارئ
الاجتماعية :	قناة الاتصال
الجمالية :	الرسالة[1]

٦. تصنيف كوستاف جيوم :

أ. يعد "كوستاف جيوم" "Gustave Guillaume" من أعلام المدرسة الوظيفية الذين طوروا نظرية في اللغة عرفت بـ "السيكو- نسقية" "Psycho-systematique" أو علم النفس الميكانيكي، ويعد هذا اللساني اللغة «نشاطاً يرتبط بحركة الفكر، بدلاً من أن تكون نظام اختلافات» فقط كما قال "دي سوسير".

ب. وقد ميّز "جيوم" على صعيد القول أو الكلام بين:

- وظيفة مركزية : وظيفة التواصل .

- وظائف ثانوية : لا يمكن تحديدها بالنسبة إلى الوظائف الباقية إلا كانزياح استعمال اللسان.

(١) د.محمد العبد، العبارة والإشارة، ص٤١.

ج. الأداة التواصلية لأغراض غير التواصل هي :

- وظيفة إظهارية : تبرير الخلط بين المتكلم والمستمع وتصلح اللغة لتأكيد وجود الذات والغير.
- وظيفة جمالية : استعمال اللسان في تواصل أفضل.
- وظيفة بلورة الفكرة : تدخل العلاقة بين اللسان والفكر في مجال علم النفس، لأن اللغوي لا ينظر إلا في الفكر المنطوق.

- طرائق لسانية لا تفسّر وجودها الحاجات التواصلية منفردة :

- وظيفة تعبيرية: إظهار إرادي للعاطفة بواسطة الترْمقطعية، إلخ.
- وظيفة دعوية: يحاول المتكلم أن يولّد عند المستمع بعض التأثيرات العاطفية دون أن يشاطره إياها (كحال الخطيب والكاتب، إلخ..).
- وظيفة تلعيدية: تُستعمل اللغة للتحدث عن اللغة (أحمر هو نعت)[1].

٧. تصنيف بوبر :

إذ يفسّر "بوبر" تطوّر القدرة على استعمال اللغة وظيفيًا، بأنها تتشعب إلى ثلاث شعب؛ البيولوجية، والنفسية، والاجتماعية. فالقدرة عند الإنسان، في أصلها، هي بلا شك موروث جيني في حين يكون السلوك اللغوي شيئًا يكتسبه الإنسان من خلال التعلم والممارسة، بيد أنه يظل بحاجة إلى الفعل الثقافي والاجتماعي لاستعمال ما تعلمه. وتنحصر وظائف استعمال اللغة عند "بوبر" في أربع وظائف، مرتبة من الأدنى إلى الأعلى هي :

أ. الوظيفة التعبيرية: (التعبير الشخص عن حالاته الداخلية).
ب. الوظيفة الإشارية: (التبليغ الشخص المعلومات المتعلقة بحالاته الداخلية إلى الآخرين).

ج- الوظيفة الوصفية: (لوصف الأشياء في المحيط الخارجي).
د- الوظيفة الحجاجية: (لتقييم الحجج وتبريرها).

---

(١) مدخل إلى الألسنية، ترجمة طلال وهبة، ص٩١، د. ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، ص ٨٥-٩١.

ويرى "بوبر" أنّ هذه الوظائف تكوّن هرمًا، بحيث يتزامن ظهور الوظيفة التي تقع في المرتبة الأعلى مع ما دونها من وظائف، في حين لا تتضمن الوظيفة الدنيا ما يعلوها من وظائف[1].

٨. تصنيف جاكوبسون (١٨٩٦- ١٩٨٢م) :

الفكرة الأساسية لـ"جاكوبسون" تعيد المواقف المعاشة إلى سياق واحد. فالموقف الاجتماعية توصف بالنسبة إلى "موقف عام". وهذا الموقف يوضحه "جاكوبسون" في رسم بياني أصبح اليوم مشهورًا. وهو يعتمد على عوامل متعددة لا تنفصل في التواصل الكلامي. وهذا الرسم البياني يأخذ الشكل التالي[2]:

سياق

الرسالة

مُرسِل ←———— ———— ←———— مُرسَل إليه

اتصال

نظام رموز

فالمرسل (أو المتكلم) هو مصدر الرسالة، أي المكان الذي تنعقد فيه خيوط الرسالة وتكتمل. فضلاً عن أن مصطلح "مرسل" لا يُطلق على الأشخاص وحدهم بل يطلق على الأجهزة أيضًا. فالراديو يُعد مرسلاً لأنه يرسل إشارات ذات قوة وشكل معيّنين .

أما المرسَل إليه أو المستقبل، فهو الذي يقوم بفك الرموز وفهم النص. والمرسِلة ترتكز على المخزون اللغوي الذي يختار منه المرسل ما يحتاج إليه للتعبير، ثم ينظمه في مقولة يبثها إلى المرسَل إليه. ولكنها لا يمكن أن تُفهم أو تُنفذ إلا ضمن سياق تردّها إليه (وهو ما نسميه المرجع) ويمكن فهمه من قبل المتلقي. ثم تأخذ المرسلة نظامًا مشتركًا بين باث وفاك الرموز. وأخيرًا لابد من

---

(١) د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص١٤.
(٢) د. فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، ص٦١، ٦٥.

وجود قناة اتصال بين المرسل والمرسَل إليه لإقامة التواصل. إن كل واحد من هذه للعناصر السابق ذكرها يولد وظيفة لغوية مختلفة[1].

وقد رأى "جاكوبسون" أن هناك ست وظائف للاتصال كان قد صنفها كما يلي :

أ. الوظيفة التعبيرية :

تحدد هذه الوظيفة العلائق بين الرسالة والمرسل، فعندما نتصل بالآخرين عبر الكلام، أو أي نمط من أنماط الدلالة، فإننا نرسل ـ في الحقيقة ـ أفكاراً تكون نسبية طبقاً لطبيعة المرجع، إلا أنه باستطاعتنا أيضاً أن نعبر عن موقفنا إزاء هذا الشيء؛ فنحسه جيداً أو سيئاً، جميلاً أو بشعاً، مرغوباً فيه أو منفراً، محترماً أو مضحكاً.

وتتمثل الناحية الانفعالية الصرفة في اللغة في حروف التعجب، وهذه الحروف تبتعد عن أساليب اللغة المرجعية عبر تمثيلها الصوتي (نلاحظ فيها تتابعات صوتية خاصة، كما نلاحظ أصواتاً غير مألوفة في بقية المواضع)[2]، وفي الوقت نفسه عبر دورها التركيبي، فحرف التعجب ليس عنصراً من عناصر الجملة، إنما يعادل الجملة التامة[3].

ب. الوظيفة التأثيرية أو (الأمرية) :

وهي وظيفة تضمينية أو أمرية تحدد العلاقات بين الرسالة والمستقبل؛ لأن غاية كل تواصل هو الحصول على رد فعل أو استجابة من هذا المستقبل[4].

ويمكن أن يتوجه هذا النداء أو الأمر إما إلى ذكاء وإما إلى عاطفة المستقبل بحيث يتضح التمييز ـ على هذا المستوى ـ بين الموضوعي والذاتي، والمعرفي

---

(1) د. فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، ص٦٥، د. عمر أوكان، اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠١م ص٣٦، ٣٧.

(2) جاكوبسون، مولان، ميكي، هابرماس وآخرون، التواصل نظريات ومقاربات، ترجمة عز الدين الخطابي وزهور حوتي، ط النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م ص٦٥،٦٦.

(3) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص ١٠١،١٠٢، د.عمر أوكان، اللغة والخطاب ص٤٩.

(4) جاكوبسون، مولان، ميكي، هابرماس وآخرون، التواصل نظريات ومقاربات، ص٦٧،٦٨.

والعاطفي، علاقة تبرر التعارض القائم بين الوظيفة المرجعية – التي سنتحدث عنها فيما بعد- والوظيفة العاطفية.

وهكذا تظهر هذه الوظيفة في الرسائل التي تتوجه إلى المستقبل؛ لإثارة انتباهه أو لنطلب منه القيام بعمل معين وتدخل جملة الأمر، والاستفهام، والنداء، والتمني، والأساليب الانشائية عمومًا ضمن هذه الوظيفة التأثيرية[1].

ج. الوظيفة المرجعية :

تظهر هذه الوظيفة في الرسائل ذات المحتوى، وهي التي تتناول موضوعات وأحداثًا معينة، وتشكل هذه الوظيفة التبرير الأساسي لعملية التواصل .

ذلك أننا نتكلم وغايتنا الإشارة إلى محتوى بعينه، نرغب في إيصاله إلى الأخرين، وتبادل الآراء معهم حوله[2]، وهي من أهم الوظائف، إن لم نقل إنها الوظيفة الأساسية، لأننا نتحدث غالبًا لنخبر ونبلغ ونُعلم؛ لهذا عدها غيره قاعدة كل تواصل[3].

د. الوظيفة الانتباهية :

وتهدف هذه الوظيفة إلى تأكيد وتثبيت أو إيقاف التواصل ويصنف "جاكوبسون" بناءً على ذلك كل العلامات التي تنشيء التواصل أو تسعى إلى إطالته أو إيقافه، كما تعمد إلى التأكد من فاعلية التواصل مثل ما يحدث عند قولنا ونحن نتكلم هاتفيا: "ألو، أتسمعني؟" أو إلى لفت انتباه المتحدث أو التثبت من عدم إهماله الخط الهاتفي: "قل أتسمعني؟" أو "اصغ إلى جيدًا فيجيب المستمع في الطرف الأخر "هم ... هم، أو نعم ... نعم"[4].

وقد أخذ "جاكوبسون" هذه الوظيفة عن "مالينوفسكي"، وبالجملة فإن هذه الوظيفة تظهر في الرسائل التي تراعي إقامة الاتصال وتأمين استمراره، وتقوم

(١) د. رابحس نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٠٣ ، د. عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص٥٠.
(٢) د. رابحس نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٠١.
(٣) د. عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص٥٠.
(٤) جاكوبسون، مولان، ميكي، هابرماس وآخرون، التواصل نظريات ومقاربات، ص٦٨-٦٩.

هذه الوظيفة على تعابير تتيح للمرسل إقامة التواصل أو قطعه؛ ومن ثم تؤدي دوراً مهماً في كل أشكال التواصل[1]، وتدخل في هذا الإطار عبارات المجاملة والأدب، والأسئلة عن الصحة والطقس، والتحية والسلام، وغيرها مما أسماه "مالينوفسكي" "بالتشارك الانتباهي"؛ حيث الخطاب لا يهدف إلى الإبلاغ (ومن ثم فليس كل تواصل يستهدف إبلاغًا). فالمحتوى هنا لا يعبر عن معلومات بل يعبر عن علاقات اجتماعية [2].

هـ- الوظيفة الميتالغوية:

وقد سماها "أنطوان أبو زيد"[3] "الألسنية التحديدية" وبيّن – نقلاً عن "بيير كيرو" – أنها تهدف إلى تحديد معنى العلامات التي تستعصي على فهم المستقبل.

وتظهر هذه الوظيفة في الرسائل التي يكون محورها اللغة نفسها فتتناول بالوصف اللغة ذاتها، وتشتمل هذه الوظيفة على عناصر البنية اللغوية وتعريف المفردات[4]، وتؤدي هذه الوظيفة دورًا مهمًا لدى المتلقي، وفي الحياة اليومية، وفي تعلم اللغة واكتسابها (اللغة الأم أو اللغة الأجنبية) وهي تُمارس في كل مرة يلجأ فيها أحد طرفي التواصل (المرسل أو المتلقي) إلى التأكد من استعمالها السنن نفسه[5].

و- الوظيفة الشعرية:

المركزة على الرسالة بالذات، وذلك حين تكون المرسلة معدة لذاتها: كما في النصوص الفنية اللغوية (مثل القصائد الشعرية، وغيرها)[6].

(1) د. رابص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٠٦.
(٢) د. عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص٥٠، ٥١.
(٣) بيير جيرو، السيمياء، ترجمة أنطوان أبو زيد، ط ١، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص١٢.
(٤) د. رابص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٠٧.
(٥) د. عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص٥١.
(٦) جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص ١٣٢، ١٣٣، د. فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، دراسة ونصوص، ص٦٧.

فالوظيفة الشعرية ليست الوظيفة الوحيدة لفن الكلام، فهي فقط الوظيفة السائدة والمحددة، بيد أنها تؤدي في النشاطات الكلامية الأخرى دوراً مساعداً ومتمماً وتتعمق هذه الوظيفة – التي تُظهر بوضوح الناحية المحسوسة في الإشارات في التفرع الثنائي الأساسي بين الإشارات والأشياء[1]، وقد جاء اهتمام جاكوبسون بالوظيفة الشعرية بغية تحويل الاهتمام من العناصر الخارجية إلى العناصر الداخلية للنص. ويأتي تركيزه على التوازنات الصوتية، في إطار مهاجمة الشكلانية[2].

وعلى الرغم من اعتراض بعضهم على هذا التقسيم، من أنه تقسيم غير كاف، وأن (جاكوبسون) لم يستوف وظائف اتصالات اللغة كلها، إضافة إلى بعض اللبس الكامن في تصنيفه، ولا سيما في تمييز وظيفة عن أخرى، وفي عدم انطلاقها من معايير لغوية حقيقية، بالإضافة إلى عدم قدرة هذه الوظائف على تفسير فعل اللغة وتطورها من وجهة نظر لغوية، على الرغم من ذلك كله، إلا أن هذ التصنيف تعد من حيث شموليته، من أبرز التصنيفات التي تعالج وظائف اللغة من خلال وصف استعمالاتها وشرحها[3].

٩. تصنيف هاليداي (ت ١٩٩٠م) :

اهتم "هاليداي" بوظيفة اللغة، من حيث كونها ظاهرة اجتماعية تعتمد في تطورها على نظامها الداخلي وأشكالها الدلالية، وتنقسم إلى :

١. وظيفة فكرية : وبها يتمكن المتكلم من التعبير عن المحتوى، أي خبرته بعالم الواقع بما فيه العالم الداخلي لوعيه الخاص، وفي إجراء هذه الوظيفة يشير المتكلم إلى الناس، والأشياء، والأفعال، والوقائع، والحالات، والكيفيات، والملابسات. نحو : أنا اشتريت سيارة جديدة أمس. فيكون محتوى المنطوق جمع بين متكلم+ فعل+ شيء+ حالة+ زمن[4].

٢. الوظيفة التعاملية : وبها يتواصل المتكلم مع أفراد مجتمعه، ويتبادل معهم الخبرات والثقافة، وهي تعبّر عن دور المتكلم في مقام الكلام، وما يلزم به

---

(١) د. رابعص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٠٩.
(٢) د. عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص٥٢.
(٣) مدخل إلى الأسلوبية، ترجمة طلال وهبة، ص٩٣.
(٤) السابق نفسه، ص٤١.

نفسه من قيم وأعراف في تعامله مع الآخرين، نحو: "صباح الخير أهلاً، أشكركم على المقابلة، إلى اللقاء. وقولنا مثلاً: كيف حالك؟، يومًا جميلاً"، يُعد من طرق إطالة هذا الاحتكاك[1].

وهذه الوظيفة من وظائف اللغة هي التي تعين على تأسيس العلاقات الاجتماعية وترسخها، وهي التي من خلالها تتحدد الفئات الاجتماعية وتُشكل وتقوي شخصية الفرد، إذ إن تمكينه من الاتصال بالآخرين والتعامل معهم يعينه على التعبير عن ذات نفسه وعلى تطويرها[2].

ج. الوظيفة النصية :

تجعل المتكلم قادراً على بناء النصوص، أو الربط بين أجزاء الخطاب الواحد، بما تقدمه من وسائل الربط وخصائص السياق الذي تستخدم اللغة فيه، وهي التي تجعل السامع أو القارئ يميز نصًا من مجموعة عشوائية من الجمل[3]. ولنتأمل الفقرة التالية: "يسعى الأولاد إلى السيارة. وقفت السيارة عند حافة العشب. رمى الأولاد الكأس المملوءة على السيارة. تطلع الأولاد ناحية المظلة. اشتعل الضوء الخافت في المظلة".

إذا تأملناه أدركنا أن الفقرة النموذجية أكثر من مجرد تتابع من الجمل. إن النص يستخدم أنماطًا متنوعة من المصادر اللغوية للتعبير عن الأفكار وتعليق بعضها ببعض وبدون هذه المصادر فإن الأثر الناتج سيكون عبارة عن فقرة غير متماسكة[4]. د. الوظيفة المنطقية: وهي التي تربط الأفكار بعضها ببعض على أساس التعادل أو التبعية، نحو: زيد سيتأخر، وعمرو لن يستطيع أن يأتي مطلقًا[5].

وللمس من هذا التصنيف عند "هاليداي" الاهتمام بإبراز العلاقة التي

---

(1) د. محمد العبد، العبارة والإشارة، ص٥٠.
(2) د. سعد مصلوح، في النص الأدبي (دراسة أسلوبية إحصائية)، ط٢، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٩٧.
(3) د. محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ط٢، ملتقى الفكر، ٢٠٠١م، ص٥٣.
(4) د. محمد العبد، العبارة والإشارة، ص٤٦.
(5) السابق نفسه، ص٤١.

فالوظيفة الشعرية ليست الوظيفة الوحيدة لفن الكلام، فهي فقط الوظيفة السائدة والمحددة، بيد أنها تؤدي في النشاطات الكلامية الأخرى دوراً مساعداً ومتمماً وتتعمق هذه الوظيفة – التي تُظهر بوضوح الناحية المحسوسة في الإشارات في التفرع الثنائي الأساسي بين الإشارات والأشياء[1]، ولقد جاء اهتمام جاكوبسون بالوظيفة الشعرية بغية تحويل الاهتمام من العناصر الخارجية إلى العناصر الداخلية للنص. ويأتي تركيزه على التوازيات الصوتية، في إطار مهاجمة الشكلانية[2].

وعلى الرغم من اعتراض بعضهم على هذا التقسيم، من أنه تقسيم غير كاف، وأن (جاكوبسون) لم يستوف وظائف اتصالات اللغة كلها، إضافة إلى بعض اللبس الكامن في تصنيفه، ولا سيما في تمييز وظيفة عن أخرى، وفي عدم انطلاقها من معايير لغوية حقيقية، بالإضافة إلى عدم قدرة هذه الوظائف على تفسير فعل اللغة وتطورها من وجهة نظر لغوية، على الرغم من ذلك كله، إلا أن هذا التصنيف تعد من حيث شموليته، من أبرز التصنيفات التي تعالج وظائف اللغة من خلال وصف استعمالاتها وشرحها[3].

٩. تصنيف هاليداي (ت ١٩٩٠م) :

اهتم "هاليداي" بوظيفة اللغة، من حيث كونها ظاهرة اجتماعية تعتمد في تطورها على نظامها الداخلي وأشكالها الدلالية، وتنقسم إلى :

١.الوظيفة الفكرية : وبها يتمكن المتكلم من التعبير عن المحتوى، أي خبرته بعالم الواقع بما فيه العالم الداخلي لوعيه الخاص، وفي إجراء هذه الوظيفة يشير المتكلم إلى الناس، والأشياء، والأفعال، والوقائع، والحالات، والكيفيات، والملابسات. نحو : أنا اشتريت سيارة جديدة أمس. فيكون محتوى المنطوق جمع بين متكلم+ فعل+ شيء+ حالة+ زمن[4].

٢.الوظيفة التعاملية : وبها يتواصل المتكلم مع أفراد مجتمعه، ويتبادل معهم الخبرات والثقافة، وهي تعبّر عن دور المتكلم في مقام الكلام، وما يلزم به

---

(١) د. رايص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٠١.
(٢) د. عمر أوكان، اللغة والخطاب ص٥٢.
(٣) مدخل إلى الأسلوبية، ترجمة طلال وهبة، ص٩٢.
(٤) السابق نفسه، ص٤١.

نفسه من قيم وأعراف في تعامله مع الآخرين، نحو: "صباح الخير أهلا، أشكركم على المقابلة، إلى اللقاء. وقولنا مثلا: كيف حالك؟، يومًا جميلا"، يُعد من طرق إطالة هذا الاحتكاك[1].

وهذه الوظيفة من وظائف اللغة هي التي تعين على تأسيس العلاقات الاجتماعية وترسّخها، وهي التي من خلالها تتحدد الفئات الاجتماعية وتُشكل وتقوي شخصية الفرد، إذ إن تمكينه من الاتصال بالآخرين والتعامل معهم يعينه على التعبير عن ذات نفسه وعلى تطويرها[2].

ج. الوظيفة النصية :

تجعل المتكلم قادرًا على بناء النصوص، أو الربط بين أجزاء الخطاب الواحد، بما تقدمه من وسائل الربط وخصائص السياق الذي تستخدم اللغة فيه، وهي التي تجعل السامع أو القارئ يميز نصًا من مجموعة عشوائية من الجمل[3]. ولنتأمل الفقرة التالية: "يسعى الأولاد إلى السيارة. وقفت السيارة عند حافة العشب. رمى الأولاد الكأس المملوءة على السيارة. تطلع الأولاد ناحية المظلة. اشتعل الضوء الخافت في المظلة".

إذا تأملناه أدركنا أن الفقرة النموذجية أكثر من مجرد تتابع من الجمل. إن النص يستخدم أنماطا متنوعة من المصادر اللغوية للتعبير عن الأفكار وتعليق بعضها ببعض وبدون هذه المصادر فإن الأثر الناتج سيكون عبارة عن فقرة غير متماسكة[4]. د. الوظيفة المنطقية: وهي التي تربط الأفكار بعضها ببعض على أساس التعادل أو التبعية، نحو: زيد سيتأخر، وعمرو لن يستطيع أن يأتي مطلقًا[5].

ونلمس من هذا التصنيف عند "هاليداي" الاهتمام بإبراز العلاقة التي

---

(1) د. محمد العبد، العبارة والإشارة ص15.
(2) د. سعد مصلوح، في النص الأدبي (دراسة أسلوبية إحصائية)، ط2، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م ص97.
(3) د. محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ط2، ملتقى الفكر، 2001م، ص53.
(4) د. محمد العبد، العبارة والإشارة ص46.
(5) السابق نفسه، ص41.

براعيها المرسل بالسياق الذي ينتج فيه خطابه، باستثمار نظام اللغة؛ إذ ينظر إلى الناس وحاجتهم إلى تأسيس العلاقة بينهم، والتعامل من خلال اللغة التي تقوم بهذه الوظيفة، أي بالوظيفة التعاملية. ولتحديد الوظيفة الثالثة، فإنه يبدو الاهتمام بدور اللغة في القيام بتمثيل ذاتها، أي بتشكيل الخطاب لغويًا، وفقًا لقوانين اللغة ذاتها، إذ تعتمد الوظيفتان الأوليان على هذه الوظيفة بإبرازهما في النص اللغوي .. وتعد اللغة نظامًا لأداء المعنى، إذ تسهم كل وظيفة من هذه الوظائف الأربع بقسط فيه، ممّا يحولها إلى مكونات وظيفية، فيكون المعنى تصوريًا لأن اللغة تجسّد معرفة المرسل، في حين يكون المعنى تعامليًا بوصف اللغة شكلا فعليًا، ويكون المعنى نصيًا لعلاقته بالسياق الخارجي، و تعالق المكونات اللغوية للخطاب في نظام خطي، ويكون المعنى منطقيًا عندما يعتمد على معايير المحادثات[1].

وفي دراسات متطورة قدّم "هاليداي" halliday تصنيفاً موسعاً لوظائف اللغة لتمخضت محاولاته عن الوظائف الآتية :

أ. الوظيفة النفعية الوسيلية :

وهذه الوظيفة هي التي يطلق عليها "أنا أريد" فاللغة تسمح لمستعمليها منذ طفولتهم المبكرة أن يُشبعوا حاجاتهم وأن يعبروا عن رغباتهم[2].

ب. الوظيفة التنظيمية :

وهي تُعرّف باسم وظيفة "افعل كذا، ولا تفعل كذا" فمن خلال اللغة يستطيع الفرد أن يتحكم في سلوك الآخرين، لتنفيذ المطالب والنهي، وكذا اللافتات التي نقرؤها، وما تحمل من توجيهات وإرشادات.

ج. الوظيفة التفاعلية :

---

(١) استراتيجيات الخطاب، ص١٠، ١٥.
(٢) د. جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٠م، ص٢٢ وما بعدها بتصرف.

وهي وظيفة "أنا وأنت" حيث تُستغل اللغة للتفاعل مع الآخرين في العالم الاجتماعي؛ لأنّ الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع الفكاك من أسر جماعته، فنستخدم اللغة في المناسبات، والاحترام، والتأدب مع الآخرين.

د. الوظيفة الشخصية :

من خلال اللغة يستطيع الفرد أن يعبر عن رؤياه الفريدة، ومشاعره واتجاهاته نحو موضوعات كثيرة؛ ومن ثم يثبت هويته وكيانه الشخصي ويقدم أفكاره للآخرين.

هـ. الوظيفة الاستكشافية :

وهي التي تُسمّى الوظيفة "الاستفهامية" بمعنى: أنه يسأل عن الجوانب التي لا يعرفها في البيئة المحيطة به حتى يستكمل النقص عن هذه البيئة.

و. الوظيفة التخيلية :

تتمثل فيما ينسجه من أشعار في قوالب لغوية، كما يستعملها الإنسان للترويح، ولشحذ الهمة، وللتغلب على صعوبة العمل، وإضفاء روح الجماعة، كما هو الحال في الأغاني والأهازيج الشعبية.

ز. الوظيفة الإخبارية (الإعلامية) :

وهي التي يستطيع الفرد من خلالها أن ينقل معلومات جديدة ومتنوعة إلى أقرانه، بل ينقل المعلومات والخبرات إلى الأجيال المتعاقبة، وإلى أجزاء متفرقة من الكرة الأرضية، خصوصًا بعد الثورة التكنولوجية الهائلة. ويمكن أن تمتد هذه الوظيفة لتصبح وظيفة تأثيرية، إقناعية؛ لحث الجمهور على الإقبال على سلعة معينة والعدول عن نمط سلوكي غير محبب.

ح. الوظيفة الرمزية:

يرى "هاليداي" أنّ ألفاظ اللغة تمثل رموزًا تشير إلى الموجودات في العالم الخارجي؛ ومن ثم فإن اللغة تُستعمل كوظيفة رمزية[1].

ط- الوظيفة الأدائية :

ويعني بها الكلمات التي يؤدى بها عمل ما، فمجرد التلفظ بها تنجز كأن يقول قائل: (أوصي بساعتي لأخي) فمجرد التلفظ انتقلت الساعة إلى الموصَى له؛ ومن لم يكون التلفظ بالجمل لا يعني وصف حال القيام بالفعل، ولا التحدث على هذا النحو، كما لا يثبت القيام بذلك الفعل: بل إن النطق بالجملة هو إنجازها[2].

مبادئ الاتجاه الوظيفي :

١. اللغة وظائف متعددة تعدد الأغراض المستعملة لأجلها، ولكن الوظيفة الأساسية هي وظيفة التواصل.
٢. ترتبط البنية بالوظيفة ارتباطًا يجعل البنية انعكاسًا للوظيفة.
٣. موضوع الوصف اللغوي هو "القدرة التواصلية" للمتكلم/ والمخاطب، والقدرة هذه هي مجموع القواعد البنيوية/ والوظيفية التي تمكنه (المتكلم/ والمخاطب) من استعمال عبارات لغوية معينة لتأدية أغراض معينة في مواقف تواصلية معينة.
٤. يشكل النحو الكلي مجموعة من المبادئ العامة الرابطة بين أنماط من الأغراض وأنماط من التراكيب اللغوية.
٥. تتفاضل الأنحاء طبقًا لاستجابتها لمبدأ الوظيفية، أي طبقًا لقدرتها على رصد الظواهر اللغوية وتفسيرها في إطار الارتباط القائم بين البنية والوظيفة.

---

(١) كارل – ديتر بونتنج، المدخل إلى علم اللغة، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة ٢٠٠٣م، ص١٩، ٥٠.
(٢) اللغة والهوية، ص٤١.

يجب أن يُصاغ النحو بحيث تكون الخصائص التركيبية الصرفية ناتجة عن قواعد تتخذ دخلاً لها البنية الممثل فيها الخصائص الدلالية والتداولية[1].

خصائص الاتجاه الوظيفي :

١. قدرة المتكلم والسامع عند الوظيفيين هي معرفة المتكلم بالقواعد التي تمكنه من تحقيق الأغراض التواصلية بواسطة اللغة ومعرفة السامع بغرض المتكلم من رسالته[2].
٢. يحتل المستوى التداولي والدلالي في الاتجاه الوظيفي داخل النحو مستوى مركزياً ويتولى تحديد خصائص التركيب.
٣. يدخل في التيار الوظيفي كل النظريات اللسانية التي تجعل من مبادئها المنهجية العامة تفسير الخصائص الصورية للغات الطبيعية، وذلك بربْط هذه الخصائص بوظيفة اللسان الطبيعي التواصلية.
٤. يعد الاتجاه الوظيفي اللغة وسيلة للتواصل أي نسقاً رمزياً يؤدي مجموعة من الوظائف، أهمها وظيفة التواصل.
٥. يعتمد الاتجاه الوظيفي فرضية مفادُها أن بنيات اللغات الطبيعية لا تُرْصَد خصائصها إلا إذا رُبطت هذه البنية بوظيفة التواصل[3].

وعلى وجه الإجمال يمكن القول:[4]إن ما يميز الاتجاه الوظيفي، عدم الفصل بين البنى اللغوية ووظائفها, وعدم إمكان عزل اللغة عن نسيجها الاجتماعي, وإعطاء الوظيفة أهمية أكبر من البنية نفسها, ورفض النسبية والقول بالعموميات التي تنطبق على كل اللغات .

أهمية الاتجاه الوظيفي :

يُستعان بالاتجاه الوظيفي في حل إشكاليات تتصل بالتعليم والتعلم، ومنها:

---

(١) الطاهر شارف، المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور "سورة البقرة نموذجا"، ص١٤.
(٢) د. محمد محمد يونس، بحث أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، ص١٣٦، ١٣٧.
(٣) السابق نفسه، ص١٤٦.
(٤) بريجيته بارتشت، مناهج البحث اللغوي من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، ترجمة د. سعيد حسن بحيري، ط١ مؤسسة المختار، ٢٠٠٤م، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

١) تعليم النحو :

وهو الذي يقوم على أساس الوصف للغة المستعملة، وبهذا المعنى يتغير طبقًا للاستعمال، ويعرفه "هاليداي" بأنه: "قواعد تُستعمل في تعليم الأطفال ليتكلموا ويكتبوا لغة صحيحة ويسمى أيضا قواعد تعليمية"[(١)].

وهو بهذه الصفة يهدف من خلال التعليم إلى تحقيق القدرات اللغوية للمتعلمين؛ حتى يتمكنوا من ممارستها في وظائفها الطبيعية العملية ممارسة صحيحة في مختلف شؤون الحياة، ويرى "لوسيان تنيير" وهو من رواد المدرسة الوظيفية أن مفهوم الوظيفة يتجلى في "علم التراكيب" وهو يميز بين التركيبة السكونية "الأقسام" وبين التركيبة الحركية "الوظائف"، فالتركيبة السكونية ميدان للتحليل وفيها يرتكز على الترتيب الخطي المقطوعي السطحي، وأما التركيبة الحركية فتنظر في التركيب البنيوي حيث تحدد الوظائف ذاتها"[(٢)].

فالنحو الوظيفي إذن لا ينظر إليه على أنه علم نظري، بل هو منهج تدريس عملي أيضا، وبوصفه منهجا للتدريس لا ينبغي أن يفهم على أنه تكديس الأشكال والقواعد منعزلة قلت أو كثرت، بل إرشاد للاستعمال الصحيح وفهم لغتنا، وفي هذا يقول "جرهارد هلبش": "لا يُنظر إلى المعارف النحوية على أنها مجرد مادة للحفظ بل هي مادة يواجه بها المرء في الحوار ومن أجل الحوار التلقائي فقط مع اللغة واستعمالها الخلاق، ويطمح النحو الوظيفي إلى التعيين في معرفة الأشكال واستعمالها طبقًا لإنجازها"[(٣)].

٢) التقارب والتباعد بين المتكلمين :

لا شك في أن اللسان يخدم التقارب بين الأفراد الذين يعيشون معًا أو يتباعدون لأسباب شتى؛ ومن ثم فهذه هي مشكلة التقارب والتباعد اللغوي. إن الأفراد الذين يريدون التواصل، أينما كانوا يتواصلون بالأفضلية بواسطة اللسان. وفي الحقيقة إذا كان الناس الذين على اتصال فيما بينهم يتكلمون اللسان

---

(١) كاترين فوك: مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ترجمة المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٥٢.
(٢) السابق نفسه، ص ٥٢.
(٣) جرهارد هلبش: تاريخ علم اللغة الحديث، ترجمة سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، د.ت، ص ٣٢٠.

ذاته أو لسانًا مختلفًا، لذلك لن يغيّر في عمق المشكلة. ذلك أنه بعد مرور فترة زمنية محددة سيقوم بينهم نوع من الإتفاق الضمني، فإما أن يتعلم الناطقون (أ) اللسان (ب) وإما يحدث العكس، ويقوم هناك خليط من لسانين وهو ما ندعوه بالمزج اللغوي التي تتيح أمام الأفراد فرصة التفاهم.

وعندما تكون هناك حرية للاختيار في لسان معين بين طريقتين للتعبير، فنحن نختار تلك التي تكون مفهومة لنا أكثر من قبل الأخر. ومن المتعارف عليه، في لسان معين، أن أيّة حقيقة يُعبر عنها بواسطة كلمتين مختلفتين، تمتلك أحداهما فقط استعمالاً شاعريًا؛ بينما تُعد الأخرى بمثابة لفظة عادية. ويحدث العكس في لسان أخر مجاور. وفي نطاق العلاقات التي تتم ما بين مستعملي هذين اللسانين، نجهد لاستعمال الشكل النادر الشاعري، إذا كنا نعلم بأن الندرة على فهمنا ستصبح أكبر. إن مشاكل التقارب والتباعد اللغوي التي نصادفها هنا معقدة، وخاصة في الوقت الحاضر. ففيما مضى، كان الناس يلتقون ويتخاطبون فيما بينهم وعندها يحصل التكيّف. أما اليوم، فقد اختلفت المواقف: إن الناس لا يلتقون بالضرورة، جسديًا ولكنهم يتواصلون بواسطة وسائل الإعلام. ويمكن التقارب أن يتم شفويًا بواسطة وسائل الإعلام، وكتابيًا من خلال المستندات المكتوبة[1].

٣) اللغة أداة تواصل:

الأنحاء الوظيفية تنظر إلى اللغات الطبيعية على أنها بالإضافة إلى كونها بنية أو نسقًا شكليًا (صوتيًا، وصرفيًا، وتركيبيًا، ومعجميًا) تعتبر أداة لوظيفة أساسية هي التواصل؛ فاللسانيات الوظيفية – حسب "كونو"- هي مقارنة لتحليل البنية اللغوية تعطي الأهمية للوظيفة التواصلية لعناصر هذه البنية بالإضافة إلى علاقتها البنيوية[2].

---

(١) أندريه مارتينيه وهنرييت فالتير، حوار اللغات، ترجمة نادر سراج، ص١٣٣، ١٣٤.
(٢) أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، منشورات عكاظ ١٩٨٩م ص١٠٤.

٤) تنوع مظاهر التواصل:

كما يمكن أن تؤدي اللغة وظائف أخرى قد تكون أشكالا مختلفة لوظيفة التواصل منها الوظيفة الجمالية التي هي تحويل لوظيفة التواصل عن غرضها[1]، ومنها الوظائف الست المشهورة عند "جاكوبسون" والتي اقترحتها في ١٩٦٣م.

---

(١) عبد القادر المهيري، اللسانيات الوظيفية، ص٤٢.

الفصل الثالـــث

الوظيفة التواصلية وأهم عناصرها

مفهوم التواصل :

لغة : تذكر المعجمات أن مصطلح "communication" مأخوذ من الأصل اللاتيني "communicatio" ويعني اشتراك في شيء "تبادل قول، أو إبلاغ"[1]، ثم توسع في المصطلح فأصبح يدل على نقل الأخبار والمعلومات والمشاعر والسلوكيات والتصرفات... إلخ. والتواصل هو محاورة لأن صيغة "تفاعل" الصرفية تقتضي المشاركة بين طرفين فأكثر[2].

اصطلاحاً : التواصلُ هو تبادل أدلة بين ذات مرسِلة وذات مستقبِلة، حيث تنطلق الرسالة من الذات الأولى نحو الذات الأخرى، وتقتضي العملية جواباً ضمنيا أو صريحاً عما نتحدث عنه، الذي هو الأشياء والكائنات، أو بعبارة أشمل "موضوعات العالم" ويتطلب نجاح هذه العملية اشتراك المرسِل والمرسَل إليه في السنن حتى يتم التواصل والتفاهم على الوجه الأكمل كما أراد له المجتمع اللغوي، كما تقتضي العملية قناة تنقل الرسالة من الباث إلى المتلقي[3].

وقد بيَّن ذلك "سوونسكي" بقوله: "الاتصال نقل المعلومات بين الأفراد نقلاً مقيداً بقناة محددة إبرازاً لمكونات الاتصال الرئيسة". والوظيفة التي يبرزها هذا التعريف هي الوظيفة الغالبة أو المهيمنة في كل حدث تواصلي. بيد أننا نلاحظ أن وظيفة التواصل، ليست دائما نقل المعلومة أو صناعة الخبر ونحوهما فربما اقتصرت وظيفة التواصل على عمل جو من المؤالفة الاجتماعية التي تُعد مؤثراً عاطفياً، يبدو معادلاً للتسليم الحار أو الاحتضان[4].

---

(١) باتريك شارودو، ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ط١، المركز الوطني تونس، ٢٠٠٨، ص١٠٩.
(٢) د. عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص٣٦.
(٣) السابق نفسه، ص٣٦.
(٤) د. محمد العبد العبارة والإشارة ص٩، ١٠.

كيفية إنشاء التواصل :

إن اللغة هي إحدى أهم وسائل التواصل الأساسية على الرغم من أن هذا التواصل قد يتم بوسائل أخرى. ولكي يتم التواصل فإن المتلقي (المستمع أو القارئ) ينبغي أن يفهم ما يقوله المتكلم أو ما يكتبه الكاتب. فما يريد المتكلم أو الكاتب إيصاله إلى الآخرين ونقله عن طريق وضعه في كلمات. ويقوم المتلقي بفك رموز الرسالة كاشفًا بذلك عن هدف المرسل ومحللاً كلماته إلى أفكار.

إن الميزة الرئيسة للكلام هي قدرة كل إشارة لغوية على أن تفسّر بإشارة لغوية أخرى تكون أكثر وضوحًا منها. وهذا في الحقيقة العمل الأساسي الذي يقوم به المتلقي خلال عملية التواصل. فهو يقوم بإزالة الإبهام من الرسالة بغية الوصول إلى تحديد الهدف الرئيسي من بنائها؛ ومن ثمّ فإن كل تواصل يعتمد على عمليتين هما[1]:

١. عملية بناء الرسالة وهي تعتمد على انتقاء الكلمات من المخزون اللغوي للمتكلم لتتناسب مع الغرض الذي يسعى إليه، وهذه العملية تتم على المحور الاستبدالي.
٢. عملية وضع هذه الكلمات جنبًا إلى جنب وفق قواعد النظم التي تخضع لها اللغة ليؤلف منها جملا يرسلها إلى المتلقي. ويتم ذلك على المحور النظمي.

فالمفردة اللغوية لا تستطيع أن تقوم بمهمة التواصل والتبادل إلا إذا وُجدت في إطار مجموعة من المفردات تحدد العلاقات التي تقوم بينها جميعًا الوظيفة التواصلية. فكما أن المفردة اللغوية تتضح وظيفتها ضمن نظام المفردات الذي تنتمي إليه، كذلك فإن مجموع المفردات اللغوية التي تحيط بالمفردة في جملة معينة تحدد وظيفة هذه المفردة وصلاحيتها للإبلاغ اللغوي. ولنأخذ مثالاً على ذلك الجملة التالية: "أكل الولد التفاحة". إن كل مفردة من المفردات التي تتكون منها هذه الجملة تستمد معناها ووظيفتها التواصلية من المفردات الأخرى التي تتكون منها الجملة. فكل مفردة على حدة لا تعطي المعنى الواضح والكامل الذي نحصل عليه عند وضعها في جملة معينة. ولذلك نجد "جاكوبسون" يصرّ على

---

(١) د. فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، ص١٨، ١٩.

وجود معانٍ وليس معنىً واحداً. فالكلمة بذاتها لها معانٍ كثيرة، والسياق الذي توجد فيه هو الذي يحدد المعنى المقصود في الجملة[1].

أشكال التواصل اللفظي :

أ ـ المشاركون :

يمكن التمييز ـ من ناحيةـ بين التواصل القائم على الحوار الداخلي، والتواصل القائم على الحوار الخارجي (وجرت عادة الباحثين على تعريبهما إلى التواصل المونولوجي والتواصل الديالوجي) كما يمكن ـمن ناحية أخرىـ التمييز بين التواصل الفردي والتواصل الجماهيري في التواصل المونولوجي، يوجد مرسل واحد فقط هو الذي يعطي المعلومة. وينقسم هذا التواصل بدوره إلى :

١. تواصل الشخص بذاته.
٢. تواصل الشخص بالآخرين.

يبدو الأول إذن في تواصل المرسل بذاته، كما هي الحال في حديث الذات (التفكير بصوت مسموع). أما الثاني، فهو حديث المرسل إلى أشخاص آخرين، دون أن يجيبه هؤلاء، كما في الحال في الخطبة والمحاضرة... إلخ .

أما التواصل الديالوجي، فهو يعرف – إلى جانب المرسلـ مشاركاً في الاتصال واحداً على الأقل؛ هو المستقبل الذي يستطيع – في اتصالية ممتدة (كالحوار، والاستجواب ونحوهما)ـ أن يقوم هو نفسه بدور المرسل. وقد يتعدد المشاركون في التواصل، كأن يكون لأشخاص عدةٍ إسهامهم في تواصل ديالوجي، على نحو ما نجد – مثلاًـ في المناقشات، والمحادثات الإذاعية وغيرها.

وفي الاتصال النصي المكتوب، يبقى الاتصال الديالوجي – غالباً محصوراً في مشاركين اثنين (كما هي الحال في تبادل الرسائل). ويمكننا أن ننظر إلى أنواع

(١)د. فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، ص٦٩.

الاتصال السابقة جميعها، على أنها اتصالات فردية، من حيث إن المرسل في تلك الاتصالات، يتجه إلى أشخاص معروفين مفردين: قلوا أو كثروا .

أما التواصل الجماهيري، فتمثله وسائل الإعلام التي تتجه إلى مجال واسع جداً من الأشخاص (إلى الجمهور)، والتي لا يكون المرسل فيها عادة معروفاً. ويقع هذا التواصل – في معظم الحالات– عبر وسائل التواصل الجماهيري (كالصحف، والمنشورات، والإعلانات والأدب، والإذاعة، والاسطوانات ،.. إلخ)[1].

ب. الرسالة :

يمكننا التمييز بين شكلين رئيسين للاتصال اللفظي: أحدهما الاتصال اللفظي المنطوق، والآخر الاتصال اللفظي المكتوب. ويُبنى هذا التقسيم على أساس انقسام اللغة ذاتها إلى لغة منطوقة ولغة مكتوبة، فمن ناحية الرموز الصوتية تكون اللغة منطوقة، ومن ناحية القناة البصرية تكون اللغة مكتوبة . وما دمنا نتكلم أكثر مما نكتب، فإن الاتصال اللفظي المنطوق .

في الحياة اليومية- أهم وأهم من الاتصال اللفظي المكتوب، وهو -بذلك- أهم أنواع الاتصال وأهمها على الإطلاق. يقول "سلزمان": اللغة المنطوقة – الكلام- هي أهم الوسائل التي يتصل بها البشر أحدهم بالآخر، وأهمها. ولكن هذه اللغة ليست الوسيلة الوحيدة. إن أنظمة الكتابة المتعددة المختلفة المستعملة في العالم، ذات أهمية عظيمة في الاتصال. وهي -لاعتبارات مختلفة- تمتاز على اللغة المنطوقة ببقائها النسبي خاصة.

ويمكننا أن نضيف إلى الميزة السابقة، ميزات أخرى تتمتع بها اللغة المكتوبة؛ كالإعداد، والتصويب، وإعادة النظر[2]

قنوات التواصل اللفظي :

---

(١) د. محمد العبد العبارة والإشارة، ص١٠، ١١.
(٢) السابق نفسه، ص٢٥، ٢٦.

يحتاج الاتصال اللفظي بين المتكلمين إلى قنوات لنقل الرسالة من المرسل إلى المستقبل، وتتنوع هذه القنوات إلى لمسية وبصرية وسمعية، وسنوضحها فيما يلي:

١. القناة اللمسية: التي تعتمد على اللمس جهازًا للاستقبال. ويعد نظام الكتابة عند المكفوفين – المعروف بطريقة "برايل"- مثالا على هذه القناة؛ لأنه يستخدم حروفًا مكونة من نقط بارزة تُستقبل عن طريق حاسة اللمس[1].

٢. القناة البصرية: تعد الأنظمة الحقيقية للإشارات التي يستخدمها الصم أنظمة رمزية، في إطار أن الرمز الشامل يمثل مفهومًا والعلاقات بين الإشارات الواردة في السياقات يشار إليها بما أتت عليه من ترتيب أو بواسطة بعض العناصر المتكاملة. فالرموز هي في الغالب أيقونية، مفهومية بصورة مباشرة؛ كمحاكاة الأشياء أو الأنشطة، أو غير مباشرة بإشارتها إلى رموز أخرى تكونت أو اشتقت منها. واللغة الرمزية التي يستخدمها الصم تتمتع ببعض الملامح العالمية. وعلى ما يبدو فهي موغلة في القدم. كما أنها تبدو مستقلة عن مختلف اللغات الطبيعية، وعلى أساس هذه القاعدة يصبح من السهل بناء عملية اتصال بين الصم من مختلف الدول- ولهذا ففي عالم الصم نلحظ تنوعًا لغويًا-على الأقل جزئيًا-لا مقابل له في عالم اللغات السمعية[2]. ويمكن أن ندرج الاتصال اللفظي المكتوب في القناة البصرية أيضًا.

٣. القناة السمعية: وهي التي تقوم على كلام الناس بعضهم إلى بعض؛ أي أنها تعتمد على التواصل اللفظي، وقوامه الأصوات اللغوية. ومن أجل ذلك، عُدّ السمع جهاز الاستقبال في هذه القناة[3].

من ملامح الوظيفة التواصلية عند العرب:

أولاً: اللنداء:

(١) د. محمد العبد، العبارة والإشارة، ص١٢.
(٢) برتيل مالمبرج، مدخل إلى السيميائيات، ترجمة السيد عبد الظاهر، مراجعة وتقديم صبري التهامي، ط١، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م، ص٢٦٧.
(٣) د. محمد العبد، العبارة والإشارة، ص١٢، ١٣.

١) سيبويه (ت ١٨٠هـ) :

كان الحذاق من علماء العربية – وعلى رأسهم سيبويه- يتناولون قواعدها تناولاً وظيفياً فهم ينظرون في تحليل بناها وتفسيرها إلى ملابسات الخطاب، وحال المخاطِب والمخاطَب، وظروف القول ودواعيه، فلم يعزلوا قواعد الشكل الإعرابي للبنى اللغوية عن وظائفها الاتصالية ومعانيها المقصودة، وأول هؤلاء "سيبويه"، يقول "د. عبده الراجحي": "بل إن "سيبويه" – وكتابه هو المسئول الأول عن المنهج- كان يعالج العامل في إطار (قواعد الكلام)، أو ما نسميه الآن (قواعد الخطاب) التي تنظر إلى السياق العام للحدث الكلامي، من نية المتكلم وقصده، وهيئة المخاطب ومعرفته وظروفه، ثم هيئة الحال التي يجري فيها الحدث"[1]، وسنبين بعض هذه الملامح الوظيفية عند "سيبويه" فيما يلي :

أ- المقام وسياق الحال :

من أهم عوامل تحديد المعنى الوظيفي الإبلاغي للكلام؛ فلا يُفهم الكلام ولا جدوى من تحليله إلا في إطاره، وإلى هذ. . "سيبويه" فقال في حديثه عن مجيء الحال بعد الضمائر المسند إليها في معنم الفخر أو الوعيد أو التصغير للنفس: "وقد تقول: هو عبد الله، وأنا عبد الله، فاخراً أو موعداً، أي اعرفني بما كنت تعرف وبما كان بلغك عني، ثم يفسر الحال التي كان يعلمه عليها أو تبلغه فيقول: أنا عبد الله كريماً جواداً: وهو عبد الله شجاعاً بطلاً. وتقول: إني عبد الله مصغراً نفسه لربِّه، ثم تفسر حال العبيد فتقول: آكلاً كما تأكل العبيد....." [2]، وفي موضع آخر يبين لنا "سيبويه" أهمية خلفيات الكلام من مقام المخاطبين وحالهم في توجيه معنى العبارات والتراكيب، ويحذر من التهاون بذلك، فيقول: "وإنما ذكر "الخليل" رحمه الله هذا لتعرف ما يحال منه وما يحسن، فإن النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب. وذلك أن رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقاً، وهو زيد منطلقاً كان محالاً، لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن "هو، وأنا" علامتان

(١) د. عبده الراجحي، النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية، ضمن: تمام حسان رائداً لغوياً، إعداد وإشراف عبد الرحمن حسن العارف، ط١، عالم الكتب، القاهرة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، ص٣٥٢.

(٢) سيبويه، الكتاب، تحقيق أ. عبد السلام هارون، ٢/ ٨٠.

للمضمر، وإنما يضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني. إلا أن رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك، كان حسناً"[1].

يلتقي هنا نظر "سيبويه" للسياق والمقام مع أحدث النظريات اللغوية، ففي تحليله للخطاب يركز على فهم المخاطب والسياق الخارجي للكلام، وهما عنده في كثير من الأحيان أهم من التراكيب والألفاظ ذاتها فقد يُستغنى عن هذه البنيات ويُستعاض عنها بالسياق والموقف الاستعمالي للكلام، "وما يلامس هنا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضع الكلام. وقد هداه هذا الاتساع إلى استكناه البنية الداخلية للتركيب النحوي ورسم خطوط هادية في تعلم العربية تعلماً يضع كل تركيب موضعه، ويعرف لكل مقال مقامه"[2].

٨- الحذف وعلاقته بالسياق :

يرى "سيبويه" أنه لا يجوز الحذف إلا إذا دلت على المحذوف قرينة السياق[3]، وإلا كان الكلام هراء، لا تحصل به فائدة، ومن النماذج التي أوردها في باب ما يضمر فيه الفعل: "وذلك إذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهة الحاج قاصداً في هيئة الحاج، فقلت مكة ورب الكعبة، حيث زكنت[4] أنه يريد مكة. كأنك قلت: يريد مكة والله... أو رأيت رجلاً يسدد سهماً قبل القرطاس فقلت: القرطاسَ والله أي يصيب القرطاس، وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس فقلت: القرطاسَ والله، أي أصاب القرطاس، ولو رأيت ناساً ينظرون إلى الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا فقلت: الهلالَ ورب الكعبة، أي أبصروا الهلال"[5]. فـ"سيبويه" وهو يعلق على هذه النماذج العربية الفصيحة يرى أنها تعبر عن وظائف كلامية معروفة، لا يُغفل في تحليلها عن السياق الذي قيلت فيه والجو الاجتماعي أو النفسي الذي رافق ولادتها[6].

---

(١) سيبويه، الكتاب، تحقيق أ. عبد السلام هارون، ٢/ ٨١.
(٢) نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، بيروت، ١٩٨٠م، ص٨٦.
(٣) سيبويه، الكتاب، تحقيق أ. عبد السلام هارون، ١/ ١٧٣.
(٤) زكنت بمعنى أيقنت.
(٥) سيبويه، الكتاب، تحقيق أ. عبد السلام هارون، ١/ ٢٥٧.
(٦) صاحب أبو جناح، دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، ط١، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، ص٢١٥.

هـ الرتبة ودلالاتها الوظيفية

كانت العرب تبني كلامها وترتبه وفق ما تمليه دواعيه وما يؤديه من وظائف، فلا تقدم ولا تؤخر إلا عن قصد تواصلي، وكل تقديم أو تأخير يؤدي إلى تغيير المعنى، ويختلف ترتيب التراكيب باختلاف وظائفها؛ فنجدهم يقدمون للعناية والإبراز، كما يقدمون للتخصيص والحصر...، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: "كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم"[1]. وقال عبد القاهر الجرجاني : إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعث ويُفسد ويكثر به الأذى، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه، ولا يعنيهم منه شيء. فإذا قتل وأراد مريد الإخبار بذلك، فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول: (قتل الخارجي زيد). ولا يقول: (قتل زيد الخارجي) لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره، ويهمهم ويتصل بمسرتهم. ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد......" [2]. نستخلص مما سبق أن العرب كانت تبني كلامها بناء تمليه مقاصد الكلام، فأشكال الرتب عنده تتوقف على دلالاتها الوظيفية.

٢) الجاحظ (ت٢٥٥هـ) :

❖ وظيفة الألفاظ في فهم المعنى :

يُبين "الجاحظ" أهمية الألفاظ في بيان المعنى فيذكر أن البيان هو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي. وينبه إلى أنه اسم جامع لكل شئ كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل اللفظي وحده. فإلى جانب الدليل اللفظي، يمكن أن يتسع البيان لدلائل أخرى، تؤدي وظيفة التبليغ وتوضيح المعاني؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل

(١) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ٣٤/١.
(٢) دلائل الإعجاز، ص١٤٨، ١٤٩.

والسامع – كما يقول "الجاحظ" – إنما هو الفهم والإفهام؛ ولوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[1].

❖ عناصر التواصل:

كما بيّن "الجاحظ" عناصر التواصل المعتمدة على العلاقات اللسانية التي تجري في عالم الشهادة، وتجمع بين المتكلم والمخاطب، وتنقل البيان إلى بلاغة، والكلام إلى رسالة مع ما تتضمنه الرسالة من إلقاء وتلقي ورموز ومعاقد وحال ومقال ومقام كما تشرحه اليوم اللسانيات الحديثة.

والتأمل في حقيقة الكلام وفي كيفية إنشائه وتطويره وعلاقته بالإنسان منذ بدء الخليقة إلى أن صار بلاغة في سياسة الكون والكلام[2].

❖ وسائل التواصل :

وقد حصر "الجاحظ" وسائل التواصل في خمسة لا تزيد ولا تنقص، هي : اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم النصبة[3]. وسر هذا التصنيف لا يزال لغزًا، لكن يبدو أنه قائم على النظرة الارتقائية التي تتلخص في عبارة «العالم الصغير سليل العالم الكبير» الشهيرة عنده حيث ينحدر اللفظ من الإشارة، والإشارة من العقد، والعقد من الخط والخط من النصبة[4].

❖ الصوت آلة النطق :

يبين "الجاحظ" أهمية الصوت في التواصل بين المتكلمين، فيقول: «والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يُوجَد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت»[5]، كما نجده يبين دور اللسان في اللغة المنطوقة، والفرق بينه وبين

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 76.
(2) د. محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، ص 17.
(3) الجاحظ، البيان والتبيين، 1/76.
(4) د. محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، ص 18.
(5) الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 76.

القلم فيقول: "وقالوا اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن[1]، مثله للقائم الراهن"[2].

❖ اللغة المنطوقة والمكتوبة :

يذكر "الجاحظ" أن الخط هو: "التعبير عن المعاني بواسطة الحروف المكتوبة". فالخط لا يختلف عن التعبير باللفظ إلا في كون اللفظ يعتمد على الصوت، والخط يعتمد على الرؤية[3].

وقد بيّن "الجاحظ" الفرق بينهما مفاضلاً الكتابة على النطق بقوله: "والكتاب يُقرأ بكل مكان، ويُدرس بكل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره"[4]. وأهمية الخط تظهر في كونه يُمكّن من نقل المعاني من جيل إلى جيل، أي: إلى من هو بعيد بعداً زمنياً.

قد استدل "الجاحظ" على أهمية هذه الدلالة بالعديد من الشواهد القرآنية، التي بيّن من خلالها فضل الخط وأهميته. وحسبه من الأهمية حفظه كل ما أثرَ عن العرب القدماء من أقوال، والأهم من هذا أن الله جعل الخط سبباً من أسباب حفظ كتابه العزيز، وسنّة نبيه ﷺ. قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر/ ٩)[5]. "فاللغة المكتوبة تتميز عن اللغة المنطوقة بعدد من الخصائص.... هي المحافظة على الاستعمالات القديمة، والتخلف عن مجاراة اللغة المنطوقة، هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى؛ فإنه لمّا كانت الكتابة لا تملك ما يملكه المتكلمون، من مناسبة وحركات ونغمة في الصوت توضح الكلام الملفوظ فإنه لابد لها من أن تُستخدم في دقة قواعد للنحو ومفردات اللغة... فاللغة المكتوبة توضح الصيغ النحوية كما توضح قيم المفردات..."[6].

---

(١) الحائن: الهالك.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٨٠.
(٣) د. محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب، ط١، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م، ص٨١.
(٤) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ط الحلبي، مصر، د.ت، ١/ ٧٠.
(٥) إبراهيم عبد الله الغامدي، معجم الدلالة اللغوية في القرن الثالث الهجري على مستوى الكلمة المفردة، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م، ص٤٤.
(٦) لانسون وماييه، منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة د. محمد مندور، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٢١، ١٣٢.

٣) "ابن جني" (ت ٣٩٢هـ) :

وقد أجمل " ابن جني " وظيفة اللغة وعناصرها ومفهومها في تعريفه للغة إذ يقول: «أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1]. وبتأمّل تعريف "ابن جني" نلاحظ اعتماده على عناصر محددة في تعيين اللغة؛ تتمثل فيما يلي:

أ- اللغة أصوات:

يعني بها الرموز المنطوقة دون المكتوبة، وهذا يُفسر لنا أن الأوائل عرفوا اللغة سماعًا قبل رؤيتها رموزًا مصورة، وإدراك "ابن جني" لصوتية اللغة يتفق مع ما جاء به المحدثون من تحديدهم للغة على أنها رموز صوتية أو علامات رمزية ذات دلالة معينة[2].

أ- اللغة وسيلة تعبير:

يُعبر بها كل جماعة من الناس عن أغراضهم واحتياجاتهم، وهذه وظيفة اللغة كما وضّحها فريق من المحدثين؛ حيث ذكر "ادوارد سابير" (ت ١٩٣٩م) أن اللغة وسيلة إنسانية غير غريزية لتوصيل العواطف والأفكار والرغبات بنظام من الرموز الاصطلاحية[3]. وهناك فريق آخر يرى أن وظيفة اللغة هي التواصل بين الفرد وأبناء بيئته؛ لكون الإنسان اجتماعيًا بطبعه، واللغات لا تنشأ إلا في أحضان المجتمع[4]. وهناك آخرون يجمعون كل ما سبق في وظيفة اللغة بالإضافة إلى غيرها، كدورها في الصلاة والدعاء والألغاز والتسلية... إلى غير ذلك[5].

وهذا الملحظ يبين لنا وعي القدماء بوظيفة اللغة وارتباطها بالمجتمعات على الرغم من اختلاف أصواتها من مجتمع إلى آخر.

---

(١) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ٣٣/١.
(٢) يُنظر: اللغة وعلم اللغة قديما وحديثا، ص٢٢.
(٣) د. حلمي خليل، مقدمة لدراسة علم اللغة، ط دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م ص٢٣.
(٤) فندريس، اللغة، ترجمة الدواخلي والقصاص، ط البيان العربي، القاهرة ١٩٥٠م، ص٣٢.
(٥) د. عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ط بيروت، ١٩٧٢م ص٧٦.

هـ أغراض:

و هذا اللفظ عند "ابن جني" جامع لكل وظائف اللغة التي ذكرها المحدثون؛ فكان موفقًا في اختياره؛ حيث جاء جامعًا مانعًا لتعريف اللغة ووظيفتها؛ ومن ثَمَّ كان تعريف "ابن جني" مستنبطًا من داخل اللغة وليس من خارجها[1].

هـ أثر المشاهدة عند ابن جني:

إن مشاهدة إنسان عادي الأحوال ذاتها، تمكنه من استيضاح القصد، على نحو لا يستطيع اللغوي المتخصص تحصيله؛ وذلك لما في الواقعة الاتصالية من مقابلة العين، ومشاهدة الوجوه، ورؤية الحركات والإشارات الدالة المقترنة بشدة الإصغاء، والكلام (مما يقارن معه بين موقف قراءة الشعر وموقف حضور الشعر ينشده صاحبه)، وكيفيات التبليغ وتحديد المقاصد والأحداث الإنجازية المختلفة وقت الكلام[2]. وفي ذلك يقول "ابن جني": "أو لا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر، فأراد أن يُخاطب به صاحبه، ويُنعم تصويره له في نفسه، استعطفه ليقبل عليه فيقول له: يا فلان أين أنتَ، أرني وجهك، أقبل عليَّ أحدثك، أما أنتَ حاضر بناحيته، فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه، اندفع يحدثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك. فلو كان استماع الأذن مغنيًا عن مقابلة العين، مجزئًا عنه، لما تكلف القائل، ولا كلف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه، وعلى ذلك قال:

من العداوة أو ود إذا كانا		العين تبدي الذي في نفس صاحبها

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلا على ما في النفوس. وعلى ذلك قالوا: "رب إشارة أبلغ من عبارة""[3].

هـ تبعية البنية للوظيفة

---

(1) د. محمد حلمي، من أسس علم اللغة، ط دار الثقافة العربية، ١٩٩٦م ص٢٣- ٧١ بتصرف.
(2) د. محمد العبد، العبارة والإشارة ص١٥١.
(3) الخصائص، ١/٢٤٦، ٢٤٧.

البنية بألفاظها وتراكيبها تأتي لخدمة وظيفة التواصل وأداء المعاني، وهذا ما عناه "ابن جني" بقوله: "فكأن العرب إنما تحلي ألفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها؛ عناية بالمعاني التي وراءها، وتوصلاً بها إلى إدراك مطالبها"[1]؛ فالعرب تأتي بكلامها على أساس من هدف تأليفه. ونأتي هنا بنموذج عرضه "ابن جني" يتعلق بتغير بنية الجملة وذلك بتغير رتبة المفعول به والتأكيد على وظيفته وأهميته – رغم أنهم يعتبرونه فضلة- والدلالات الوظيفية والنفسية التي يتوخاها العرب من كل هذا، فيقول: "إن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة، وبعد الفاعل، كضرب زيد عمراً، فإذا عناهم ذكر المفعول قدموه على الفاعل فقالوا: ضرب عمراً زيد. فإن ازدادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصبه فقالوا: عمراً ضرب زيد. فإن تظاهرت العناية به عقدوه على أنه رب الجملة. وتجاوزوا به حد كونه فضلة فقالوا: عمرو ضربه زيد. فجاءوا به مجيئاً ينافي كونه فضلة، ثم زادوه على هذه الرتبة فقالوا: عمرو ضرب زيد، فحذفوا ضميره ونووه ولم ينصبوه على ظاهر أمره؛ رغبة به عن صورة الفضلة، وتحامياً لنصبه الدال على كون غيره صاحب الجملة. ثم إنهم لم يرضوا له بهذه المنزلة حتى صاغوا الفعل له وبنوه على أنه مخصوص به، وألغوا ذكر الفاعل مظهراً أو مضمراً فقالوا" ضُرِب عمرو، فاطرح ذكر الفاعل ألبتة. نعم، وأسندوا بعض الأفعال إلى المفعول دون الفاعل ألبتة، وهو قولهم: أولعت بالشيء. ولا يقولون: أولعني به كذا. وقالوا: ثلج فؤاد الرجل، ولم يقولوا ثلجه كذا، وامتقع لونه، ولم يقولوا: امتقعه كذا، ولهذا نظائر. فرفض الفاعل هنا ألبتة، واعتماد المفعول به

ألبتة دليل على ما قلناه فاعرفه..." [2]. يُستخلص من هذا النص أن العرب كانت تخضع بنية كلامها للوظيفة المرادة منه.

٤) عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)

▲ علاقة اللفظ بالمعنى:

---

[1] الخصائص، ١/ ٢٢٠.

[2] ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق: د. علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٤م، ١/ ٦٥.

يُعرّف "عبد القاهر" مفهوم البيان موضحاً أنه يعني امتلاك ناصية اللغة من الإحاطة بمفرداتها، وإدراك معانيها، ونسج ذلك في سياق واحد مع وضوح جرس الأصوات وصحة النطق وبلاغة التركيب؛ فيصير بذلك متصفا بالفصاحة والبلاغة فيقول: "إنما هو خبرٌ واستخبارٌ، وأمرٌ ونهيٌ، ولكل من ذلك لفظ قد وُضع له، وجُعل دليلاً عليه، فكل من عرف أوضاع لغة من اللغات، عربية كانت أو فارسية، وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها فهو بيّنٌ في تلك اللغة، كامل الأداة، بالغٌ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، منتهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها، يسمع الفصاحة والبلاغة في تلك اللغة"[1]. كما يُبين "الجرجاني" الشروط الواجب توافرها في المتكلم لكي يتمكن من توصيل رسالته "أن يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت جاري اللسان، لا تعترضه لكنة، ولا تقف به حبسة"[2].

وظيفة اللغة التواصل

يشير "الجرجاني" في أكثر من موضع في كتابه "الدلائل" إلى أنّ وظيفة اللغة الأساسية هي نقل ما يقصده المتكلم إلى السامع، وبهذا يتم التواصل بين الطرفين، قال: "وكان مما يعلم ببدائه المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا، ليعرف السامع غرض المتكلم و مقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو"[3]" ويقول في موضع آخر: "وجملة الأمر أن الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض"[4].

هـ تبعية البنية للوظيفة:

هناك عوامل متعددة يخضع لها الكلام، منها المتكلم والمستمع والمقام وظروف الاتصال، ولكن تبقى بنيته دائما رهينة غايته[5]. من أجل ذلك دعا

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٦.
(2) السابق نفسه ص٧.
(3) دلائل الإعجاز، ص ١٨٨.
(4) السابق نفسه ص٤٨٧.
(5) عبد القادر المهيري، مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد١١، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٧٤م، ص ١٠٢.

الجرجاني إلى دراسة التركيب اللغوي دراسة توضح المعاني الوظيفية، وأوجه الدلالة في العبارة، وذلك في إطار ما يتصل بالنظم من بناء وترتيب وتعليق[1]. وتتجسد علاقة البنية بالوظيفة عند "الجرجاني" فيما أسماه بمصطلح "الوجوه والفروق"، وذلك بأن المتكلم يختار وجوه وأشكال التركيب التي تخدم الأغراض التي ينشدها وكل وجه يصح في مقام خاص به دون غيره. وقد تتعدد وجوه المعنى النحوي الواحد؛ والفروق هي المعاني المترتبة عن هذه الوجوه، كما أن "الجرجاني" يكون قصد بالفروق القيم الخلافية أو فكرة المقابلة بين المبنى والمبنى، وبين المعنى والمعنى، ولهذا طلب أن ينظر إلى صور التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار، والإظهار، مؤكدًا أن التعبير بكل نمط شكلي يعتبر تعبيرًا عن المعنى الوظيفي لهذا النمط[2]. يقول "الجرجاني": "لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد منطلق، و...الشرط والجزاء، إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرج فأنا خارج، أنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجتَ خارج، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاء زيد مسرعًا، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع أو هو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له. وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه... ويُنظر في الجمل التي تُسرد فيُعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل... ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيضع كلاً من ذلك في مكانه ويستعمله على الصحة وما ينبغي له"[3]. فاللغة تتسع لكل تعبير أو بيان أو إفصاح عن مشاعر، والنحو يمد المتكلم بأنماط مختلفة من التعابير تتوافق مع أغراضه المختلفة، ويختار منها ما يخدم قصده[4].

---

(1) د. فاضل مصطفى الساقي، أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٦٥.
(2) السابق نفسه ص، ١٠٠، ١٠١.
(3) دلائل الإعجاز، ص١٣٧.
(4) عبد القادر المهيري، مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة، ص ١١٥.

والعلم بالوجوه والفروق لذاتها لا فائدة منه، بل المزية أن تُدرك مواضعها، فتصنع كلامك على الوجه الذي تقتضيه هذه المواضع، يقول "الجرجاني": (واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه. فنستند إلى اللغة، ولكنّا أوجبناها للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يُصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن (الواو) للجمع، و(الفاء) للتعقيب بغير تراخٍ، و(ثم) له بشرط التراخي، وإنْ (لكذا وإذا لكذا)؛ ولكن لأنْ يتأتّى لك إذا نظمت وألفت رسالة أن تحسن التخير، وأن تعرف لكل من ذلك موضعه"[1]. فالوظيفة التداولية تفرض على المتكلم أن يختار للغرض الذي يؤم الوجه أو التركيب الذي يلائمه[2].

●) السكاكي (ت٦٢٦هـ)

أ- دور المقام في توجيه بنية الخطاب

الوظائف المقصودة بالكلام هي التي تتحكم في بنياته، وللكلام ظروف تحيط بعناصره يجمعها ما يسمى بالمقام التخاطبي، وقد اشتهرت مع "السكاكي" مقولة (لكل مقام مقال) حيث وضع في المفتاح مبحثاً بهذا العنوان يتناول فيه المقام الذي يمثل أهم محددات الرسالة اللغوية، ونجده يتحدث عن اختلاف وظائف الكلام ومقاماته؛ وتبعاً لذلك بنياته اللغوية، فيقول: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل. وكذلك مقام الكلام ابتداءً يغاير مقام الكلام بناءً على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[3]؛ فالدلالات تفترق ولكل دلالة وجه من التراكيب يختص بها، وفي هذا الشأن يقول أيضاً: "فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول، وانحطاطه في ذلك طبقاً لمصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه (مقتضى الحال) فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم،

---

(1) دلائل الإعجاز، ص٢١١.

(2) الظاهر شارفه الملحي الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، ص٥١.

(3) مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٦٨.

فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك طبقًا للمقتضى ضعفاً وقوة..."[1].

٦) ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)

وضح "ابن خلدون" وظيفة اللغة واهميتها وطبيعتها، وذلك من خلال تعريفه للغة إذ يقول: «اللغة في المتعارف عبارة المتكلم عن المقصود، وتلك العبارة فعل لساني (ناشئة عن القصد لإفادة الكلام) فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم»[2].

ويقول في موضع آخر معرفاً وظيفة اللغة بأن: «اللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث في العلوم؛ لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك»[3].

ويُفهَم من التعريفين السابقين إدراك "ابن خلدون" لوظيفة اللغة وكونها وسيلة تعبير المتكلم عما يريد أن يعبر عنه. كما أشار إلى كونها فعل لساني قصدي، يختلف من أمة إلى أخرى طبقًا للسانها، كما لفت إلى كونها مشافهة.

ثانياً: المحدثون

انقسم علماء العربية المحدثون في وظيفة اللغة في التواصل إلى ثلاث فرق: فريق يُقصر وظيفة اللغة على التواصل، وآخر ينفي اقتصار دور اللغة على التواصل، وثالث يدرس اللغة من جانبين هما: الوظيفة والبنية.

١) أما الفريق الأول فمنه: "د. إبراهيم أنيس" إذ يقول معرفاً اللغة: «إن اللغة نظام عرفي لرموز صوتية يستغلها الناس في الاتصال بعضهم ببعض»[4]. وقد تضمّن هذا التعريف مع إيجازه أموراً أربعة وهي:

---

(1) مفتاح العلوم ص١٦٩.
(2) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، ط٣ دار النهضة المصرية، ١٩٧٩م ٣/ ١٢٦٤.
(3) السابق نفسه، ٣/ ١٢٦٠.
(4) د. إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، ط دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م ص١١.

أ- إن اللغة نظام من الأنظمة.
ب- عرف اجتماعي يخضع له جميع الناس.
ج- أصوات صادرة عن الجهاز الصوتي.
د- الأمر الرابع وهو المجتمع الإنساني، فاللغة – كما قال – كالحبة لا تنبت إلا في التربة، كذلك اللغة لا تنشأ وتترعرع إلا في ظل المجتمع الإنساني[1].

وعندما تعرض للأمر الثالث الذي تقوم به اللغة وهو الأصوات، أشار إلى عملية التواصل اللغوي، أو كما سماها هو "الاتصال اللغوي"، إذ لا تتم العملية إلا بين طرفين متكلم وسامع، أو إرسال واستقبال[2].

ومنه أيضاً "د. تمام حسان" فقد عرّف وظيفة اللغة مستعملاً مصطلح "الاتصال" قائلاً: «إننا لا نجد وسيلة للاتصال أنجع من اللغة»[3]، أما عندما تحدث عن الأغراض – أي الوظائف – التي تقوم بها اللغة، أورد لنا نقلاً عن "جيفونز" قوله: "إن اللغة تخدم ثلاثة أغراض:

أ- وسيلة للاتصال.
ب- مساعد ميكانيكي للفكرة.
ج- وسيلة للتسجيل والرجوع إليها"[4].

ونلاحظ أن العنصر الثالث عنده فرع للعنصر الأول، لأن الإنسان إذا سجل شيئاً للرجوع إليه، وعاد به في المستقبل إلى أفكاره القديمة، فإن هذا لا يختلف كثيراً عن مفهوم العنصر الأول، وهو نقل أفكار شخص إلى آخر، حين يقرأ مذكراته الخاصة. أما من ناحية أنها مساعد ميكانيكي للتفكير، فمن المؤكد أن معرفة اللغة تساعد التفكير مساعدة جوهرية جيدة، ومن ناحية أخرى يجب ألا ننسى أن بعض المفكرين شكوا من كون اللغة التقليدية قد عاقتهم أحياناً عن الغوص في

---

(1) د. إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، ص26.
(2) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص7.
(3) د. تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص9.
(4) د. تمام حسان، مناهج البحث في اللغة ، ص9.

الأفكار. فهي في مفرداتها وصيغها الثابتة ترغم الفكر على أن يسير على السبل المطروقة وأن يفكر كما فكر الآخرون من قبل[1].

٢) أما الفريق الثاني فمنه: "د. محمود السعران" وهو ممن ينفي اقتصار اللغة على وظيفتها التواصلية؛ حيث إنه سمى هذه الوظيفة "التوصيل"، وذلك ما نجده عند تساؤله قائلاً: «هل عد اللغة وسيلة من وسائل التوصيل يجوز أن يُعد تعريفاً صادقاً للغة؟»؛ مبيناً الأدلة التي يعتمد عليها في هذا الرأي وتتمثل في قوله: "إن دراسة الأنواع المختلفة للوظائف الكلامية في لغة من اللغات لا تزيد أمثال هذه التعريفات ولا توحي بها وذلك مثل:

- الكلام الانفرادي "المونولوج"[2]، وكالقراءة الانفرادية بصوتٍ عالٍ، وكتدوين الملاحظات التي لا يريد الكاتب بها إلا نفسه، وحديث الإنسان نفسه...إلخ.
- استعمال اللغة في السلوك الجماعي كالصلاة والدعاء وغيرهما.
- استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية التي لا تستهدف غاية مثل: لغة التحيات ولغة التأدب، والكلام عن حالة الطقس...إلخ.
- استعمال اللغة أحياناً لإخفاء أفكار المتكلم على ما يتضح في لغة السياسة وفي لغة اللصوص والخارجين عن القانون[3].

على أن هذه المعارضة لوظيفة اللغة التواصلية مردودة عليه من أوجه عديدة:

- الوجه الأول: أن علاقة اللغة يمكن أن تكون انعكاسية "Reflexive" فالتواصل في "المونولوج" هو مناقشة مضامين أو موضوعات تشغل بال الإنسان باللغة. وذلك في علاقته مع نفسه. وهذا ما يُدعى بالحوار الداخلي، أي الحوار غير المسموع، وحينئذٍ يُسائل الإنسان نفسه ويبثها الشكوى[4].

([1]) د. رابح بوحوش، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص١٢.

([2]) والمونولوج هذا من مصطلحات المسرح حيث يعمل الكاتب المسرحي على إظهار ما خفي من هذا الحوار.

([3]) د. محمود السعران، اللغة والمجتمع، ط دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م، ص١٦-٢٤.

([4]) د. رابح بوحوش، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٧.

وغالباً ما نسمي هذه العملية بالتفكير، وقد بيّن "د. كمال بشر" اعتراضه على رأي "د. محمود السعران" مستعيناً برأي "ادوارد سابير" في قوله: «إن حديث النفس أو المونولوج إنما هو صورة من صور "التوصيل اللغوي"، ذلك أن المتكلم والسامع هنا محققان في شخص واحد يمكن أن يُقال عنه إنه يتصل بنفسه»[1].

- الوجه الثاني: أن القراءة الانفرادية بصوت مسموع عالٍ، يتم فيها التلفظ بالمكتوب ليتأكد الإنسان من تمكنه من القراءة، ويختبر قدرته الصوتية وفصاحة لسانه، فحينما نتكلم نسمع أنفسنا ويسمعنا الآخرون، لأن المتكلم هو الاستماع إلى أنفسنا، ولأن من يتكلم يخاطب نفسه أولاً، وهو أول سامع لكلامه وهو في الوقت نفسه المخبر والمخبَر، فهو يستفيد ويراقب ما أنتجه بادئ الرأي.

إنه يسمع صوته ويقيس قوة سائله الكلامية، ويعلم من جراء ذلك نغمة صوته وعاداته أثناء النطق وكيفية نطقه.

لنتصور الحالة المضادة؛ لأنه "بالأضداد يُفهم المراد": تصوروا معي إنساناً لا يسمع صوته، كيف يستطيع مخاطبة غيره؟ إننا لنتحدث بحق – كما قال "ألفريد طوماتس" "Alfred Tomatis": «لكي نعجب بأنفسنا، وحتى نعرف أنفسنا أكثر، نخفي جزءاً من مرآتنا السمعية، فكلامنا يتشكل على هذا الشكل، كما يتحدد فينا، وكما ندركه بواسطة تشكلنا، وهنا يوجد تفاعل علائقي متبادل بصالح بيننا وبين نمط تواصلنا... إن اختيار رقابتنا والبراعة التي نستخدم بها قدرتنا الحواسية هما اللذان سيحددان نمط تشكلنا الذي سيُفرز بدوره نمطنا في الرقابة»[2].

وكذلك نجد الدكتور "عبد القادر الفاسي الفهري" ينفي قصر اللغة على وظيفتها التواصلية، وينتقد الوظيفيين في أن "اللغة أداة تواصل" وذلك في قوله: «مبدئياً ليس هناك ما يمنع من تصور اللغة موضوعاً رياضياً أو اجتماعياً أو نفسياً، ولذلك تصور اللسانيات جزءاً من الرياضيات أو علم الاجتماع أو علم

---

(1) د. كمال بشر، دراسات في علم اللغة، ط دار المعارف مصر، القسم ١، ص١٦-١٩.
(2) د. رابح بوحوش، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٩.

النفس. وزعْم الوظيفيين أن اللغة – قبل كل شيء– أداة للتواصل لا يستند إلى مبرر سوى أنه يردد ما يسلم به نوع من الحس المشترك»[1].

لقد خص "الفاسي الفهري" الوظيفيين بتعريفهم للغة على أنها "أداة تواصل" لا غير. وهذا يقتضي أن غير الوظيفيين لا يعتقدون ذلك، في حين أننا نجد من البنيويين التوليديين من يتحدث عن "التواصل اللغوي" تمييزاً له عن أنواع التواصل الأخرى الموجودة وهو الكاتب الأمريكي واللساني التوليدي "جيرولد كاتز" "J.Katz"[2]، وذلك في حديث له عن المدرسة السلوكية التي اختصت بعض دراساتها بالتواصل اللغوي.

وهو دليل على أنه ليست المدرسة الوظيفية وحدها التي قالت إن اللغة أداة تواصل، وأعني بذلك أن الاتجاه السلوكي نهج هو الآخر النهج نفسه[3]. وأما قول "الفاسي الفهري" إن: «زعم الوظيفيين هذا لا يستند إلى أي مبرر» فلا تكاد جميع المدارس تتفق معه، لأنه صار من المعلوم أن "التواصل" يشكل أهم وظيفة توصف بها اللغة[4].

٣) أما الفريق الثالث: وهو الذي يتوسط الرأيين فمنه الدكتور: "أحمد المتوكل"، فقد ذهب إلى أن دراسة اللغة تتم من جانبين:

- جانب وظيفي.
- وجانب نحوي وظيفي.

فالأول: يؤدي إلى الاستعمال، والثاني: يؤدي إلى الصورية بمفهومها البنيوي، وهو في ذلك يعمل على الرد على من ادعى أن ليس للغة وظيفة.

---

(1) د. عبد القادر الفاسي الفهري، مقال ملاحظات حول الكتابة اللسانية، مجلة تكامل المعرفة (مجلة جمعية الفلسفة بالمغرب)، عدد خاص باللسانيات، ع ٩، ط ١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥م، ص٩.

(2) د. ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥م، ص٧٩.

(3) يُنظر: رأي سابير في وظيفة اللغة، ص١٨١.

(4) د. رابح بوحوش... د. رابص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص ١٤.

وأكد "د. أحمد المتوكل" أنه لا يمكن في نظر الوظيفيين وصف خصائص العبارات اللغوية وصفاً ملائماً إلا إذا روعي في هذا الوصف الطبقات السياقية التي يمكن أن تستعمل فيها، في حين أنه في رأي غير الوظيفيين، من السائغ أن يتم وصف خصائص العبارات اللغوية بمعزل تام عن سياقات استعمالها. ويتصور اللغويون غير الوظيفيين الكليات اللغوية على أساس أنها مجموعة من المبادئ العامة المتعلقة بالخصائص الصورية (التركيبية، والصورية الدلالية) للسان الطبيعي يُفطر عليها الطفل، في حين أن اللغويين الوظيفيين يتصورون هذه المبادئ على أساس أنها مبادئ بين الخصائص الصورية للسان الطبيعي ووظيفة التواصل[1].

وهكذا تراوح اللغويون العرب بين مؤيد لتعريف اللغة بالوظيفة التواصلية، ومعارض لهذا التعريف، وبين جامع للرأيين معاً؛ فيدرسها على أنها وسيلة اتصال من جهة ويحلل بنيتها من جهة أخرى، وثالثها هو الأوْلى بالاعتبار[2].

عناصر الوظيفة التواصلية

ولما كانت الوظيفة التواصلية هي محور الأساس في اللسانيات التداولية؛ كان من الضروري تحديد مكونات هذه القدرة، التي ترتكز على مشاركين في الخطاب: (المتكلم والمخاطب)؛ وذلك من خلال وسيلة لنقل الحوار تكون مكتوبة أو منطوقة، يهدف من خلالها تحقيق هدف المتكلم من خطابه، معتمدًا على مخزونه المعلوماتي، بالإضافة إلى ما يفترضه من معلومات سابقة في ذهن المخاطب، والذي طبقًا لها تتفاوت طبيعة الحوار في درجات الإفصاح والإحالة، فإذا قال المتكلم: (قابلت الرجل أمس – أو قابلته أمس). كان مفترضًا أن المخاطب يعلم مَنْ الرجل الذي يقصده المتكلم، أما إذا قال: (قابلت الرجل الذي يبحث عن وظيفة أمس)، كان المفترض أن المخاطب ليس لديه مخزون كافٍ يُمكنه من معرفة هذا الرجل؛ ومن ثمَّ حرص المتكلم على أن يقدم عبارة

[1] د. أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص ١٢،١٣.
[2] د. رفيس نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص ٢١.

صريحة تفي بغرضه[1].

إن كل فعل تواصلي لفظي، يتكون من مجموعة من العناصر المنظمة للتواصل، سنوضحها فيما يلي:

أ- المرسِل: هو ذاك الذي يرسل الرسالة سواء أكانت سمعية أم بصرية أم غيرها؛ ويمكن أن يكون ذاتًا أو آلة، ... إلخ[2].
ب- المرسَل إليه: هو ذاك الذي يتلقى الرسالة، ويقوم بعملية الإفهام، وقد علق "جورج مونان" على قضية الاصطلاح، وذكر أن مصطلحي "متكلم" و"مستمع" رغم حداثتهما ودورهما الوظيفي المهم – من المصطلحات التي قل استعمالها، بحيث عُوضا بالمرسِل والمستقبِل وبعد ذلك عُوضا بالمركب والمحلل ثم بالباث والمرسَل إليه[3].
ج- المرجع: هو ما نتحدثُ عنه من موضوعات العالم.
د- السَّنَن: هي نسقُ القواعد المشتركة بين المتكلم والمتلقي، والذي بدونه لا يمكن للرسالة أن تُفهَم أو تُؤوَّل. فاللسانيون الاجتماعيون عمدوا إلى التفرغ لدراسة إمكانيات الأشخاص، وتصنيفهم إلى شرائح اجتماعية ومراتب وفئات وأصناف، وقد خص "ترادجيل" "Trugill" مثلاً دراسة في الفروق بين لغة النساء والرجال.

ورأى آخرون أنه من الواجب مراعاة مستويات الفارق السني، ودراسة آخرين حسب الحرف والمهن وكذا الموقع الجغرافي ثم المراتب الاجتماعية ثم دراستهم حسب اختلاف الأجناس والمواقف والظروف، فليس من المعقول أن يتواصل الكبير مع الصغير – والكبير والصغير درجات- دون أن تكون هناك أي عوائق إذا لم يدر المرسِل أو المستقبِل أو أيا منهما، ما الواجب اتخاذه في مثل هذا الموقف، ومن ذلك الموقف التعليمي حيث يخاطب الكبير الصغير، فمن الضروري أن يراعي مستواه حتى يبلغه ما يريد تبليغه، ويكون التواصل

(1) د. أحمد المتوكل: قضايا اللغة في اللسانيات الوظيفية، ص18 – 19.
(2) د. رابح بوحوش؟ نور الدين: نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص295.
(3) السابق نفسه، ص296.

ناجحا. أو أن يكون العكس كأن يخاطب الصغير الكبير ليلتمس معرفة أمر يجهله[1].

هـ القناة: هي التي تسمح بقيام التواصل بين المرسِل والمرسَل إليه، وعبرها تصل الرسالة من نقطة معينة إلى نقطة أخرى. ولكل قناة بعد خاص حسي فتكون بصرية أو صوتية أو سمعية أو لمسية، أو بعد زمني (رسالة مطبوعة، أو اسطوانات، أو مسجلات، أو صور...إلخ) أو البعدين معاً، وقد ذكر "مارشال ماك لوهن" أن القنوات الاصطناعية ما هي إلا امتداد لحواسنا الإدراكية كالسمع والبصر واللمس... إلخ[2].

و-الرسالة: هي التي تحقق التواصل، ويمكن أن تكون لسانية أو سيميائية (وإن كانت جميع أنظمة التواصل غير اللسانية تُؤَوَّل عن طريق اللغة، وهو ما يجعلها أنظمة لسانية؛ مما يقتضي انضواء السيميائيات ضمن اللسانيات، وليس العكس كما قال "دي سوسير")[3]. والرسالة هي مادة التواصل مؤلفة من مضمون الأخبار المنقولة أي من الصور الفكرية التي لنا عن الواقع أو المرجع المادي وكذا الفكري المجرد أو الخيالي المتصور.

وهذا الشكل المنسق – أي الرسالة- لا تظهر دلالته إلا إثر عملية التحليل، فالمستقبل يبحث في الذاكرة عن عناصر النظام الذي اختيرت فيه الرسالة لتكوينها وإرسالها في شكل منظم، وهو الشكل الذي تُفهم فيه.

ومثال "الفعل السومي" أن يطلب شخص من شخص آخر أن يخبره عن الوقت بإرساله لمتتالية من الإشارات الصوتية: كم الساعة ؟

وتتكون مادة الرسالة هنا من الاستفهام، والشكل المنظم المنقول هو الشكل الصوتي النطقي، وبعد حصول الفعل السومي – أي بعد انتهائه- وتحليله فإن العلاقة الاجتماعية تنشأ بين المرسِل والمستقبِل، أي أن التواصل قد تم بين المتخاطبين. ويقتضي ذلك أن المستقبل يعرف نظام المرسِل، ومن ثم استطاع

---

[1] د. رابص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٢٩٨، ٢٩٧.
[2] السابق نفسه، ص٣١٥.
[3] د. ميشال زكريا، الألسنية المبادئ والأعلام، ط ٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ص٥٢،٥٣.

أن يحلل شكل الرسالة ويفهم مغزاها[1].

ز- بنية الرسالة: فيشكل النظام تلك المجموعة من القواعد التي تستند في مادتها إلى القناة السمعية، أو المرئية، أو اللمسية للإنسان، وقد عرّفه "أمبرطو إيكو" بقوله: « إن النظام هو كل نسق من الرموز يهدف – باتفاق سابق لتمثيل ونقل خبر ما من مرسل إلى مستقبل ... ويمكنني أن أؤكد – على الأقل- حينما أوجه خطابي أو حركتي أو أي علامة مكتوبة أو مرسومة أو منطوقة لشخص ما أرغب في إعلامه أو إخباره بشيء أعرفه من قبل، وأريد أن يعرفه هو أيضاً، فإنني لستعمل سلسلة من القواعد – أنشئت في نمط ما- تصبح بها رسالتي مفهومة» [2].

ح- التركيب: وفيه يتم انتخاب واختيار بعض إشارات نظام من الأنظمة السيميولوجية لتركيب رسالة من الرسائل وصياغتها في شكل ما، تبعاً لقواعد ذلك النظام السيميولوجي الذي اختاره المرسل ليتواصل مع المستقبل[3].

ط- التحليل: وهي عملية تعريف أو تأويل أو تفسير للإشارات أو العلامات التي تضمنتها الرسالة تبعاً للنظام الذي أرسلت فيه أو في نظام سيميولوجي آخر، وهذا الشكل الذي يتلقاه المستقبل من الواجب أن يكون مفهوماً لديه حتى يتسنى للعلاقة الاجتماعية أن تكون قائمة، وهي غاية التواصل، أما الاتفاق والتقابل في النظام فهو معطى من المعطيات التي على المرسل أن يراعيه، وذلك تبعاً لما يعرفه عن مستقبله من قدرة على التواصل جملة وتفصيلاً[4].

ي- المقام (السياق): وهكذا بعد أن كان المقام ملغى من الدراسات البنيوية، أصبح من الضروري دراسته في الأبحاث اللسانية الاجتماعية تبعاً لـ "مالينوفسكي" والأنثولسانيات "سابير" و"وورف" كما وجدنا أثنوغرافيي التواصل يركزون على هذا الجانب في القدرة التواصلية، وخاصة في النموذج التخاطبي لـ "هايمز" (ت١٩٦٢م). وقد نقل عنهم هذا الموقف أصحاب مدرسة "بالو ألطو" مؤلفين بينه وبين النظرة التفاعلية للحظة التواصل، حيث يطلقون

---

(1) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٣٠٨،٣٠٩.
(2) السابق نفسه، ص٣١٠.
(3) السابق نفسه، ص٣١٦.
(4) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٣١٧.

عليه السياق، ويقصدون به تلك العبارات التي نسوقها حين نقول "هنا، والآن" الأنثروغرافية المحققة، فليس السياق ذلك المحيط وليس أي مكان، بل هو مكان التفاعل في زمن التفاعل، وقواعد لدلالة هذه التفاعلات، ويشرح لنا "جورج مونان" المقام بالمثال قائلاً: «إننا في المقام نشير إلى القلم الذي على الطاولة قائلين "أعطني هذا" ونكتبها خلافاً لذلك على النحو التالي: "أعطني القلم الذي على الطاولة" معوضين بذلك المقام الغائب هنا بالسياق اللساني، مما يبعد عنا سوء الفهم والغموض الذي قد يكتنف العبارة المنطوق بها... ويمكننا أن نعُد من عناصر المقام تلك الصفات التطريزية التي ترافق الملفوظ من تنغيم، ونبر، ووقف ... إلخ».

إذن فالمقام يعمل على درء سوء الفهم وإبعاد الغموض الذي يكتنف الرسالة الشفوية، حيث يحتوي مفهوم المقام على الزمان والمكان وهوية المتكلمين ووضعياتهم أثناء حدوث التواصل بينهم، وقد ذكرت "فرانسواز أرمينكو" أنه إذا حُرمنا من هذا العنصر الفعال في التحليل، فسوف نقع في سوء الفهم وتحتمل الرسالة حينئذٍ عدة احتمالات وكذا طبقات من المعنى"[1].

وتتفاعل جميع هذه العناصر في عملية الكلام فيقوم المرسِلُ (أو المتكلم) بتوجيه رسالة إلى المرسَل إليه (أو المخاطب)؛ وتستند هذه الرسالة إلى سياق (أو المرجع) يفهمه المرسِلُ والمرسَلُ إليه فهمًا جيدًا؛ وتقوم على سنن (وهو ما يُعبّر عنه بمصطلح اللسان لدى "سوسير") مشترك بين الطرفين جزئيًا أو كليًا؛ وتقوم بالربط بينهما قناةُ تواصل تسمح بربط فيزيائي، ونفسي للتواصل، والإبقاء عليه أو قطعه[2].

والتواصل الناتج من جميع هذه العناصر يتسم بكونه:

١. نشاط مشترك، يتمكن به الناس من تأسيس علاقاتهم أو المحافظة عليها، ويشمل الاشتراك في التواصل الاشتراك في عنصر المكان والزمان، وكذلك المعتقدات والعلاقات السابقة بين طرفيه، والغاية التي تُسيّر الخطاب.
٢. إنه قد يتم التواصل باللغة الطبيعية، أو بالعلامات السيميائية الأخرى.

---

(1) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٣١٩، ٣٢٠.
(2) د. عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص٤٨، ٤٩.

٣. إن التواصل ليس فعلاً عشوائيًا، أو حدثًا غفلاً، بل هو فعل منظم، وموجه لتحقيق أهداف معينة. وإقامة العلاقات بين الناس من أهم أهدافه بيد أن أهدافه ليست محصورة في ذلك، بل تتجاوزها، في التعامل اليومي بين الناس، إلى التبليغ، والإقناع.

٤. إن التواصل يجري وفقًا للأعراف الاجتماعية، مع أن هذه الأعراف تأتي من شخص لآخر[1]. وعليه، فقد كان من سمات هذا الاتجاه، رصد خصائص بنية اللغة الطبيعية، وربطها بوظيفتها في التواصل، والتواصل أي أن قدرة طرفي الخطاب التواصلية تكمن في معرفة القواعد العامة التي تمكنها من تحقيق إمكانية التواصل وتأويل الخطاب، ومنها القواعد اللغوية في مستوياتها التركيبية والدلالية والصوتية.

ملكات التواصل

قد قام "ثن دايك ١٩٧٨ ص١ - ٢" بتوضيح هذه الملكات، وتتمثل في:

١) **الملكة اللغوية (النحوية)**: «يستطيع مستعمل اللغة الطبيعية أن ينتج ويؤول إنتاجًا وتأويلاً صحيحين عبارات لغوية ذات بنيات متنوعة جدًا ومعقدة جدًا في عدد كبير من المواقف التواصلية المختلفة».

٢) **الملكة المنطقية**: «بإمكان مستعمل اللغة الطبيعية، من حيث كونه مزودًا بمعارف معينة، أن يشتق معارف أخرى بواسطة قواعد استدلال تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي»[2].

٣) **الملكة المعرفية**: «يستطيع مستعمل اللغة الطبيعية أن يكوّن رصيدًا من المعارف المنظمة، ويستطيع أن يشتق معارف من العبارات اللغوية، كما يستطيع أن يختزنها في الشكل المطلوب، يستحضرها لاستعمالها في تأويل العبارات اللغوية».

وقد قام "دايك ١٩٨٩ و ١٩٩٧ /٢ /٤١٠" بتصنيف هذه المعارف إلى:

---

(١) إستراتيجيات الخطاب، ص١٠.

(٢) د. أحمد المتوكل: قضايا اللغة ص٣٧، و د. حافظ إسماعيلي علوي: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص٢٠١.

أ- معارف عامة: تتعلق بمدركات المتخاطبين عن العالم.

ب- معارف مقامية: مشتقة من عناصر المقام الذي تم فيه عملية التواصل.

ج- معارف سياقية: يوفرها للمتخاطبين ما تم إيراده في قطعة خطابية سابقة[1].

٤) الملكة الإدراكية: «يتمكن مستعمل اللغة الطبيعية أن يدرك محيطه، وأن يشتق من إدراكه ذلك معارف، وأن يستعمل هذه المعارف في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها».

٥) الملكة الاجتماعية: «يعرف مستعمل اللغة الطبيعية كيف ينشئ خطابًا يتواصل به مع غيره في موقف تواصلي معين؛ قصد تحقيق أهداف تواصلية معينة»[2].

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن هذه الملكات تتضافر معًا في عملها من حيث إنتاج الكلام وتأويله، إلا أن الملكة اللغوية تُعد أهم هذه الملكات في إنتاج الكلام، وتتفاوت أهميتها بتفاوت المخزون المعرفي لدى المتخاطبين؛ فكلما زاد المخزون المعرفي، قلت الحاجة إلى الملكة اللغوية (النحوية)، والعكس صحيح وقد قام "المتوكل" جمع هذه الملكات في قالبين:

أولاهما: أسماها (قوالب الأدوات)، وتشمل الملكة النحوية والمنطقية.

ثانيهما: أطلق عليها (قوالب المخازن)، وتشمل الملكة المعرفية، والملكة الإدراكية، والملكة الاجتماعية، والواقع أن الفصل بينهما ليس حاسمًا؛ فالقالب النحوي قد يقوم بدوري الأداة والمخزون في ذات الوقت؛ ومن ثمَّ اقترح تقسيمًا آخرًا لتلك القوالب، مقسمًا إياها إلى ثلاثة: (المعرفي، والاجتماعي، والنحوي "أدوات ومخازن")[3]. وتشترك هذه القوالب معًا على النحو التالي:

أ- فإذا تلقى المخاطب عبارة فحواها: (احضر "دلائل الإعجاز" من المكتبة).

---

(١) د. أحمد المتوكل: قضايا اللغة في اللسانيات الوظيفية، ص١٩.
(٢) السابق نفسه، ص٢٧، و د. حافظ إسماعيلي علوي: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص٢٠٢.
(٣) د. أحمد المتوكل: قضايا اللغة في اللسانيات الوظيفية، ص١١.

فيتكفل القالب النحوي بتحليل العبارة إلى بنيتها التحتية لإدراك معناها اللغوي.

ب- الاستعانة بالقالب المعرفي، المتمثل في معرفة المخاطب بأن هناك كتاب يُدعى "دلائل الإعجاز"، وكذلك يلجأ إلى القالب الإدراكي لتحديد لون الغلاف، والدار التي طبعته مثلا.

ج- الاستعانة بالقالبين المعرفي والإدراكي في معرفة ما تحيل إليه كلمة "المكتبة" في العبارة: (أهي مكتبة المتكلم؟ أم مكتبة مؤسسة ما؟ ...).

د- القالب المنطقي، والذي يقوم باشتقاق بنية تحتية نوعية تحمل القوة الإنجازية الواردة، وتوضيح المراد من العبارة إذا كان أمرًا أم طلبًا.

هـ- أما القالب الاجتماعي، فيتمثل في العلاقة التي تربط بين المخاطبَين، من حيث كون العبارة موجهة من كبير إلى صغير أو من متساويين أو من معلم إلى متعلم ... إلخ.

في عملية تأويل العبارات اللغوية هذه تتفاوت أهمية دور القوالب وفقا لأنماط الخطاب[1].

من معوقات التواصل

١) الإطناب

ويُقصد به تلك الزيادة في الإشارات الدلالية بالمقارنة مع ما هو ضروري وكافٍ نظريا في التثقيف أو نقل رسالة ما[2]. وقد يأخذ الإطناب أشكالا متنوعة كأن يكون:

- تركيبيا في الكلام المنطوق بالزيادة في التعابير.
- تركيبيا فيما كتب.

---

(١) د. أحمد المتوكل: قضايا اللغة في اللسانيات الوظيفية، ص٦٢ ـ ٦٣.

(٢) د. رابص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٢٢٨.

- حركياً حينما ترافق الحركة الكلام، وذلك مثل قولنا "هذا" لفظة الإشارة التي ترافقها الإشارة الحركية باليد أو الرأس للإشارة إلى الشيء.
- تنغيمياً وهذا واضح في التلوين الصوتي، حيث إن المتكلم قد يقصد الاستفهام في حين أن كلامه ينبئ عن الخبر استنكاراً أو تعجباً أو سؤالاً لا يجوز الاستفهام به.

وفي ذلك يقول "مارتينيه": «وهكذا تفرض المتطلبات العملية للتبليغ أن يكون المبنى محشواً أي مطنباً دائماً وعلى جميع المستويات، أي يتضمن كثيراً مما هو زائد عن اللزوم»[1] وبناءً على ذلك يعمل المرسل – لضمان تواصله مع المستقبل- على إحضار عنصر بديل يدل به ويصوب الرسالة قدر المستطاع.

إذن فالحاجة ماسة للحفاظ على هذا الإطناب أو الإتيان به عندما تقتضي العملية التواصلية ذلك.

٢) التشويش

نقصد به كل ما يؤثر في المراحل التي تُنقل فيها الرسالة، وذلك كالصوت الخفيض أو الممزوج بالموسيقى أو شرود ذهن المستقبل أو خطأ في التركيب ... إلخ[2].

٣) الغموض

وواضح أن الغموض في التواصل الشفوي الكلامي المنسوب للنظام الصوتي راجع لا محالة للتشويش الآتي:

- إما من المرسل الذي لم يختر النظام اللغوي الملائم لمستقبله العارف به، وإما أن يكون قد اختار النظام اللغوي لكنه خرج عن دائرة معارف مستقبله، عندما لم يراع مستواه الثقافي أو طبيعة تكوينه أو غير ذلك من الأمور الاجتماعية.

---

(1) أندريه مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة، ص١٨٤.
(2) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٢٢٢

- وإما من قناة الرسالة التواصلية التي قد يطرأ عليها عنصر خارجي يعمل على تغيير ذبذباتها الصوتية، كأن يتكلم المرسل عند حدوث ضجة إثر اصطدام سيارة، أو صراخ طفل، أو صياح ديك، أو نباح كلب، أو سقوط شيء أو غير ذلك.
- وإما من المستقبل الذي قد يكون شارد الذهن عند تلقي الرسالة أو ضعيف السمع، فيحتاج المرسل أن يكرر إلقاء رسالته العديد من المرات، أو أن يرفع صوته، أو يطلب من شخص قريب من المستقبل أن يتوسط له في إبلاغه ما يريد، ولربما ينقل له هذا الوسيط تلك الرسالة، كما أرادها وربما يعمل على تغيير مبناها فمعناها، فتكون الاستجابة ناقصة، أو معكوسة، أو تافهة مما يؤدي إلى الغموض الذي يصاب به المستقبل، ويعمل على فشل التواصل بينهما[1].

٤) الفعل العائد (رد الفعل)

فالفعل العائد ذو تأثير كبير على نجاح أو فشل التواصل الجاري بين بني البشر، مما حدا بأقطاب التداولية مثل "فريج" و"جرايس" في قضية تعاون المرسل مع المستقبل إلى التركيز على هذه المسألة بالذات.

مثلاً قال المتكلم: "أغلق الباب" (بلهجة عنيفة) فلم يستجب المستمع لذلك الطلب، بل راح ينحى عليه باللوم على ما بدر منه من سوء تصرف، فقال له: "ألا تعرف من أكون حتى تخاطبني بهذه اللهجة ؟" وندم المتكلم وطلب منه الصفح عنه، والتمس منه أن يغلق الباب بصيغة تنم عن حسن سلوك وحب واحترام، حين علم سمو مرتبته الاجتماعية أولى المستمع إلى الباب فأغلقها عن طيب خاطر[2]؛ وهكذا اختلف رد فعل المتلقي لاختلاف طريقة نطق الرسالة ونغمتها وملابستها.

---

(1) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٣٢٣،٣٢٤.
(2) د. رابح نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص٣٢٦،٣٢٧.

خصائص التواصل اللفظي

ومهما يكن من أمر، فإن اللغة الإنسانية تبدو فريدة بين أنظمة الاتصال المتعددة المعروفة. وينبغي لهذه اللغة أن تحوز ملامح تمييزية لا نجدها بحالها في نظام آخر. ولعل أولى المحاولات الحديثة في تطوير قائمة الملامح التمييزية التي تسم الكلام (أي هذا النسق الفيزيقي المحسوس من اللغة الحاصل بإنتاج أصوات لغوية) هي محاولة "هوكيت" (١٩٥٨م)، التي وصلت بتلك الملامح إلى ستة عشر ملمحًا. وقد أحسن "سالزمان" عرضها على النحو التالي:

١. القناة الصوتية السمعية:

يشيع بين الناس استعمال القناة الصوتية السمعية في الاتصال. ولاستعمال الجهاز الصوتي في الاتصال ميزة مهمة؛ هي أن بقية الجسم تتمتع بحرية التخلي عن ممارسة النشاطات الجماعية المتعددة الأخرى[1].

٢. النقل المذاع والاستقبال الموجَّه:

وذلك أن أصوات الكلام تتحرك خارجة من مصدرها الأصلي في جميع الاتجاهات. ولا يحتاج المرسل أو المستقبل إلى أن يرى أحدهما الآخر، من أجل التواصل. ويمكن الاستقبال بالأذنين دون حاجة إلى تحديد مصدر الأصوات[2].

٣. الزوال السريع:

وذلك أن أصوات الكلام تُسمع في مدى محدد جدًا. وهي تُسمع فقط في الوقت الذي تُنتج فيه. وبعد ذلك، تفقد على نحو لا يمكن ردُّه. (على العكس من ذلك، تبقى الكتابة نسبيًا؛ فبعض المدونات المكتوبة قد يُحتفظ بها لوقت طويل).

٤. قابلية التغيير:

---

(1) د. محمد العبد، العبارة والإشارة ص٢١.
(2) السابق نفسه، ص٢١.

وذلك أن للكائنات الإنسانية – من الناحية النظرية على الأقل- مقدرة على نطق ما يقوله الآخرون (إذا كانت اللغة المستخدمة مألوفة بالطبع).

٥. الاسترجاع الكامل:

وذلك أن متكلمي أية لغة يسمعون –هم أنفسهم- ما يقولون. ومن أجل ذلك، فهم قادرون على مراجعة رسائلهم، وإدخال أية تصويبات يرونها ضرورية أو مناسبة، على التو.

٦. التخصيص:

وذلك أن الكلام الإنساني، لا يؤدي وظيفة أخرى غير الاتصال.

٧. الدلالية:

وذلك أن اللغة الإنسانية تعرف الصلة المحكمة بين العدد الوفير من المفردات والجمل الممكنة، وبين المحاور المختلفة اختلافًا واسعًا، والتي يتحدث حولها الناس[1].

٨. العرفية:

ليست هناك علاقة داخلية أصلية بين شكل وحدة من اللغة ذات معنى (الكلمة مثلاً) وبين المفهوم الذي تحمله هذه الوحدة.

٩. التمايز الفردي:

وذلك أن الرسائل في اللغات الإنسانية، لا تتكون من أصوات متصلة متداخلة (كالنفير)، ولكنها جُعلت في حصافة وتمايز فردي، من حيث إنها شرائح متمايز بعضها من بعض تمايزًا فرديًا؛ فالفرق بين الجملتين الاستفهاميتين:

---

(١) د. محمد السيد، العبارة والإشارة، ص٢٢

- هل معك قطعة من اللحم؟
- هل معك قطعة من الفحم؟

يقتضي صوتين متمايزين في موضع بعينه من الجملتين، أحدهما يُكتب وينطق (ل) والآخر (ف).

١٠. الإزاحة:

وذلك أن الناس يستطيعون أن يتكلموا (أو يكتبوا) عن شئ ما بعيد في زمانه ومكانه عن الوضع الذي يحدث فيه الاتصال[١].

١١. الإنتاجية:

وذلك أن الناس قادرون على عمل تقريرات وإخباريات كاملة جديدة، يفهمها عنهم سامعوهم.

١٢. ثنائية النمط:

وذلك أن أصغر الوحدات الدالة من اللغة؛ كالوحدات في العبارة: اشتـ شرى الـ فساد، التي تُصنع من أصوات مميزة للغة، تدخل في عديد من الكلمات التي لا تقبل أن تنقسم إلى أجزاء أصغر، نحو: سقف، رأى، فرق...إلخ. ويعني هذا أن عددًا محددًا من الوحدات اللغوية من نوع بعينه، يمكنه أن يصنع عددًا واسعًا من الوحدات على مستوى آخر.

١٣. البث الثقافي (أو نقل التقاليد المرعِيَّة):

وذلك أن المرء لا يرث لغة بذاتها إرثًا تكوينيًا؛ فالأطفال يتعلمون اللغة من الوالدين أو من الآخرين الذين يتحدثون إليهم أو معهم. والتكلم بلغة بعينها، هو -من أجل ذلك- جزء من السلوك الثقافي الشامل عند الإنسان؛ فالسلوك يُكتسب من خلال التعلم.

---

(١) د. محمد العبد، العبارة والإشارة، ص٢٣.

١٤. المراوغة:

وذلك أن ما يمكن أن يقوله المرء، قد يبدو خطأ تمامًا كأن يؤكد أحدهم أن القمر من جبن أخضر![1].

١٥. الانعكاسية:

وذلك أن الناس يستعملون اللغة –لو يمكنهم ذلك– لمناقشة اللغة أو التواصل بوجه عام، على نحو ما يفعل المرء في الفصل أو في مقهى فالخر.

١٦. إمكانية التعلم:

وذلك أن المتكلمين بأية لغة، يمكنهم تعلم لغة ثانية أو لغات متعددة، بالإضافة إلى لغتهم الأم[2].

---

(١) د. محمد العبد، العبارة والإشارة ص٢٤.
(٢) السابق نفسه ، ص٢٥.



قائمة المصادر والمراجع

١ - د. إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية، ط دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.
٢ - د. إبراهيم عبد الله الغامدي: معالم الدلالة اللغوية في القرن الثالث الهجري على مستوى الكلمة المفردة، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.
٣ - د. أحمد حساني: مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤م.
٤ - د. أحمد دراج: الاتجاهات المعاصرة في الدراسات اللسانية، مكتبة الأداب، ط١، ٢٠٠٩م.
٥ - د. أحمد عزوز: المدارس اللسانية، دار الأديب، وهران، ٢٠٠٥م.
٦ - د. أحمد عفيفي:
- الإحالة في نحو النص، مجلة دار العلوم، عدد خاص بعنوان العربية بين نحو الجملة ونحو النص، ٢٠٠٥م.
- ظاهرة التخفيف في النحو العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٦م.
٧ - أحمد بن فارس:
- الصاحبي في فقه اللغة، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٩١٠م.
- مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٨ - د. أحمد المتوكل:
- آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٣م.
- دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ط دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
- قضايا اللغة في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان، الرباط، ٢٠٠١م.
- اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، منشورات عكاظ للرباط، ١٩٨٩م.
- الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.
٩ - د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ط٥، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
١٠ - د. أحمد نعيم الكراعين: علم الدلالة بين النظر والتطبيق، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م.
١١ - د. الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصًا، ط١،

المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م.
١٢- ابن أبي الأصبع المصري: تحرير التحبير، تحقيق: د. حفني محمد شرف، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، د.ت.
١٣- الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتاب الحديث، القاهرة، د.ت.
١٤- آن روبل، وجاك موشلار: التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ترجمة د.سيف الدين دغفوس، ود.محمد الشيباني، ومراجعة: د.لطيف زيتوني، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣م.
١٥- أندريه مارتينيه: مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة د. أحمد الحمو، ١٩٨٥م.
١٦- أندريه مارتينيه وهنرييت فالتير: حوار اللغات، ترجمة د. نادر سراج، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة،٢٠٠٧م.
١٧- باتريك شارودو، ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، ومراجعة: صلاح الدين الشريف، ط١، دار سيناترا، المركز الوطني، تونس، ٢٠٠٨م.
١٨- برتيل مالبرج: مدخل إلى اللسانيات، ترجمة السيد عبد الظاهر، مراجعة وتقديم: صبري التهامي، ط١، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م.
١٩- بريجيته بارتشت: مناهج البحث اللغوي من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، ترجمة د. سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار، ٢٠٠٤م.
٢٠- البعلبكي رمزي منير: معجم المصطلحات اللغوية، ط١، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.
٢١- أبو البقاء الكفوي: الكليات، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م.
٢٢- د. أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ط١، العمدة في الطبع، ٢٠٠٦م.
٢٣- بول فابر كرستان باليون: مدخل إلى الألسنية، ترجمة: طلال وهبة، المغرب، ١٩٩٢م.
٢٤- بيتر راينوويتز: بحث نظرية فعل الكلام والدراسات الأدبية، ترجمة: محمد السعيد القن، منشور ضمن كتاب من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، إشراف: د. جابر عصفور، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
٢٥- بيير جيرو: السيمياء، ترجمة أنطوان أبو زيد، ط ١، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.
٢٦- د. تمام حسان:
- البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣م.
- اللغة بين المعيارية والوصفية، ط دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.
- اللغة العربية معناها ومبناها، ط٣، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٠هـ ١٩٥٤م.

٢٧ – الجاحظ:
- البيان والتبيين، تحقيق أ. عبد السلام محمد هارون، ط٧، الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
- التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أ. أحمد زكي باشا، ط مكتبة المتنبي، بغداد، طبعة بالأوفست، د.ت.
- الحيوان، تحقيق أ. عبد السلام محمد هارون، ط الحلبي، مصر، د.ت.
٢٨ – جاكوبسون، مونان، ميكي، هابرماس وآخرون: التواصل نظريات ومقاربات، ترجمة: عز الدين الخطابي وزهور حوتي، ط النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.
٢٩ – ج.ب براون، ج يول: تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: د. محمد لطفي الزليطني، ود. منير التريكي، ط جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧م.
٣٠ – جرهارد هلبش: تاريخ علم اللغة الحديث، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، د.ت.
٣١ – جفري سامسون: مدارس اللسانيات - التسابق والتطور، ترجمة: د. محمد زياد كبة، ط جامعة الملك سعود، ١٤١٧هـ.
٣٢ – د. جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م.
٣٣ – ابن جني:
- الخصائص، تحقيق أ. محمد علي النجار، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق: د. علي النجدي ناصف، ود. عبد الحليم النجار، ود. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٤م.
٣٤ – جورج مولينييه: دراسة الأسلوب والبحث وأدوات الفن الأدبي، ترجمة: د. بسام بركة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ع٩٤، السنة١٩، شتاء ١٩٩٨م.
٣٥ – جورج مونان: علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة: د. نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، ط٣، سوريا، د.ت.
٣٦ – جون إي جوزيف، نايجل لف، تولبت جي تيلر: أعلام الفكر اللغوي، ترجمة: د. أحمد شاكر الكلابي، ط١، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ٢٠٠٦م.
٣٧ – جون جوزيف: اللغة والهوية، ترجمة: عبد النور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٧م.
٣٨ – جون سرفوني: اللسانيات والتداولية، ترجمة حمو الحاج ذهبية، بحث

بشبكة المعلومات، منتدى التواصل العلمي، د.ت.
٣٩- جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع؛ الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٦م.
٤٠- جيرار دولودال وجوويل ريطوري: التحليل السيميوطيقي للنص الشعري، ترجمة عبد الرحمن بو علي، مطبعة المعارف الجديدة، ط١، ١٩٩٤م.
٤١- جيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢م.
٤٢- د. حافظ إسماعيلي علوي: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، عالم الفكر، ع٢، م٣٣، أكتوبر – ديسمبر ٢٠٠٤م.
٤٣- الحطاب الرعيني: مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل، تحقيق: زكريا عميرات، دار عالم الكتب ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٤٤- د. حلمي خليل: مقدمة لدراسة علم اللغة، ط دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م.
٤٥- الرازي (الإمام فخر الدين):
- المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط٢، مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة، الرياض، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق د. بكري شيخ أمين، ط دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.
٤٦- د. رايص نور الدين: نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ط١، مطبعة سايس- فاس، ٢٠٠٧م.
٤٧- ابن رشد القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ط٣، مطبعة الخانجي، القاهرة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
٤٨- الرضي: شرح الكافية، تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، ١٩٧٨م.
٤٩- روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، ط عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٨م.
٥٠- رونالد إيلوار: مدخل إلى اللسانيات، ترجمة بدر الدين القاسم، منشورات وزارة التربية والتعليم العالي، الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٠م.
٥١- زتسيسلاف واورزنياك: مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة: د. سعيد بحيري، ط مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٥٢- الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٥٣- د. سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ط١، عالم الكتب

الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٨م.
٤٥- السبكي: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص للقزويني، ط دار الهادي، بيروت، ١٩٩٢م.
٥٥-د. سعد مصلوح: في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، ط٢، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣م.
٥٦- د. سعيد بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط١، لونجمان، القاهرة، ١٩٩٧م.
٥٦- السكاكي (أبو يعقوب بن أبي بكر): مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٥٧- سليم بابا عمر وباني عميري: اللسانيات العامة الميسرة (علم التراكيب)، الجزائر، ١٩٩٠م.
٥٨- السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، ط دار القلم، دمشق، د.ت.
٥٩- سيبويه: الكتاب، تحقيق أ. عبد السلام محمد هارون، ط٣، الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
٦٠-د. سيد أحمد عبد الغفار: التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٩٥م.
٦١- السيد سابق: فقه السنة، ط دار الريان للتراث، ١٩٩٠م.
٦٢- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط ١٢، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.
٦٣- السيوطي:
- الأشباه والنظائر، ط دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه: د. محمد أحمد جاد المولى، ود.علي محمد البجاوي، ود. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الحرم للتراث، د.ت.
٦٠- الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
٦١- الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، ط١، دار الكتاب العربي، ١٤١٩ هـ ١٩٩٩م.
٦١- د. صابر الحباشة: التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ط١، صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م.
٦٢- صاحب أبو جناح: دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، ط١، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
٦٣- د. صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ط دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٦٤-د. صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ط دار التنوير، بيروت، ١٩٩٣م.
٦٥- د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
٦٦-طالب هاشم الطبطبائي: نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩٤م.
٦٧-د. طاهر سليمان حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين، ط الدار الجامعية، د.ت.
٦٨- الطاهر شارف: المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور "سورة البقرة نموذجًا"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية الأداب، ٢٠٠٥، ٢٠٠٦م.
٦٩- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
٧٠- د. طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
٧١- د. عبد الله إبراهيم ود. عواد علي ود. سعيد الغانمي: معرفة الأخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٦م.
٧٢- ابن عبد ربه الأندلسي (أحمد بن محمد): العقد الفريد، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م.
٧٣- د. عبد الرحمن الحاج صالح: مدخل إلى علم اللسانيات الحديث٣، مجلة اللسانيات، الجزائر، المجلد الثاني، العدد١، ١٩٧٢م.
٧٤- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، ط٣، دار النهضة المصرية، ١٩٧٩م.
٧٥- د. عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م.
١٠٢- أ. عبد السلام هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١م.
١٠٣- عبد العزيز الكناني: الحيدة، حققه وقدم له: د. جميل صليبا، ط مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ت.
١٠٣- د. عبد القادر الفاسي الفهري: مقال ملاحظات حول الكتابة اللسانية، مجلة تكامل المعرفة (مجلة جمعية الفلسفة بالمغرب)، عدد خاص باللسانيات، ع ٩، ط ١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥م.
١٠٤- د. عبد القادر المهيري ود. محمد الشاوش: أهم المدارس اللسانية، ط٢، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٩٠م.

١٠٥- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تعليق: أ. محمود محمد شاكر، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
١٠٦- د. عبد المجيد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، ط دار توبقال للنشر، المغرب، ٢٠٠٠م.
١٠٧- د. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
١٠٨- د. عبده الراجحي:
- فقه اللغة في الكتب العربية، ط بيروت، ١٩٧٢م.
- النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية، ضمن: تمام حسان رائداً لغوياً، إعداد وإشراف: عبد الرحمن حسن العارف، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
١٠٩- عثمان بن طالب: البراجماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية، الملتقى الدولي "الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، تونس، د.ت.
١١٠- د. علي عزت: الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، ط شركة أبي الهول للنشر، د.ت.
١١١- د. عمر أوكان: اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠١م.
١١٢- الغزالي: المستصفى من علم الأصول، ومعه كتاب فواتح الرحموت للعلامة: عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري، بشرح مسلم الثبوت للإمام محب الله بن عبد الشكور، ط١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ.
١١٣- الفارابي (أبو نصر): كتاب الحروف، حققه وقدم له: محسن مهدي، بيروت، دار المشرق، ط٢، ١٩٩٠م.
١١٤- د. فاضل مصطفى الساقي: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧م.
١١٥- د. فاطمة الطبال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، دراسة ونصوص، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م.
١١٦- فرانسواز أرمنيكو: المقاربة التداولية، ترجمة د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط ١٩٨٦م.
١١٧- فرديناند دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة د. يوسف غازي، ود. مجيد النصر، دار النعمان للثقافة، لبنان، ١٩٨٤م.
١١٨- فندريس: اللغة، ترجمة د. محمد الدواخلي ود. محمد القصاص، ط البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٠م.

١١٩- فولفجانج هاينه وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: د. فالح بن شبيب العجمي، ط جامعة الملك سعود، ١٩٩٦م.
١٢٠- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة: د. صابر الحباشة، دار الحوار، سوريا، ٢٠٠٧م.
١٢١- القرافي:
- الأمنية في إدراك النية، تحقيق ودراسة: د. مساعد بن قاسم الفالح، ط١، مكتبة الحرمين، الرياض، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.
- الذخيرة، تحقيق: محمد حجي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.
١٢٢- د. قدور عمران: البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، رسالة دكتوراه، كلية اللغات والآداب، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩م.
١٢٣- القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق: د. عبد المنعم خفاجي، ط المكتبة الأزهرية للتراث، ١٩٩٣م.
١٢٤- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد): إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة التجارية، ١٩٥٥م.
١٢٥- كاترين فوك: مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ترجمة: د. المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٤م.
١٢٦- كارل – ديتر بونتنج: المدخل إلى علم اللغة، ترجمة وتعليق: د. سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٣م.
١٢٧- كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص (مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج)، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ١٣٢٥هـ، ٢٠٠٥م.
١٢٨- د. كمال بشر: دراسات في علم اللغة، ط دار المعارف، مصر، القسم١، د.ت.
١٢٩- لانسون وماييه: منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة: د. محمد مندور، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢م.
١٣٠- لوبوميير دوليزل: بنيوية مدرسة براغ، ترجمة: حسام نايل، منشور ضمن كتاب من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، إشراف: د. جابر عصفور، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
١٣١- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد): أدب الدنيا والدين، تحقيق: ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
١٣٢- المبرد: المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى

للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
١٣٣- د. محمد حبلص: من أسس علم اللغة، ط دار الثقافة العربية، ١٩٩٦م.
١٣٤- د. محمد حسن عبد العزيز:
- مبحث كيف تُنجَز الأشياء بالكلمات؟ ط كلية دار العلوم، ع١٨، ١٩٩٦م.
- مبحث كيف تُنجَز الأشياء بالكلمات؟٢ ط كلية دار العلوم، ع١٩، ١٩٩٦م.
١٣٥- د.محمد الحناش: مبحث الأساس المعرفي لمنظومة الإبداع (مقاربة لسانية- تداولية)، مجلة التواصل اللساني، م١٠، ع ١و٢، ٢٠٠١م.
١٣٦- د. محمد الصغير بناني:
- المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، ط دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠١م.
- النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب، ط١، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.
١٣٧- د. محمد صلاح الدين الشريَف: مبحث تقديم عام للاتجاه البراجماتي، أهم المدارس اللسانية، د. عبد القادر المهيري، ود. محمد الشايب، ط٢، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٩٠م.
١٣٨- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت.
١٣٩- د.محمد العبد:
- العبارة والإشارة، ط٢، مكتبة الأداب، ٢٠٠٧م.
- النص والخطاب والاتصال، ط الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ٢٠٠٥م.
١٤٠- د. محمد محمد أبو موسى: دلالات التراكيب دراسة بلاغية، ط مكتبة وهبة، د.ت.
١٤١- د. محمد محمد يونس: بحث أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، الكويت، مجلة عالم الفكر، ع١، م٣٢، ٢٠٠٣م.
١٤٢- د. محمود أحمد نحلة:
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.
- علم اللغة النظامي، مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ط٢، ملتقى الفكر، ٢٠٠١م.
١٤٣- د. محمود السعران: اللغة والمجتمع، ط دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
١٤٤- د. محمود سليمان ياقوت: فقه اللغة وعلم اللغة نصوص ودراسات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م.
١٤٥- د. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ط دار الطليعة، بيروت، د.ت.

١٤٦- مسلم في (صحيحه)، تحقيق: عبد الرزاق محمود الراتب، ط١، المركز الثقافي اللبناني، د.ت.
١٤٧- د. ميشال زكريا:
- الألسنية علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.
- الألسنية(علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥م.
١٤٨- د. مقبول إدريس: البعد التداولي عند سيبويه، عالم الفكر، ع١، م٢٣، ٢٠٠١م.
١٤٩- د. منذر عياش: اللسانيات والدلالة "الكلمة"، ط١، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ١٩٩٦م.
١٥٠- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
١٥١- د. نادية رمضان النجار:
- العناصر غير اللفظية للتواصل بين القدماء والمحدثين، مجلة اللغات والترجمة، عدد خاص لفعاليات المؤتمر الدولي الثالث لكلية الألسن، جامعة المنيا،٢٠٠٦م.
- فصول في الدرس اللغوي، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.
- اللغة وعلم اللغة قديما وحديثا، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠١٠م.
١٥٢- ابن النجار الحنبلي: مختصر التحرير شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، ط٢، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
١٥٣- د. نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م.
١٥٤- د.نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، بيروت، ١٩٨٠م.
١٥٥- النووي: المجموع شرح المهذب، طبعة كاملة معها تكملة السبكي والمطيعي، دار الفكر، د.ت.
١٥٦- هربرت بركلي: مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، ترجمة: قاسم مقداد، ج١، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠م.
١٥٧- ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، تحقيق: الشيخ محمد محيي الدين، ط المدني، القاهرة، د.ت.
١٥٨- د. يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، ١٩٨٩م.
159- Halliday, M.A.K. & R. Hasan: Cohesion in English, London: Longman, 1976.

الفهرس